جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنات بالقاهرة

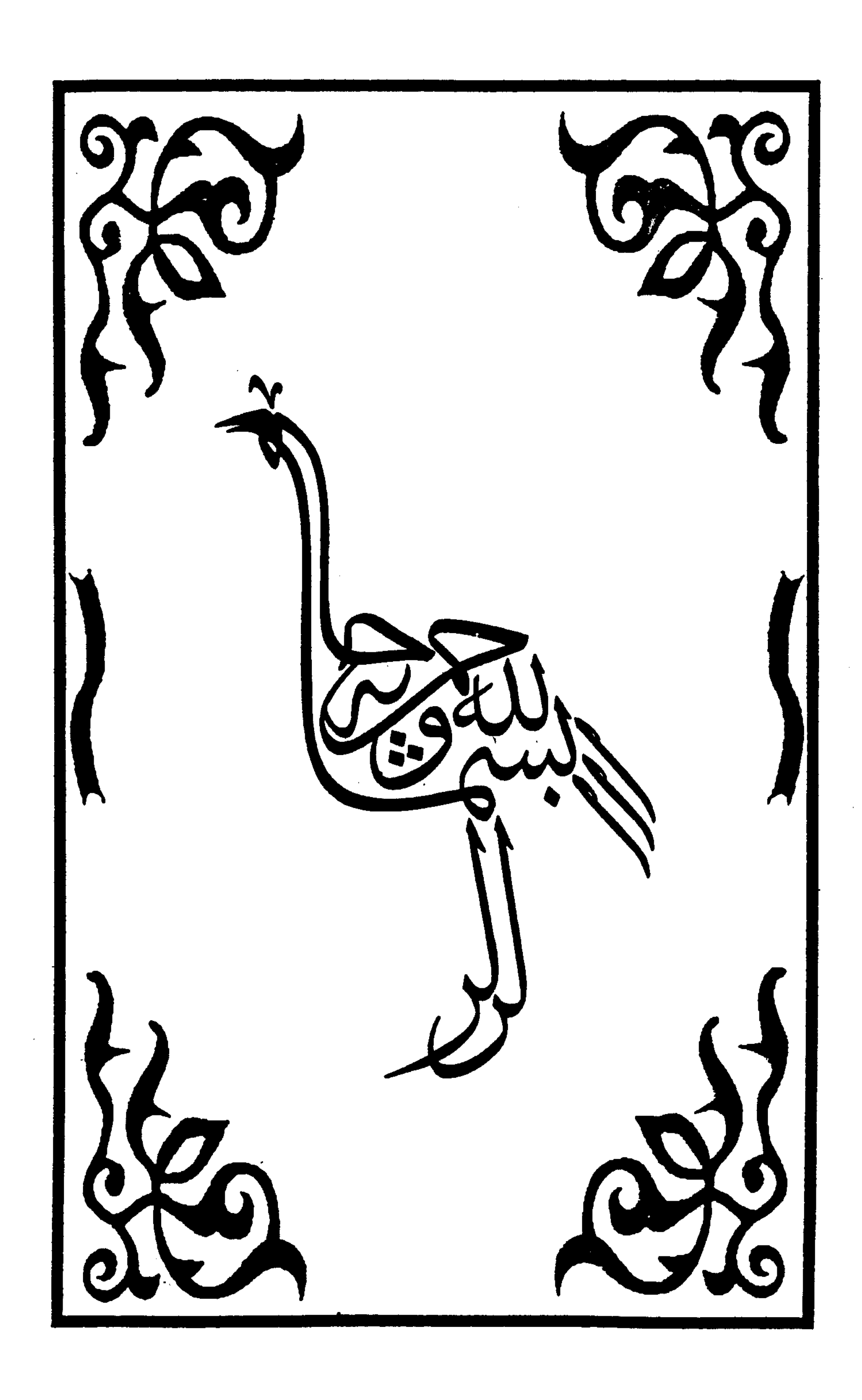
تفسير سورة مريم

دراسة تحليلية

إعداد
د / مهجة غالب عبد الرحمن هاشم
أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد بالكلية

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

الناشر
مكتبة ومطبعة الغد
للطبع والنشر والتوزيع



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله وعلى آله وصحبه ومن ولاه واتبع نهجه وهداه .

وبعد،،،،،

فإن أجل شئ يقتنى وأعظم أمر به يعتنى علم التفسير الـذى هـو أرفع العلوم قدراً ، وأحسنها نفعا .

لأنه يتعرف به عن معانى الكتاب الكريم خاتم الكتب الذى نزل على خاتم المرسلين سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام .

الكتاب الجامع الذى لا تنقضى عجائبه ، من قال به صدق ومن عمل به نجى وهدى إلى صراط مستقيم .

لذلك كانت أجل خدمة هى خدمة كتاب الله .

ومهمة علم التفسير هى خدمة كتاب الله بالشرح والتحليل وبيـان المعانى وإبراز الأهداف وجمع الموضوعات تحت الآيات .

لذلك أجمع العلماء على أن التفسير نوعان : تفسير تحْليلى وتفسير موضوعى ، وقبل أن أتحدث عنهما لابد أن نعرّف أولا معنى التفسـير فى اللغة وفى الاصطلاح .

التفسير فى اللغة : التفسير هو الايضاح والتبيين ومنـه قولـه تعالى : ﴿ **ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسـيرا** ﴾ (١) أى بيانا وتفصيلا وهو مأخوذ من الفسر وهو الإبانة والكشف .

---

(١) سورة الفرقان آية (٣٣) .

وفى القاموس : " الفسر : الإبانة وكشف المغطى كالتفسير، الفسر : البيان يقال فسر الشئ يفسره بالكسر ويفسُره بالضم فسراً ، وفسره أبانه والتفسير مثله ...

وقال الفسر هو كشف المغطى والتفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل .) [1]

وقال أبو حيان : إن التفسير يطلق على التعرية للإنطلاق ، قال ثعلب : تقول فسرت الفرس عربته لينطلق فى حصره .

التفسير فى الإصطلاح : انقسم العلماء إلى فريقين :

الفريق الأول : لم يتكلفوا فى الحد

الفريق الثانى : تكلفوا فى الحد

١ـ بيان كلام الله أو أنه المبين لألفاظ القرآن ومفهوماتها .

٢ـ قال أبو حيان (علم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها ، وأحكامها الإفرادية والتركيبية ومعانيها التى تحمل عليها حالة التركيب ، وتتمات لذلك) [2] .

التفسير التحليلى : لابد فيه من التعرف على مفردات الآية واستعمالاتها فى الحقيقة والمجاز ، وكذلك التعرف على وجوه الإعراب حيث يتفرع على وجوه الإعراب المختلفة للآية معان متعددة . كل معنى منها مراد غير مردود .

---

(١) انظر لسان العرب ج ٦ ص ٣٦١ .

(٢) انظر البحر المحيط لأبى حيان ج ١ ص ١٣ .

ثم ننتقل بعد ذلك إلى ما فى الآية من بيان ومعـــان وبديـــع حتـــى نتذوق بلاغة القرآن الكريم التى هى سر من أسرار إعجـــازه وحتـــى نفرق بين الحقيقة والمجاز .

وكذلك علينا أن نتعرف عما أنزلت الآية لأجله من هداية وإرشـــاد وتحذير وإنذار وتبشير وقصص ومواعظ وأحكام إلى غير ذلـــك مـــن ألوان هدى القرآن .

أما التفسير الموضوعى : المتبادر إلى الذهن يـــرى أنـــه جمـــع الآيات القرآنية التى تندرج تحت موضوع واحد وفهم معانيها وعنونتـــها وترتيبها بحيث تشكل موضوعا واحداً مع الإستعانة بالآحاديث النبويـــة الشريفة التى تخدم الموضوع لأن السنة إما أن تكون شارحة وموضحـــة ومبينة أو مشرعة لحكم جديد أو مقررة لحكم ورد فى القرآن الكريم .

مثال ذلك ما أمر به سبحانه وتعالى من التطهر للصلاة ﴿ **يا أيـها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤسكم** ﴾ سورة المائدة الآية رقم ٦ .

وقول رسول الله ﷺ " لا صلاة إلا بطهور " (١)

ومبينة : مثال : ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مـــا نـــزل إليهم** ﴾ الآية رقم ٤٤ من سورة النحل ٠ وما بينه الرسول ﷺ بأفعالـــه

---

(١) رواه بهذا اللفظ من طريق أبى هريرة : أحمد فى المســـند ، وابـــن ماجـــه ، والحاكم فى المستدرك انظر الفتح الكبير (٣٤٥/٣) ٠

حيث صلى وقال صلو كما رأيتمونى أصلى " [1] وحج وقال " خذوا عنى مناسككم " [2] .

أما كونها مشرعة فقد سكت القرآن الكريم عن بعض الأحكام واستقلت السنة النبوية الشريفة بتشريعاتها ليبين لنا المولى تبارك وتعالى أن ما تأتى به السنة هو تشريع كالقرآن ، فقد وجد رسول الله ﷺ يوم خيبر القوم يوقدون ناراً فقال لهم ما هذا ؟ قالوا : لحماً ، قال ما هو ؟ قالوا حمر أهلية . فقال ﷺ أهريقوها وكسروا الأوانى .

وما كان الأمر منه ﷺ بتكسَير الأوانى إلا لشدة النهى ومن هنا استدل العلماء بالحديث على حكمين :

الأول : تحريم أكل لحم الحمر الأهلية وهو تحريم جازم بقرينة الأمر بكسر الأوانى ، وهو حكم استقلت به السنة النبوية الشريفة بتشريعه .

الحكم الثانى : كراهية استعمال الأوانى حيث سأله البعض فى إحدى الروايات أفنغسلها يا رسول الله فسكت . فكان المقصود من النهى الكراهة وليس التحريم ولمزيد من المعرفة يمكن الرجوع إلى تفصيل الأحكام الواردة فى هذا الموضوع .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى ، انظره فى عمدة القارى (١٤٤/٥) ، وأخرجه أحمد فى المستدرك (٥٢/٥) .

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب الحج ، باب استحباب رمى جمرة العقبة يوم النحر (٤٤/٩) ، وأخرجه أبو داود ، كتاب الحج (٢٠١/٢) .

وبعض العلماء يرون أن التفسير الموضوعي هو تفسير السورة بأكملها مع بيان ترابط الآيات بعضها ببعض مما يؤكد ان القرآن كلام رب العالمين وبيان أغراض هذه السورة سواء كانت خاصة أم عامة . مع بيان المعنى الإجمالى للآيات وما تندرج تحته من موضوعات .

خطوات البحث فى التفسير الموضوعى

١ــ جمع الآيات القرآنية الواردة تحت موضوع البحث .

٢ــ معرفة معانى الآيات التى جمعت .

٣ــ ضم الآيات التى تحمل نفس المعنى .

٤ــ استنباط عناوين لموضوعات هذه الآيات .

٥ــ جمع الآحاديث النبوية التى تخص نفس الموضوع وفهرستها .

٦ــ استخدام كتب العقيدة والفقه واللغويات حسب الحاجة إليها كل فى موضعه .

٧ ــ وبعد ترتيب عناصر الموضوع يتكون لنا وحدة موضوعية من الآيات القرآنية مستشهدة بالآحاديث النبوية والأدلة الفقهية . وبذلك يعطينا صورة واضحة لموضوع تفسيرى يكشف لنا عن هدى القرآن .

وحاجة المسلم لمعرفة القرآن الكريم وما يشتمل عليه من هداية وإرشاد ، وأحكام ، وعبادات وتشريعات لا تتأتى إلا بمعرفتنا للتفسير سواء كان تفسير موضوعى أو تفسير تحليلى .

أحسن طرق البحث

١ــ أن يفسر القرآن بالقرآن فما أجمل فى مكان قد بسط فى موضــــع آخر .

٢ــ أن يفسر بالسنة فإنها شارحة وموضحة له .

٣ ــ أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوا من القرائن والأحوال التى اختصوا بها . وبما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح .

٤ ــ أقوال التابعين كمجاهد بن جبر فإنه كان آية فى التفسير .

وقد اخترت بتوفيق من الله تبارك وتعالى العمل فى تفسير ســــورة مريم بعد أن شرح الله صدرى فى الكتابة فيها ، مقدمــــة هــذا العمــل المتواضع راجية من الله تبارك وتعالى أن ينفعنى به وينفع به كل مــــن قرأه إنه نعم المولى ونعم النصير .

د / مهجة غالب عبد الرحمن

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية

بالقاهرة

تمهيد

ـ سورة مريم سورة مكية بالإجماع

ـ وسورة مريم من السور التى اشتملت على القصص القرآنى ففيـــها قصة سيدنا زكريا عليه السلام ، وقصة السيدة مريم وابنها عيســـى عليه السلام ، وقصة سيدنا ابراهيم عليه الســـلام ، وقصــة ســيدنا موسى عليه السلام ، وقصة سيدنا إسماعيل عليه الســـلام ، وقصـــة سيدنا إدريس عليه السلام .

ـ وعدد آيات السورة ٩٨ آية ثمان وتسعون آية .

ـ سبب تسمية السورة :

سميت السورة بسورة مريم نسبة إلى قصة السيدة مريم المذكـــورة فى السورة وحملها بعيسى وولادته ، وفائدة الرطب للنفســـاء ، ونـــذر الصمت وإتيانها قومها تحمله وتكلم عيسى من المهد وغير ذلـــك ممـــا يخص مريم العذراء وابنها نبى الله عيسى بن مريم .

قال الإمام ابن عاشور : " اسم هذه السورة فى المصاحف وكتـــب التفسير وأكثر كتب السنة سورة مريم . ورويت هذه التسمية عـــن النبى ﷺ فى حديث رواه الطبرانى والديلمى ، وابن منده وأبو نعيـــم ، وأبو أحمد الحاكم : عن أبى بكر بن عبد الله بن أبى مريم النسائى عـــن أبيه عن جده أبى مريم قال : " أتيت النبى ﷺ فقلت يارســـول الله إنـــه ولدت لى الليلة جارية ، فقال : والليلة أنزلت علىّ سورة مريم فســـمها مريم " فكان يكنى أبا مريم ، واشتهر بكنيته . واسمه نذير . ويظهر أنه أنصارى ....

وهى السورة الرابعة والأربعون فى ترتيب أسباب الــنزول [1] نزلت بعد سورة فاطر وقبل سورة طه .وكان سبب نــزول ســورة طه قبل إسلام عمر بن الخطاب كما يؤخذ من قصة إسلامه فيكــون نزول هذه السورة أثناء سنة أربع من البعثة مع أن السورة مكيـــة ، وليس أبو مريم هذا معدود فى المسلمين الأولين فلا أحسب الحديـث المروى عنه مقبولا .

ووجه التسمية أنها بسطت فيها قصة مريم وابنها وأهلها قبــل أن تفصّل فى غيرها . ولا يشبهها فى ذلك إلا سورة آل عمران التـــى نزلت فى المدينة) [2]

وقال الإمام ابن عاشور : " وابن عباس سماها ســورة "**كــهيعص**" وكذلك وقعت تسميتها فى صحيح البخارى فى كتاب التفسير فى أكـــثر النسخ وأصحها [3] ولم يعدها جلال الدين فى " الإتقان " فى عداد السور المسماة باسمين ولعله لم ير الثانى اسما .) [4] وقد تكرر اسم مريــم فى القرآن ثلاثين مرة ، ولم تذكر امرأة سواها باسمها الصريح .

---

(١) الإتقان ج ١ تحت عنوان ما أنزل الله من القرآن بمكة ص ٧٢ .

(٢) انظر التحرير والتنوير م ٨ ج ١٦

(٣) صحيح البخارى م ٢ ج ٦ كتاب التفسير ص ١١٧ ، تفسير الإمام الألوســى ج ١٦ ص ٥٦ .

(٤) التحرير والتنوير م ٨ ج ١٦ ص ٥٧ وانظر الإتقان فى علــوم القــرآن ج ١ ص ١٥١ و ص ١٦١ .

علاقة السورة بما قبلها

السورة التى تسبق سورة مريم فى المصحف هى سورة الكهف وقد اختتمت سورة الكهف بقوله تعالى : ﴿ **قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا** ﴾ (١)

فالسورة ختمت بالنهى عن الإشراك بالله سواء كان إشراكا جليا واضحا كما فعل الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا .حيث كفروا بآيات الله ولقائه . ، أو إشراكا خفيا كما يفعله أهل الرياء والسمعه افتخاراً وتباهيا وكذلك من يطلب به عوضا أو ثناءاً حسنا .

وقد اشتملت سورة مريم على الرد على النصارى الذين جعلوا عيسى بن مريم إله من دون الله أو جعلوه ابن الله فقد أشركوا مع الله عز وجل من يُخْلَقَ ولا يَخْلِق فكأن سورة مريم تتميم لقوله تعالى فى سورة الكهف : ﴿ **ولا يشرك بعبادة ربه أحدا** ﴾ .

قال الشيخ الطبرسى : " ختم الله سبحانه وتعالى سورة الكهف بذكر التوحيد والدعاء إليه ، وافتتح هذه السورة بذكر الأنبياء الذين كانوا على تلك الطريقة ، بعثا على الاقتداء بهم والاهتداء بهديهم وحثا عليه " (٢)

قال الإمام القرطبى : " لما كانت وقعة بدر ، وقتل الله فيها صناديد الكفار ، قال كفار قريش : إن ثأركم بأرض الحبشة ، فأهدوا إلى النجاش ، وابعثوا إليه رجلين من ذوى رأيكم لعله يعطيكم من عنده من

---

(١) سورة الكهف الآية ١١٠ .

(٢) انظر تفسير الشيخ الطبرسى ج ١٦ ص ٦ .

قريش فتقتلونهم بمن قتل منكم من ببدرفبعث كفار قريش عمـــرو بـــن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة ؛ فسمع رسول الله ﷺ ببعثهما ، فبعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضّمرى ، وكتب معه إلـــى النجاشـــى ، فقدم على النجاشى فقرأ كتاب رسول الله ﷺ ، ثم دعا جعفر بـــن أبـــى طالب والمهاجرين ، وأرسل إلى الرهبان والقسيسين فجمعهم ، ثم أمـــر جعفر أن يقرأ عليهم القرآن ، فقرأ سورة مريم " كهيعص " وقاموا تفيض أعينهم من الدمع ، فهم الذين أنزل الله تعالى فيهم : ﴿ **ولتجدن أقربـــهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانـــا وأنهم لا يستكبرون** ﴾ (١) **وقرأ إلى قوله** : ﴿ **الشاهدين** ﴾ .

ذكره أبو داود وفى السيرة ، فقال النجاشى : هل معك مما جاء به عن الله شئ ؟ قال جعفر : نعم فقال له النجاشى : اقرأه علىّ قال : فقرأ ﴿ **كهيعص** ﴾ فبكى والله النجاشى حتى أخضل لحيته ، وبكت أســاقفتهم حتى أخضلوا لحاهم حين سمعوا ما يتلى عليهم ، فقال النجاشـــــى : إن هذا والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة ، انطلقـــا فـــوالله لا أسلمهم إليكما أبدا وذكر تمام الخبر .) (٢)

وذكر ذلك أيضا الإمام ابن كثير وقال إن جعفر بن أبى طـــالب ــ رضى الله عنه ــ قرأ صدر هذه السورة على النجاشى وأصحابه (٣) .

---

(١) سورة المائدة آية ٨٢ .

(٢) تفسير الطبرى ج ١١ ص ٧٢ ، ص ٧٣ .

(٣) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١١٠ .

التفسير التحليلى للسورة

قال تعالى : ﴿ كهيعص ﴾

المراد بالحروف المقطعة فى أوائل السور

اختلف أهل التأويل فى الحروف التى فى أوائل السور فقال عامر والشعبى وسفيان الثورى وجماعة من المحدثين : هى سر الله فى القرآن ، ولله فى كل كتاب من كتبه سر ، فهى من المتشابه الذى انفرد الله تعالى بعلمه ، ولا يجب أن نتكلم فيها ، ولكن نؤمن بها وتقرأ كما جاءت . وروى هذا القول عن أبى بكر الصديق وعن على بن أبى طالب ــ رضى الله عنهما ــ وذكر أبو الليث السمرقندى عن عمر وعثمان وابن مسعود أنهم قالوا : الحروف المقطعة من المكتوم الذى لا يفسر .

وقال أبو حاتم : لم نجد الحروف المقطعة فى القرآن إلا فى أوائل السور ، ولا ندرى ما أراد الله جل وعز بها .

قلت : ومن هذا المعنى ما ذكره أبو بكر الأنبارى : حدثنا الحسن بن الحباب حدثنا أبو بكر بن ابى طالب حدثنا أبو المنذر الواسطى عن مالك بن مغول عن سعيد بن مسروق عن الربيع بن خثيم قال : إن الله تعالى أنزل هذا القرآن فاستأثر منه بعلم ما شاء ، وأطلعكم على ما شاء ، فأما ما استاثر به لنفسه فلستم بنائليه فلا تسألوا عنه ، وأما الذى أطلعكم عليه فهو الذى تسألون عنه وتخبرون به ، وما بكل القرآن تعلمون ولا بكل ما تعلمون تعملون . قال أبو بكر فهذا يوضح أن حروفا من القرآن سترت معانيها عن جميع العالم ، واختباراً من الله عز وجل وامتحانا ، فمن آمن بها أثيب وسعد ، ومن كفر وشك أثم وبعد .

حدثنا أبو يوسف بن يعقوب القاضى حدثنا محمد بن أبـــى بكــر حدثنا عبد الرحمن بن مهدى عن سفيان عن الأعمش عن عمارة عـــن حُريت بن ظهير عن عبد الله قال : ما آمن مؤمن أفضل مـــن إيمـــان بغيب ؛ ثم قرأ ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب** ﴾ (1)

قلت : هذا القول فى المتشابه وحكمه ، وهو الصحيح .

وقال جمع من العلماء كبير : بل يجب أن نتكلم فيـــها ، ونلتمــس الفوائد التى تحتها ، والمعانى التى تتخرج عليها ؛ واختلفوا فـــى ذلــك على أقوال عديدة ؛ فروى عن ابن عباس وعلى أيضا : أن الحـــروف المقطعة فى القرآن اسم الله الأعظم ، إلا أنا لا نعرف تأليفه منها ، وقال قُطرب والفراء وغيرهما : هى إشارة إلى حروف الهجاء أعلم الله بـــها العرب حين تحداهم بالقرآن أنه مؤلف من حروف هى التى منها بنـــاء كلامهم ؛ ليكون عجزهم عنه أبلغ فى الحجة عليهم إذا لم يخــرج عــن كلامهم ... وقال قوم : روى أن المشركين لما أعرضوا عن سماع القـرآن بمكة وقالوا : ﴿ **لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه** ﴾ (2) نزلت ليستغربوها فيفتحون لها أسماعهم فيسمعون القرآن بعدها فتجب عليهم الحجة .

وقال جماعة : هى حروف دالة على أسماء أخذت منـــها وحذفــت بقيتها كقول ابن عباس وغيره : (آلم) الألف من الله واللام من جبريل والميم من محمد ﷺ . وقيل : الألف مفتاح اسمه الله واللام مفتاح اسمه لطيف ، والميم مفتاح اسمه مجيد .

---

(1) سورة البقرة آية (3) .

(2) سورة فصلت آية 26 .

وروى **أبو الضحى** عن ابن عباس فى قوله : ﴿ الٓمٓ ﴾ قال : أنا الله أعلم ، ﴿ الٓر ﴾ أنا الله أرى ، ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ أنا الله أفصل فالألف تؤدى عن معنى أنا ، واللام تؤدى عن اسم الله والميم تؤدى عن معنى أعلم . واختار هذا القول الزجاج وقال : أذهب إلى أن كل حرف منها يؤدىعن معنى ، وقد تكلمت العرب بالحروف المقطعة نظما لها ووضعا بدل الكلمات التى الحروف منها .... **وقال زيد بن أسلم** : هى أسماء للسور . وقال الكلبى : هى أقسام أقسم الله تعالى بها لشرفها وفضلها ، وهى من أسمائه (١):

وجاء فى تفسير البحر المديد ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ هى مختصرة من أسماء الله تعالى فالكاف من كاف والهاء من هاد والياء من يمين والعين من عليم أو عزيز والصاد من صادق . قاله الهروى عن ابن جبير .

قال أبو الهيثم : جعل الياء من يمين ، من قولك : يمن الله الإنسان ييمنه يمنا فهو ميمون .

ولذا ورد الدعاء بها فقد روى عن على ــ كرم الله وجهه ــ أنه كان يقول : (يا كهيعص) ؛ أعوذ بك من الذنوب التى توجب النقم ، وأعوذ بك من الذنوب التى تغير النعم ، وأعوذ بك من الذنوب التى تهتك العصم وأعوذ بك من الذنوب التى تحبس غيث السماء ، وأعوذ بك من الذنوب التى تذيل الأعداء انصرنا على من ظلمنا) (٢) . كان

---

(١) انظر الجامع لاحكام القرآن للإمام القرطبى ج ١ ص ١٥٤ : ص ١٥٦ .

(٢) أخرجه بنحوه الإمام أحمد فى المسند ج ١ ص ١١٢ .

يقدم هذه الكلمات بين يدى كل شدة ، فيحتمل أن يكـــون توســل بالأســماء المختصرة من هذه الحروف . أو تكون الجملة ، عنده ، اسما واحـــداً مـــن أسماء الله تعالى ، وقيل : هو اسم الله الأعظم . ويحتمـــل أن يشــير بـــهذه الرموز إلى معاملته تعالى مع أحبائه ، فالكاف كفايته لهم والهاء هدايته إياهم إلى طريق الوصول إلى حضرته والياء يُمنه وبركته عليهم وعلى من تعلــق بهم ، والعين عنايته بهم فى سابق علمه ، والصاد صدقه فيما وعدهم به من الإتحاف والإكرام . **والله تعالى أعلم .**

وقيل : هى مختصرة من أسماء الرسول ﷺ أى يا كافى ، ياهادى ، يـــا ميمون ، ياعين العيون ، أنت صادق مصدق وعن ماض بن سلطان تلميـــذ أبى الحسن الشاذلى ــ رضى الله عنهما ــ : " أنه رأى فى منامه أنه اختلـف مع بعض الفقهاء فى تفسير قوله : ﴿ **كهيعص ــ حم ــ عق** ﴾ فقلت : هــى أسرار بين الله تعالى وبين رسوله ﷺ ، وكأنه قال : " كاف " ؛ أنت كـــهف الوجود الذى يؤم إليه كل موجود ، " ها " ؛ هينا لك الملـــك ، وهيأنـــا لـــك الملكوت ، و " يع " ياعين العيون ، " ص " صفات الله (من يطع الرســـول فقد أطاع الله) ، " حاء " حببناك ، " ميم " ملكناك ، " عين "علمناك" " سين " سارِرناك ، " قاف " ؛ قربناك . فنازعونى فى ذلك ولم يقبلوه ، فقلــت : نسير إلى النبى ﷺ ليفصل بيننا ، فسرنا إليه ، فلقينا رســـول الله ﷺ ، فقال لنا : الذى قال محمد بن سلطان هو الحق) وكأنه يشير إلى أنـــها صفات أفعال) [1] .

---

(١) انظر البحر المديد فى تفسير القرآن المجيد لأبى العباس ، أحمد بن محمد بن عجيبــة . المجلد الثالث ج ١٦ ص ٣١٧ ، ص ٣١٨ . وانظر فتح البارى شــرح صحيــح الإمام البخارى ١٩ ــ كهيعص ج ٧ ص ٤٢٧ .

وجاء فى زاد المسير : " وقد خص المفسرون هذه الحروف المذكورة هاهنا بأربعة أقوال :

أحدها : أنها حروف من أسماء الله عز وجل . قاله الأكثرون . ثم اختلف هؤلاء فى الكاف من أى اسم هو ، على أربعة أقوال . أحدها : أنه من اسم الله الكبير . **والثانى** : من الكريم **والثالث** : من الكافى ، روى هذه الأقوال الثلاثة سعيد بن جبير عن ابن عباس . والرابع : أنه من الملك قاله محمد بن كعب . فأما الهاء ، فكلهم قالوا : هى من اسمه الهادى إلا القرظى فإنه قال : من اسمه الله .

وأما الياء ، ففيها ثلاثة أقوال : **أحدها** من حكيم **والثانى** من رحيم **والثالث** : من أمين ، روى هذه الأقوال الثلاثة سعيد بن جبير عن ابن عباس .

فإما العين ففيها أربعة أقوال : **أحدها** : أنها من عليم **والثانى** : من عالم **والثالث** : من عزيز رواها أيضا سعيد عن ابن عباس **والرابع** : أنها من عدل قاله الضحاك . وأما الصاد ، ففيها ثلاثة أقوال : أحدها أنها من صادق والثانى : من صدوق ، رواهما سعيد ايضا عن ابن عباس . والثالث : أنها من الصمد ، قاله محمد بن كعب والقول الثالث : أن " **كهيعص** " قسم اقسم الله تعالى به ، وهو من أسمائه ، رواه على بن أبى طلحه عن ابن عباس . وروى عن على ــ رضى الله عنه أنه قال : هو اسم من أسماء الله تعالى وروى منه أنه كان يقول : ياكهيعص اغفر لى قاله الزجاج .

القصة الأولى

قصة نبى الله زكريا وابنه يحيى

- عليهما السلام -

قال تعالى : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا(٢)إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا(٣)قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا(٤)وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا(٥)يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا(٦) ﴾

تحمل هذه الآيات قصة سيدنا زكريا عليه السلام .

﴿ ذكر ﴾ : خبر عن مضمر أى هذا ذكر ، والإشارة للمتلو فى هذه السورة ؛ لأنه باعتبار كونه على جناح الذكر فى حكم الحاضر المشاهد ، وقيل : مبتدأ حذف خبره أى : فيما يتلى عليك ذكر رحمة ربك . وقيل : خبر عن **﴿ كهيعص ﴾** وقال الزجاج : هذا محال ؛ لأن **﴿ كهيعص ﴾** ليس هو مما انبأنا الله عز وجل به عن زكريا ، وقد أخبر الله تعالى عنه وعما بشر به ، وليس **﴿ كهيعص ﴾** من قصته . وقال الأخفش : التقدير ، فيما يقص عليكم ذكر رحمة ربك .

وقال الإمام القرطبى : الرفع يكون بثلاثة أوجه :ـ

الأول : أنه رفع ب **﴿ كهيعص ﴾** الحروف المقطعة .

الثانى : أنه مرفوع باضمار مبتدأ أى هذا ذكرُ .

الثالث : أنه مبتدأ محذوف الخبر تقديره : بما يقضى عليكم ذكرُ .

إما أنه منصوب (ذكَّرَ) أى إن هذا المتلو من القرآن ذكَّرَ رحمـــة ربك . أو على الأمر فيكون ذكِّرْه .

و(رحمة) تكتب ويوقف عليها بالهاء ، وكذلك كل ما كان مثلـها ، لا اختلاف فيها بين النحويين ، واعتلوا فى ذلك أن هذه الـهاء لتـأنيث الأسماء فرقا بينها وبين الأفعال [1]

ومعنى (ذكر الرحمة) بلوغها إليه . و ﴿ **زكريا** ﴾ فيها قراءتـان مشهورتان ﴿ **زكرياء** ﴾ و ﴿ **زكريا** ﴾ بالمد والقصر . وكـــان نبيـا عظيما من أنبياء بنى اسرائيل وفى الصحيح " [2] أنه كان نجاراً يـأكل من عمل يده فى النجارة " [3] .

قال الإمام النووى : " قوله ﷺ " كان زكرياء نجاراً " فيه جواز الصنائع وأن النجارة لا يسقط المروءة وأنها صفة فاضلة وفيه فضيلة لزكرياء صلـى الله عليه وسلم فإنه كان صانعا يأكل من كسبه وقد ثبت قوله ﷺ أفضل مـا أكل الرجل من كسبه وان نبى الله داود كان يأكل من عمل يده) [4] .

و ﴿ **عبده** ﴾ قال الأخفش : هو منصوب ب ﴿ **رحمة** ﴾ . وقيل : هو على التقديم والتأخير ؛ معناه ذكر ربك عبـده زكريـا برحمـة

---

(١) انظر تفسير الإمام القرطبى ج ١١ ص ٧٥ .

(٢) صحيح الإمام مسلم بشرح الإمام النووى ج ١٥ كتاب الفضائل بـاب فضـل زكريا ـ عليه السلام ـ ص ١٣٥ ٠

(٣) انظر تفسير الإمام ابن كثير ج ٣ ص ١١٠ .

(٤) انظر شرح الإمام النووى على صحيح مسلم ج ١٥ ص ١٣٥ .

و﴿ **عبده** ﴾ منصوبة بالذكر و ﴿ **زكريا** ﴾ : بدل منه ، أو عطف بيان لعبده .

قوله تعالى : ﴿ **إذا نادى ربه ندآءً خفيا** ﴾ قال الإمام القرطبي : إن هذه الآية مثل قوله : ﴿ **ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين** ﴾ (١) . . . .

﴿ **ادعوا ربكم** ﴾ هذا أمر بالدعاء وتعبد به . ثم قرن جل وعز بالأمر صفات تحسن معه . وهى الخشوع والاستكانة والتضرع . ومعنى ﴿ **خفية** ﴾ أى سرا فى النفس ليبعد عن الرياء ، وبذلك أثنى على نبيه زكريا ـ عليه السلام ـ إذ قال مخبراً عنه : ﴿ **إذ نادى ربه نداءً خفيا** ﴾ (٢) .

ونحوه قول النبى ﷺ : " خير الذكر الخفى وخير الرزق ما يكفى " (٣) والشريعة مقررة أن السر فيما لم يعترض من أعمال البر أعظم أجراً من الجهر .

قال الحسن بن أبى الحسن : لقد أدركنا أقواما ما كان على الأرض عمل يقدرون على أن يكون سرا فيكون جهراً أبدا .

ولقد كان المسلمون يجتهدون فى الدعاء فلا يسمع لهم صوت إن هو إلا الهمس بينهم وبين ربهم .وذلك أن الله تعالى يقول : ﴿ **أدعوا ربكم**

---

(١) سورة الأعراف آية ٥٥ .

(٢) سورة مريم آية (٣) .

(٣) انظر مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ١ ص ١٧٢ عن سعيد بن مالك .

تضرعا وخفية ﴾ وذكر عبداً صالحا رضى فعله فقال : ﴿ **إذ نادى ربه نداء خفيا** ﴾ . . .

وروى مسلم عن أبى موسى قال : كنا مع النبى ﷺ فى سفر — وفى رواية فى غزاة — فجعل الناس يجهرون بالتكبير — وفى رواية فجعل رجل كلما علا ثنيه قال : لا إله إلا الله — فقال رسول الله ﷺ : " أيها الناس اربعوا (١) على أنفسكم إنكم لستم تدعون أصم ولا غائبا إنكم تدعون سميعا قريبا وهو معكم " (٢)

والنداء الدعاء والرغبة ، أى ناجى ربه بذلك فى محرابه . دليله قوله : ﴿ **فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين** ﴾ (٣).

فبين أنه استجاب له فى صلاته كما نادى فى الصلاة .

قال الإمام ابن كثير : " قال بعض المفسرين إنما أخفى دعاءه لئلا ينسب فى طلب الولد إلى الرعونة لكبره . حكاه الماوردى .

وقال آخرون إنما أخفاه لأنه أحب إلى الله كما قال قتادة فى هذه الآية ﴿ **إذ نادى ربه نداء خفيا** ﴾ إن الله يعلم القلب التقى ، ويسمع الصوت الخفى ، وقال بعض السلف قام من الليل — عليه السلام — وقد

---

(١) أى ارفعوا بها ولا تبالغوا فى الجهد انظر القرطبى ج ٧ ص ٢٢٤ .

(٢) انظر الترمذى ج ٥ كتاب الدعاء باب ٣ حديث رقم ٣٣٧٤ . وهذا حديث حسن ص ٤٥٧ .

(٣) سورة آل عمران الآية ٣٩ .

نام أصحابه فجعل يهتف بربه يقول خفية يارب يارب يارب فقال الله له لبيك لبيك لبيك) [1] .

ووافقه الإمام القرطبى فى هذا الرأى فقال : " واختلف فى إخفائه هذا النداء ؛ فقيل : أخفاه من قومه لئلا يلام على مسئلة الولد عند كبر السن ؛ ولأنه أمر دنيوى ، فإن أجيب فيه نال بغيته وإن لم يجب لم يعرف بذلك أحد . وقيل : مخلصا فيه لم يطلع عليه إلا الله تعالى . وقيل : لما كانت الأعمال الخفية أفضل وأبعد من الرياء أخفاه . وقيل : ﴿ **خفيا** ﴾ سرا من قومه فى جوف الليل ؛ والكل محتمل والأول أظهر **والله أعلم** .

... **وقال** : إن المستحب من الدعاء الإخفاء ، وهذه الآية نص فى ذلك ، لأنه سبحانه أثنى بذلك على زكريا .

قال رسول الله ﷺ : " إن خير الذكر الخفى وخير الرزق ما يكفى " [2] وهذا عام . قال يونس بن عبيد : كان الحسن يرى أن يدعوا الإمام فى القنوت ويؤمن من خلفه من غير رفع صوت ، وتلا يونس : ﴿ **إذ نادى ربه نداء خفيا** ﴾ قال ابن العربى : وقد اسر مالك القنوت وجهر به الشافعى ، والجهر به أفضل ؛ لأن النبى ﷺ كان يدعو به جهرا .) [3]

وقال الإمام ابن العربى : " القول فيه لوجهين : أحدهما : أنه كان ليلا والثانى : لأنه ذكر فى دعائه أحوالا تفتقر إلى الإخفاء كقوله : ﴿ **وإنى خفت الموالى من ورائى** ﴾ وهذا مما يكتم ولا يجهر به

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١١٠ ، ص ١١١

(٢) سبق تخريجه فى ص ٢٢ .

(٣) انظر تفسير الإمام القرطبى ج ١١ ص ٣٦

وقد أسر مالك القنوت ، وجهر به الشافعي ، والجهر أفضل ؛ لأن النبـى ﷺ كان يدعو به جهراً حسبما ورد فى الصحيح والله أعلم .) [١] .

وأرى أن الأقوال كلها لا تتعارض لأن رسول الله ﷺ نهى عـن المبالغة فى رفع الصوت فى الدعاء ، وحسب الأحوال إن كان الأمـر يتطلب الإخفاء مثل حال زكريا ـ عليه السلام ـ فهو أولى وإن كـان الأمر يتطلب الجهر فالجهر أولى . والله أعلم .

و ﴿ **إذ نادى** ﴾ : ظرف لرحمة ، وقيل : لذكر ، على أنه مضـاف إلى فاعله وقيل : بدل اشتمال من زكريا ، كما فى قوله : ﴿ **وَاذْكُرْ فِـي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذْ انتَبَذَتْ . . .** ﴾ [٢]

قال الإمام الزمخشرى : " خفت صوته لضعفه وهرمه كما جاء فـى صفة الشيخ صوته خفات وسمعه تارات " [٣]

---

(١) انظر أحكام القرآن للإمام ابن العربى المجلد الثانى ص ١٢٥ .

(٢) سورة مريم الآية ١٦ .

(٣) الكشاف ج ٢ ص ٥٠٢ .

قال تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا(٤) ﴾

﴿ **قال رب** ﴾ أى قال زكريا يارب ، وحذف حرف النداء لقرب الله سبحانه وتعالى منا جميعاً فهو أقرب لنا من حبل الوريد .

قرئ : ﴿ **وَهَنَ** ﴾ بالحركات الثلاث أى ضعف . يقال : وهَنَ يَـهِن ووهِن يَوْهَن .

وإنما ذكر العظم لأنه عمود البدن ، وبه قوامه ، وهو أصل بنائه ، فإذا وهن تداعى وتساقط سائر قوته ؛ ولأنه أشدّ ما فيه وأصلبه ، فإذا وهن كان ما وراءه أوهن منه .

ووحده لأنه الواحد هو الدال على معنى الجنسية ، وقصده إلى أن الجنس الذى هو العمود والقوام ، وأشد ما تركب منه الجسد قد أصابه الوهن ، ولو جمع لكان قصد إلى معنى آخر ، وهو أنه لم يهن منه بعض عظامه ولكن كلها .) [١] .

قال فى دعائه : ﴿ **رب وهن العظم منى** ﴾ أى : ضعف بدنى وذهبت قوتى . ووهن بدنه ــ عليه السلام ــ لكبر سنه ، قيل : كان ابن سبعين ، أو خمسا وسبعين ، وقيل : مائة . وقيل أكثر .

قال الإمام الزمخشرى : " واختلف فى سن زكريا ــ عليه السلام ــ فقيل ستون ، وخمس وستون ، وسبعون وخمس وسبعون وخمس وثمانون " [٢] .

---

(١) انظر تفسير الإمام القرطبى ج ١١ ص ٧٦ ، ص ٧٧ .

(٢) الكشاف للإمام الزمخشرى ج ٢ ص ٥٠٢ .

والمراد من هذا ، الإخبار عن الضعف والكبر ودلائلـــه الظـــاهرة والباطنة .

قوله تعالى : ﴿ **منى** ﴾ حال من العظم ، أى كائنا منى .

قوله تعالى : ﴿ **واشتعل الرأس شيبا** ﴾ الإشتعال انتشـــار شـــعاع النار ؛ هذا من أحسن الإستعارة فى كلام العرب ، شبه به انتشار الشيب فى الرأس ، يقول : شخت وضعفت ؛ واضاف الإشتعال إلـــى مكـــان الشعر ومنبته هو الرأس ، ولم يضف الرأس اكتفاء بعلم المخاطب أنـــه رأس زكريا عليه السلام . و ﴿ **شيبا** ﴾ فى نصبه وجهان : أحدهمـــا : أنه مصدر لأن معنى اشتعل شاب ، وهذا قول الأخفش .

وقال الزجاج : هو منصوب على التمييز .

وقال النحاس : قول الأخفش أولى لأنه مشتق من فعل فـــالمصدر أولى به . والشيب مخالطة الشعر الأبيض الأسود . " [(١)] .

وفى الكلام مبالغة شديدة وسرعة انتشار شيب الرأس ثـــم قـــال : ﴿ **ولم أكن بدعائك رب شقيا** ﴾ أى لم أكن بدعائى إياك خائبا فى وقت من أوقات هذا العمر الطويل بل كنت كلما دعوتك استجبت لى . توسل إلى الله بسابق حسن عوائده فيه ، لعله يشفع له ذلك بمثله إثر تمهيد مـــا يستدعى ويستجلب الرأفة من كبر السن وضعف الحال .

وقوله ﴿ **لم أكن** ﴾ أى فى الزمن الماضى ، أى كنـــت بـــالله فـــى الزمن الماضى تستجيب لدعائى ومن حق الكريم إلا يخيب رجاء مـــن دعاه .

---

(١) انظر القرطبى ج ١١ ص ٧٦ ، ص ٧٧ ، والكشاف ج ٢ ص ٥٠٢ .

والتعرض فى الموضعين لوصف الربوبية ﴿ **رب إنى وهن العظم منى** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **ولم أكن بدعائك رب شقيا** ﴾ لتحريك سلسلة الإجابة بالمبالغة فى التضرع ، ولذلك قيل : من أراد أن يستجاب له فليدع الله بما يناسبه من أسمائه وصفاته .) [١]

قال الإمام الزمخشرى " ولم يضف الرأس اكتفاء بعلم المخاطب أنه رأس زكريا ، فمن ثم فصحت هذه الجملة وشهد لها بالبلاغة .

توسل إلى الله بما سلف له معه من الاستجابة . وعن بعضهم أن محتاجا سأله وقال : أنا الذى أحسنت إلىّ وقت كذا فقال : مرحبا بمن توسل بنا إلينا وقضى حاجته . "[٢] .

يقال شقى بكذا أى تعب فيه ولم يحصل مقصوده .

قوله تعالى : ﴿ **وإنى خفت الموالى** ﴾ الموالى جمع مولى وهو العاصب .

والموالى : الأقارب ، وهم : بنو عمه ، وكانوا أشرار بنى اسرائيل فخاف ألا يحسنوا خلافته فى أمته ، فسال الله تعالى ولداً صالحاً يأمنه على أمته .

" **وقد بينا أن للموالى ثمانية معان فى كتب الأصول والحديث** وأوضحنا أن من جملتها الوارث وابن العم ولم يخف زكريا إرث المال

---

(١) انظر البحر المديد فى تفسير القرآن المجيد لابن عجيبة م ٣ ج ١٦ ص ٣١٧ .

(٢) انظر الكشاف للإمام الزمخشرى ج ٢ ص ٥٠٢ .

ولا رجاه من الولد ، وإنما أراد إرث النبوة وعليها خاف أن تخرج عن عَقِبه فقد قال ﷺ :" إنا معشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة " [(١)]

قال الإمام القرطبى : " العرب تسمى بنى العم الموالى ؛ قال الشاعر [(٢)]

مهلا بنى عمنا مهلا موالينا لا تنبشوا بيننا ما كان مدفونا

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : خاف أن يرثوا ماله وأن ترثه الكلالة فأشفق أن يرثه غير الولد . وقالت طائفة : إنما كان مواليه مهملين للدين فخاف بموته أن يضيع الدين ، فطلب وليا يقوم بالدين بعده ؛ حكى هذا القول الزجاج ؛ وعليه فلم يسل من يرث ماله ؛ لأن الأنبياء لا تورث . وهذا هو الصحيح من القولين فى تأويل الآية ، وانه عليه الصلاة والسلام أراد وراثة العلم والنبوة لا وراثة المال ؛ لما ثبت عن النبى ﷺ أنه قال : " إنا معشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة " [(٣)] .

وفى الحديث : " أن العلماء ورثة الأنبياء وأن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، ورثوا العلم " [(٤)]

---

(١) انظر تفسير ابن العربى م ص ١٢٥٠ . والحديث رواه احمد فى مسنده ج ٢ ص ٤٦٣ .

(٢) هو الفضل بن العباس بن عتبة بن أبى لهب ؛ وهو من شعراء بنى هاشم فى عهد بنى أمية .

(٣) انظر مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ٤٦٣ .

(٤) صحيح الإمام البخارى كتاب الفرائض ـ باب قول النبى لا نورث ج ٤ ص ١٦٤ . طبعة الحلبى .

وقوله : ﴿ من ورائى ﴾ فيها قراءتان الأولى : ﴿ من ورائـــى ﴾ والثانية قراءة ابن كثير من وراى بالقصر . ومعناها بعد موتى .

" قال كيف يقول : خفت الموالى من بعدى أى من بعـــد موتـــى ، ولكن من ورائى فى ذلك الوقت ؛ وهذا أيضا بعيد يحتاج إلى دليل أنـــهم خفوا فى ذلك الوقت وقالوا ، وقد أخبر الله تعالى بما يدل على الكـــثرة حين قالوا : ﴿ أيهم يكفل مريم ﴾ (١) . ابن عطية ﴿ من ورائى ﴾ من بعدى فى الزمن ، فهو الوراء ." (٢)

قال تعالى : ﴿ وكانت امرأتى عاقراً ﴾ أى أن زوجته لم تلد له قـط لا فى صغرها ولا فى كبرها .

قال الإمام القرطبى : " والعاقر التى لا تلد لكبر سنها ؛ يقال رجـــل عاقر وامرأة عاقرة بينة العقر . وقد عقُرت وعقَر (بضم القاف فيهما) تعقُر عُقْرا صارت عاقرا ، وإنما قيل عاقر لأنه يراد به ذات عُقر علـى النسب ... والعاقر : العظيم من الرمل لا ينبت شيئا .

والعُقْر أيضا مهر المرأة إذا وُطئت على شبهة . وبيضة العُقْـــر : زعموا هى بيضة الديك ؛ لأنه يبيض فى عمره بيضة واحدة إلى الطـــول . وعُقْر النار أيضا وسطها ومعظمها وعقْر الحوض : مؤخره حيث تقف الإبل إذا وردت ؛ يقال : عُقْر وعُقر ... والجمع الأعقـــار فـــهو لفـــظ مشترك .) (٣)

---

(١) سورة آل عمران آية ٤٤ .

(٢) تفسير القرطبى ج ١١ ص ٧٩ .

(٣) انظر تفسير الإمام القرطبى ج ٤ ص ٧٩ ، ص ٨٠ .

قال تعالى : ﴿ **فهب لى من لدنك وليا** ﴾ الفاء : لترتيب ما بعدها على ما قبلها فإن ما ذكره عليه السلام من كبر السن وعقر المرأة موجب لانقطاع رجائه عن الولد بتوسط الأسباب ، فاستوهبه على الوجه الخارق للعادة ، ولا يقدح فى ذلك أن يكون هناك داع آخر إلى الإقبال على الدعاء المذكور ، من مشاهدته للخوارق الظاهرة عند مريم كما ظهر ذلك من قوله تعالى : ﴿ **هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء** ﴾ (١)

" أى فى ذلك المكان الذى كان فيه فى المحراب أو فى ذلك الوقت الذى شاهد تلك الكرامات وفى نفس المكان الذى دعا زكريا ربه فالجمهور من العلماء المحققين على أن زكريا رأى عند مريم من فاكهة الصيف فى الشتاء وبالعكس وأن ذلك خارق للعادة فطمع هو أيضا فى أمر خارق هو حصول الولد من شيخ كبير ومن امرأة عاقر ، وهذا لا يقتضى أن يكون زكريا قبل ذلك شاكا فى قدرة الله تعالى على مجوّز وقوع الخوارق ، فإن من حسن الأدب رعاية الوقت الأنسب فى الطلب)" (٢) .

وقوله : ﴿ **فهب لى من لدنك ..** ﴾ أى أعطنى من محض فضلك الواسع وقدرتك الباهرة ، بطريق الاختراع ، لا بواسطة الأسباب العادية لأن التعبير بلدن يدل على شدة الاتصال والالتصاق ﴿ **وليا** ﴾ : ولداً من صلبى ، يلى المر من بعدى .

---

(١) سورة آل عمران الآية ٣٨ .

(٢) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للإمام النيسابورى ج ٣ ص ١٨٠ .

قال الإمام القرطبى : ﴿ **فهب لى من لدنك وليا** ﴾ سؤال ودعـــاء . ولم يصرح بولد لما علم من حاله وبعده عنه بسبب المرأة . قال قتـادة : جرى له هذا الأمر وهو ابن بضع وسبعين سنة ، مقاتل : خمس وتسعين سنة ؛ وهو أشبه ؛ فقد كان غلب على ظنه أنه لا يولد له لكـــبره ؛ ولذلـــك قال : ﴿ **وقد بلغت من الكبر عتيا** ﴾ (١) .

" قوله : ﴿ **من لدنك** ﴾ أن حصول الولد فى العرف والعـــادة لـــه أسباب مخصوصة وكانت مفقودة فى حقه ، فكأنه قال : أريد منك يارب أن تعزل الأسباب فى هذه الواقعة وتخلق هذا الولد بمحض قدرتك مـــن غير توسيط الأسباب . " (٢)

قال تعالى : ﴿ **يَرِثُنِي وَيَـــرِثُ مِـــنْ آلِ يَعْقُـــوبَ وَاجْعَلْـــهُ رَبِّ رَضِيًّا** ﴾ (٦)

﴿ **يرثنى** ﴾ : صفة لوليا ، وقرئ بالجزم هو وما عطـــف عليـــه جوابا للدعاء ، أى : يرثنى من حيث العلم والدين والنبوة ، فإن الأنبيـاء ــ عليهم السلام ــ لا يورثون من جهة المال ...

وقيل : يرثنى فى الحبورة ، وكان عليه السلام حبراً .

" قوله : ﴿ **ويرث من آل يعقوب** ﴾ النبوة والملـــك . قيـــل : هـــو يعقوب ابن اسحاق وقال الكلبى ومقاتل : هو يعقوب ابن ماثان ، أخـــو عمران بن ماثان ، أبى مريم ، وكانت زوجة زكريا أخـــت أم مريـــم ،

---

(١) سورة مريم جزء من الآية (٨) . انظر الجامع لأحكام القرآن ج ١١ ص ٧٩.

(٢) النيسابورى ج ٣ ص ١٨١ ، ص ١٨٢ .

وماثان من نسل سليمان ــ عليه السلام ــ ، فكان آل يعقوب أخوال يحيى . قال الكلبى : كان بنو ماثان رؤوس بنى اسرائيل وملوكهم ، وكان زكريا رئيس الأحبار يومئذ فأراد ان يرث ولده حبورته من بنى ماثان ملكهم . " (١) .

" **وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة أن البنى ﷺ قال :** " يرحم الله زكريا وما كان عليه من وراثة ماله ويرحم الله لوطا إن كان ليأوى إلىَ ركن شديد " .

وقال ابن جَرير حدثنا أبو كريب حدثنا جابر بن نوح عن مبارك هو ابن فضالة عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ : " رحم الله أخى زكريا ما كان عليه من وراثة ماله حين قال " هب لى من لدنك وليا يرثنى ويرث من آل يعقوب " وهذه مرسلات لا تعارض الصحاح والله اعلم " (٢) .

و " **يعقوب** " لم ينصرف لأنه اسم أعجمى .

" **فإن قيل** : كيف عدى الفعل الأول بنفسه ، والثانى بحرف الجر وهو واحد ؟

---

(١) انظر البحر المديد لابن عجيبة م ٣ ج ١٦ ص ٣٢١ ، ابن كثير ج ٣ ص ١١١ . والقرطبى ج ١١ ص ٨٢ ، والكشاف ج ٢ ص ٥٠٣ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١١١ ، أخرجه عبد الرازاق فى تفسيره ج ٢ ص ٣ وابن جرير ج ١٦ ص ٤٨ .

والجواب على ذلك ميسور يقال : ورثه وورث منــــه ، فجمـــع بين اللغتين .

أو أن " من " فى الآية بمعنــــــى التبعيـض لا للتعديــة لأن آل يعقوب لم يكونوا كلهم أنبياء ولا علماء " [١]

قال تعالى : ﴿ **واجعله رب راضيا** ﴾ أى مرضيا فى أخلاقــــه وأفعاله وقيل : راضيا بقضائك وقدرك . وقيــل : رجــلا صالحــا ترضى عنه . وقال أو صالح : نبيا كما جعلت أباه نبيا .

قال ابن عجيبة : " أى : مرضيا ، فعيـــل بمعنـــى مفعــول ، أى : ترض عنـــه فيكــون مرضيـــا لـــك ، ويحتمـــل أن يكـــون مبالغة من الفاعل ، أى : راضيا بتقديــــرك وأحكـــامك التعريفيـــة والتكليفية والله تعالى أعلـــم . " [٢]

وقال الإمام ابن كثير : " أى مرضيا عندك وعند خلقك تحبـــه وتحببه إلى خلقك فى دينه وخلقه . " [٣]

---

(١) انظر الزمخشرى ج ٢ ص ٥٠٣ .

(٢) تفسير ابن عجيبة م ٣ ج ١٦ ص ٣٢٠ .

(٣) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١١١ .

التفسير الإجمالى للآيات

لقد افتتحت السورة بالحروف المقطعة ، الحروف التى يتكـون منها كلام العرب ومع ذلك عجزوا أن يصوغوا منـها مثـل مـا تصوغه القدرة المبدعة لهذا القرآن . فجئ بها للإشارة إلى إعجـاز القرآن الكريم . حيث كون من نفس الحروف التى يكونـون منـها كلامهم ، ومع ذلك عجز المشركون بل الإنس والجنّ مجتمعين عـن الإتيان بمثل أقصر سورة .

وكذلك لجذب انتباه السامع للقرآن حيث يفجأه مـا لا يفهمـه فيصغى له جيداً لعله يجد فى ثناياه ما يشرح غامضه عنده ثم بعـد هذه الإفتتاحية تبدأ القصة الأولى : وهى قصة سيدنا زكريا ويحيـى ورحمة المولى عز وجل بزكريا وهو نبى عظيم من أنبيـاء بنـى اسرائيل ومن ثم يتقدمها ذكر الرحمة : ﴿ **ذكر رحمة ربـك عبـده زكريا** ﴾ .

ثم بدأت القصة بالدعاء . دعاء زكريا لربه فى ضراعه وخفيـة قال تعالى : ﴿ **إذ نادى ربه نداء خفيا** ... ﴾ ينادى ربه بعيـدا عن أعين الناس وأسماعهم وزكريا يشكو إلى ربه وهـن العظـم ، ووهن العظم دليل على وهن الجسم كله ثم بث إلى ربـه اشـتعال شيب الرأس .

ووهن العظم واشتعال الرأس كناية عن الشيخوخة ثم اعـترف بأن الله قد عوده أن يستجيب إليه إذا دعاه وهو فى حاجة إلى عـون

مولاه وسيده وخالقه . فهو لا يملك الأسباب الظاهرة للوصول إلــى هذه الذرية فهو فى شيخوخه وزوجته عقيم فليس لديــه إلا اللجــوء إلى مالك الأسباب والمسببات الذى يقول للشئ كن فيكون .

طلب نبى الله زكريا : طلب الضعيف الراجى من الله أن يــهب له ولد يرثه أى يرث النبوة والحكمة منه .

ولا ينسى نبى الله زكريا أن يصور أمله فى الولد الذى يرجــوه من ربه ﴿ **واجعله رب راضيا** ﴾ فالرضى الذى يرضى ويرضـــى من حوله .

قال تعالى : ﴿ يَازَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا(٧)قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنْ الْكِبَرِ عِتِيًّا(٨)قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا(٩)قَالَ رَبِّ اجْعَل لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا(١٠)فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنْ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا(١١) ﴾ الآيات ٧ : ١١

قوله تعالى : ﴿ **يا زكريا** ﴾

قال الإمام القرطبى : " فى الكلام حذف ؛ أى فاستجاب الله دعائه فقال : ﴿ **يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى** ﴾ فتضمنت هذه البشرى ثلاثة أشياء : أحدها : إجابة دعائه ، وهى كرامة . والثانى : إعطاؤه الولد وهو قوة . والثالث : أن يفرد بتسميته " (١)

" ﴿ **يحيى** ﴾ اسم أعجمى كموسى وعيسى . ومن جوز أن يكون عربيا فمنع صرفه للعلمية ووزن الفعل كيعمر (٢) "

﴿ **يحيى** ﴾ سمى بذلك لأن الله تعالى أحيا به الناس بالهدى ، وقال مقاتل : إشتق اسمه من اسم الله تعالى " حى " فسمى " يحيى " . وقيل : لأنه أحيا به رحم أمه وفى تعدد معانى الإسم تنويه بعظم شأن المسمى .

قال الإمام ابن كثير " هذا الكلام يتضمن محذوفا وهو أنه أجيب إلى ما سأل فى دعائه فقيل له ﴿ **يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى** ﴾ كما قال تعالى : ﴿ **هنا لك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك**

---

(١) الإمام القرطبى ج ١١ ص ٨٢ .

(٢) تفسير الإمام النيسابورى ج ٣ ص ١٨٢ .

ذرية طيبة إنك سميع الدعاء * فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحى مصدقا بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين ﴾ (١) .

﴿ **هنا لك** ﴾ أى فى ذلك المكان الذى كان فيه فى المحراب وهو مكان العبادة أو فى ذلك الوقت الذى شاهد فيه عند مريم بعض الكرامات من فاكهة الصيف فى الشتاء وفاكهة الشتاء فى الصيف وعلمه أن مريم لا يدخل عليها بشر غيره وإخبارها أن هذا من عند الله فطمع هو أيضا فى أمر خارق للعادة وهو حصول الولد من شيخ كبير وامرأته عاقر عجوز . وهذا لا يعنى أن يكون زكريا قال ذلك شاكا فى قدرة الله تعالى غير مجوز وقوع الخوارق فإن من حسن الأدب ، رعاية الوقت الأنسب فى الطلب .

وقوله تعالى : ﴿ **من لدنك** ﴾ أن حصول الولد فى العرف والعادة له أسباب مخصوصة وكانت مفقودة فى حقه ، فكأنه قال : أريد منك يارب أن تعزل الأسباب فى هذه الواقعة وتخلق هذا الولد بمحض قدرتك من غير توسيط الأسباب .

قوله تعالى : ﴿ **فنادته الملائكة** ﴾ ظاهر اللفظ للجمع ، وهذا فى باب التشريف أعظم . ثم ما روى أن المنادى كان جبريل ...

أجيب عليه : بأن جبريل كان رئيس الملائكة ، وقلما يبعث إلا ومعه آخرون .. " (٢)

قوله : ﴿ **يا زكريا** ﴾ كلمه بواسطة الملك لأن المبشر هو الله .

---

(١) سورة آل عمران الآية ٣٨ ، ٣٩ .

(٢) انظر تفسير الإمام النيسابورى ج ٣ ص ١٨٢ .

قوله تعالى : ﴿ **إنا نبشرك** ﴾ " البشارة المطلقة لا تكون إلا بالخير وإنما تكون بالشر إذا كانت مقيدة كقوله تعالى : ﴿ **فبشرهم بعذاب أليم** ﴾ (١) " والاسم (البُشْرى) ٠٠٠والاسم (البشارةُ) و (البُشارَةُ) بالكسر والضم يقال : بشرتُه بمولود فأَبْشَرَ إبشاراً أى سُرَّ ٠٠٠ وقال الزجاج : معنى يبشرك يسرك ويفرحك . وبَشَرْتُ الرجل أبشُرُه إذا أفرحته ويُبَشِّرُك من البُشارة . قال : وأصل هذا كله أن بَشَرَةَ الإنسان تنبسط عند السرور ؛ ومن هذا قولهم : فلان يلقانى ببِشْر أى بوجه منبسط . " (٢)

ومعنى ﴿ **إنا نبشرك** ﴾ : أى نسرك بما يؤثر فى بشرتك التى أصابها الكبر واليأس .

﴿ **بغلام اسمه يحيى** ﴾ قال الإمام ابن عجيبه " فى تعيين اسمه تأكيد للوعد وتشريف له ، وفى تحصيصه به ــ كما قال تعالى ﴿ **لم يجعل له من قبل سميا** ﴾ أى : شريكا فى الاسم ، حيث لم يتسم به أحد قبله ــ مزيد تشريف وتفخيم له ﷺ فإن التسمية بالأسماء البديعة الممتازة عن أسماء الناس تنويه بالمسمى لا محالة . ــ ووجه الفضيلة أن الله تعالى تولى تسميته ، ولم يكل ذلك إلى أبويه ، فسماه باسم لم يسبق إليه .

وقيل ﴿ **سميا** ﴾ : شبيها فى الفضل والكمال ، كما قال تعالى : ﴿ **هل تعلم له سميا** ﴾ (٣) فإنه ﷺ لم يكن قبله أحد مثله فى بعض

---

(١) سورة آل عمران جزء من آية ٢١ .

(٢) انظر لسان العرب ج ١ مادة (بشر) ص ٤١٤ ، ص ٤١٥ .

(٣) من الآية ٦٥ من سورة مريم .

أوصافه ، لأنه لم يهم بمعصية قط ، وأنه ولد لشيخ فان ، وعجوز عـاقر ، وأنه كان حصورا ، ولم تكن هذه الخصال لغيره . " (١)

" وقيل : ﴿ **سميا** ﴾ لم يسم أحد بيحيى قبله . وهذا شاهد علـى أن الأسامى السنع (٢) جديرة بالأثرة وإياها كانت العرب تنتحى فى التسمية لكونها أنبه وأنوه وأنزه عن النبز حتى قال القائل فى مدح قوم :

سنع الأسامى مسبلى أزر حمر نمس الأرض بالهدب

وقال رؤبة للنسابة البكرى وقد سأله عن نسبه : أنا ابن العجاج ، فقال : قصرت وعزفت . وقيل مثلا وشبيها عن مجاهد كقوله ـ هـل تعلم له سميا ـ وإنما قيل للمثل سمّى لأن كل متشاكلين يسمى كل واحد منهما باسم المثل والشبيه والشكل والنظير فكل واحد سمى لصاحبه ، ٠٠٠٠ قالوا : لم يكن له مثل فى أنه لم يعص ولم يهم بمعصية قط وأنه ولد بين شيخ فان وعجوز عاقر " (٣) .

" وقال السيوطى فى الجامع الصغير : إن تفرده به بقى إلـى أيـام النبى ﷺ حتى سمى به يحيى بن خلاد . " (٤) .

قال الإمام ابن عاشور: " والسمى فسروه بالموافق فى الاسم ، أى : لم نجعل له ما يوافقه فى هذا الاسم من قبل وجوده . فعليه يكون هـذا الإخبار سراً من الله أودعه زكريا فلا يظن أنه قد يُسمى أحد ابنه يحيى فيما بين هذه البشارة وبين ازدياد الولد وهذه منة من الله وإكرام لزكريا

---

(١) انظر تفسير ابن عجيبه م ٣ ج ١٦ ص ٣٢١ .

(٢) السَّنعُ : الجمال والسَّنيعُ : الحسن الجميل انظر لسان العرب ج ٦ ص ٣٩٢ .

(٣) انظر الكشاف للإمام الزمخشرى ج ٢ ص ٥٠٣ .

(٤) انظره فى الجامع الصغير للسيوطى ج ص

إذ جعل اسم ابنه مبتكراً وللأسماء المبتكرة مزية قوة تعريف المسمى ؛ لقلة الاشتراك ، إذ لا يكون مثله كثيرا مدة وجوده . وله مزية اقتداء الناس به من بعد حين يسمون أبناءهم ذلك الاسم تيمنا واستجادة ...

والمعنى : أنه لم يجئ قبل يحيى من الأنبياء من اجتمع له ما اجتمع ليحيى فإنه أعطى النبوءة وهو صبى ، ﴿ **وآتيناه الحكم صبيا** ﴾ [1]

وجعل حصوراً ليكون غير مشقوق عليه فى عصمته عن الحرام ، ولئلا تكون له مشقة فى الجمع بين حقوق العبادة وحقوق الزوجة وولد لأبيه بَعد الشخوخة ولأمه بعد العقر . وبُعث مبشرا برسالة عيسى — عليه السّلام — ولم يكن هو رسولا .

وجعل اسمه العلم مبتكراً غير سابق من قبله .

وهذه مزايا وفضائل وهبت له ولأبيه ، وهى لا تقتضى أنه أفضل الأنبياء لأن الأفضلية تكون بمجموع فضائل لا ببعضها وإن جلّت ، ولذلك قيل " المزية لا تقتضى الأفضلية " وهى كلمة صدق . " [2] .

قال بعض العلماء : " وهو قول من قال : إن معناه : لم نجعل له من قبل سميا ، أى نظيرا يساويه فى السمو والرفعة غير صواب ، لأنه ليس بأفضل من ابراهيم ونوح وموسى فالقول الأول هو الصواب ، وممن قال به : ابن عباس وقتادة ، والسدى ، وابن أسلم وغيرهم ... " [3] .

---

(١) سورة مريم جزء من آية ١٢ .

(٢) انظر التحرير والتنوير لابن عاشور م ٨ ج ١٦ ص ٦٩ ، ص ٧٠ .باختصار

(٣) انظر تفسير أضواء البيان ج ٤ ص ٢١٤ .

قال تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنْ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ الآية (٨) .

جملة ﴿ قال رب ﴾ جواب للبشارة .

قال الإمام ابن عاشور " و ﴿ أنى ﴾ استفهام مستعمل فى التعجب والتعجب مكنى به عن الشكر ، فهو اعتراف بأنها عطية غزيرة غير مألوفة لأنه لا يجوز أن يسأل الله أن يهب له ولداً ثم يتعجب من استجابة الله له . ويجوز أن يكون قد ظن الله يهب له ولداً من امرأة أخرى بأن يأذنه يتزوج امرأة غير عاقر . " (١) .

والمعنى : من أين وكيف يحدث له غلام وهو على هيئته وامرأته عقيم عجوز فقد تقطعت الأسباب الدنيوية الأسباب البشرية وإنما قاله مع سبق دعائه وقوة يقينه بقدرة الله لا سيما بعد أن رأى عند مريم فاكهة الصيف فى الشتاء وفاكهة الشتاء فى الصيف وهو يعلم أنه لا يدخل عليها بشر واخبارها إياه بأن هذا من عند الله قال هذا استعظاما لقدرة الله تعالى واعتداداً بنعمته تعالى عليه أو قال ذلك دهشا من شدة الفرح أو قاله استفساراً عن كيفية حدوثه هل سيكون من زوجته أم من زوجة غيرها .

قال الإمام القرطبى : " ليس على معنى الإنكار لما أخبر الله تعالى به ، بل على سبيل التعجب من قدرة الله تعالى أن يخرج ولداً من امرأة عاقر وشيخ كبير . " (٢) .

قال الإمام الزمخشرى : "فإن قلت : لما طلب أولاً وهو وامرأته على صفة العتى والعقر فلما أسعف يطلبنه استبعد واستعجب ؟ قلت :

---

(١) تفسير الإمام ابن عاشور م ٨ ج ١٦ ص ٧٠ .

(٢) تفسير الإمام القرطبى ج ١١ ص ٨٣ .

ليجاب بما أجبت به فيزداد المؤمنون إيقانا ويرتدع المبطلون وإلا فمعتقد زكريا أولا وآخراً كان على منهاج واحد فى أن الله غنى عن الأسباب " (١)

قوله تعالى : ﴿ **وكانت امرأتى عاقر** ﴾ .

" وفى معنى : ﴿ **كانت** ﴾ قولان : أحدهما : أنــه توكيــد للكــلام فالمعنى : وهى عاقر ، كقوله : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للنــاس** ﴾ (٢) أى : أنتم .

والثانى : أنها كانت منذ أن كانت عاقراً ، لم يحــدث ذلــك بــها ، ذكرهما ابن الأنبارى ، واختار الأول " (٣)

وقال الإمام الطبرسى : " ﴿ **وكانت امرأتى عاقرا** ﴾ قال الحسن إنمـــا قال ذلك على جهة الاستخبار أى أتعيدنا شابين أم ترزقنا الولد شيخين " (٤) .

وجملة : ﴿ **وكانت امرأتى عاقرا** ﴾ حال من ياء التكلم وكرر ذلــك مع قوله فى دعائه ﴿ **وكانت امرأتى عاقرا** ﴾ وهو يقتض أن زكريـــا كـــان يظن أن عدم الولادة بسبب عقر امرأته ، وكان الناس يحسبون ذلــك إذا لم يكن بالرجل عنة ولا خصاء ولا اعتراض لأنهم يحسبون الإتعـــاض والإنزال هما سبب الحمل إن لم تكن بالمرأة عاهة العقر . وهذا خطـــأ فإن عدم الولادة يكون إما لعلة بالمرأة فى رحمها أو لعلة فى ماء الرجل يكون غير صالح لنماء البويضات التى تبرزها رحم المرأة . " (٥)

---

(١) تفسير الإمام الزمخشرى ج ٢ ص ٥٠٣ .

(٢) سورة آل عمران جزء من الآية ٣٩ .

(٣) انظر زاد المسير فى علم التفسير ج ٥ ص ١٤٨ .

(٤) مجمع البيان ج ١٣ ص ١٦ .

(٥) التحرير والتنوير م ٨ ج ١٦ ص ٧٠ .

قوله تعالى : ﴿ **وقد بلغت من الكبر عتيا** ﴾ معناه : أنه بلغ من كبر السن حال اليبس وتحول العظام . والكبر تقدم السن (العتى) عتا العود إذا يبس .

" ومن فى قوله ﴿ **من الكبر** ﴾ للابتداء وهو مجاز فى معنى التعليل .... شبه عظامه بالأعواد اليابسة على طريقة المكنية ، وإثبات وصف العُتى لها استعارة تخييلية . "(١)

قوله تعالى ﴿ **قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا** ﴾ الآية (٩) .

يبين المولى عز وجل أن قدرته لا تحتاج لمسببات فقدرته كاملة وتعتبر الآية الكريمة جواب عن سؤال نبى الله زكريا .

قوله تعالى : ﴿ **قال كذلك** ﴾ أى : الأمر كما ذكر من كبر السن وعقم المرأة

قال الإمام ابن عاشور : " فصلت جملة ﴿ **قال كذلك** ﴾ لأنها جرت على طريقة المحاورة . وهى جواب عن تعجبه . والمقصود منه إبطال التعجب الذى فى قوله ﴿ **وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا** ﴾ فضمير (قال) عائد إلى الرب من قوله ﴿ **قال رب أنى يكون لى غلام** ﴾ .

والإشارة فى قوله : ﴿ **كذلك** ﴾ إلى قول زكريا ﴿ **وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا** ﴾ . الجار والمجرور مفعول لفعل ﴿ **قال ربك** ﴾ أى كذلك الحال من كبرك وعقر امرأتك

---

(١) المرجع السابق ص ٧١ .

قدّر بك : ففعل ﴿ **قال ربك** ﴾ مراد به القول التكويني أى التقديـــرى ، أى تعلق الإرادة والقدرة . والمقصود من تقريره التمهيد لإبطال التعجب الدال عليه قوله ﴿ **على هين** ﴾ فجملة ﴿ **هو على هيـــن** ﴾ اســتئناف بياني جوابا لسؤال ناشئ عن قوله ﴿ **كذلك** ﴾ لأن تقرير منشأ التعجــب المقرر ، وذلك كونه هينا فى جانب قدرة الله تعالى العظيمة .

ويجوز أن يكون المشار إليه بقوله ﴿ **كذلك** ﴾ هو القول المـــأخوذ من ﴿ **قال ربك** ﴾ أى أن قول ربك ﴿ **هو على هيـــن** ﴾ بلـــغ غايـــة الوضوح فى بابه بحيث لا يبين بأكثر ما علمت ، فيكون جاريـــا علـــى طريقة الشبيه كقوله تعالى : ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطا** ﴾ (١) .

وعلى هذا الاحتمال فجملة ﴿ **هو على هيـــن** ﴾ تعليـــل لإبطـــال التعجب إبطالا مستفاداً من قوله ﴿ **كذلك قال ربك** ﴾ ، ويكون الانتقـــال من الغيبة فى قوله ﴿ **قال ربك** ﴾ إلى التكلم فى قولـــه ﴿ **هـــو علـــى هين** ﴾ التفاتا ومقتضى الظاهر : هو عليه هيـــن .والـــهيّن ــ بتشـــديد الياء ــ : السهل حصوله . " (٢)

ونقل الشيخ الطبرسى عن ابن عباس فى تفسير قوله تعالى ﴿ **قـــال ربك هو على هين** ﴾ أن معناه " أرد عليك قوتك حتى تقوى علـــى الجماع ، وافتق رحم امرأتك بالولد . " (٣)

فالآية تبين أن خلق يحيى ــ عليه السلام ــ أمر سهل على المولى عز وجل لأن المولى إذا أراد شئ يقول له كن فيكون ويبين لنا الإمـــام

---

(١) سورة البقرة جزء من الآية ١٤٣ .

(٢) التحرير والتنوير للإمام ابن عاشور م ٨ ج ١٦ ص ٧١، ٧٢ .

(٣) انظر مجمع البيان للشيخ الطبرسى ج ١٦ ص ١٦ .

القرطبى أن القائل هنا المولى عز وجل عن طريق الملك فقال : " أى قال له الملك ﴿ **كذلك قال ربك** ﴾ والكاف فى موضع رفع أى الأمر كذلك ؛ أى كما قيل لك : ﴿ **هو على هين** ﴾ قال الفراء : خلقه علىّ هين . " (١)

ثم ذكر المولى عز وجل ما هو أعجب من خلق يحيى عليه السلام وهو خلق أصل الإنسان وهو آدم ـ عليه السلام ـ بدون أب أو أم فقال تعالى : ﴿ **وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا** ﴾ أى أوجدتك وأوجدت أصلك ولم تكن موجوداً فإزالة أسباب عدم الانجاب من العقر وكبر السن من الأمور السهلة الميسورة .

قال الإمام ابن عجيبة فى قوله تعالى : ﴿ **هو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا** ﴾ أى : وقد أوجدت أصلك آدم من العدم ، ثم نشأت أنت من صلبه ، ولم تك شيئا فإن نشأت آدم ـ عليه السلام ـ وتصويره منطوية على نشأة أولاده ، ولذلك قال فى آية أخرى : ﴿ **ولقد خلقناكم ثم صورناكم** ﴾ (٢)

وقال الإمام ابن كثير (٣) هذه الآية تماثل قوله تعالى : ﴿ **هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا** ﴾ (٤)

وذكر لنا أن خلق الإنسان من عدم أقوى فى التعجب من إزالة الأسباب التى تمنع الإنجاب عادة من كبر السن ولعقر فهو المسبب وهو المريد والله على كل شئ قدير .

---

(١) انظر تفسير الإمام القرطبى ج ١١ ص ٨٤ .

(٢) جزء من الآية ١١ من سورة الأعراف . انظر ابن عجيبة فى تفسيره ج ١٦ ص ٣٢٢ .

(٣) انظر تفسير الإمام ابن كثير ج ٣ ص ١١٢ .

(٤) سورة الإنسان الآية (١) .

وقال الإمام ابن عاشور " وجملة ﴿ **وقد خلقتك من قبل** ﴾ على الاحتمالين هى فى موضع الحال من ضمير الغيبة الذى فى قوله: ﴿ **هو على هين** ﴾ . أى : إيجاد الغلام لك هين على فى حال كونى قد خلقتك من قبل هذا الغلام ولم تكن موجوداً أى فى حال كونه مماثلا لخلقى إياك ، فكما لا عجب من خلق الولد فى الأحوال المألوفة كذلك لا عجب من خلق الولد فى الأحوال النادرة إذ هما إيجاد بعد عدم .

ومعنى : ﴿ **ولم تك شيئا** ﴾ : لم تكن موجوداً .

وقرأ الجمهور ﴿ **وقد خلقتك** ﴾ بتاء المتكلم وقرأ حمزة والكسائى وخلف " وقد خلقناك " بنون العظمة . (١)

قال تعالى : ﴿ **قَالَ رَبِّ اجْعَل لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلا تُكَلِّمَ النَّاس ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا** ﴾ الآية (١٠) .

ومثيلة هذه الآية قوله تعالى فى سورة آل عمران : ﴿ **قال رب اجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشى والإبكار** ﴾ (٢)

والجعل معناه التصير أى صير لى والآية هى العلامة التى يعرف بها وطلب زكريا ــ عليه السلام ــ هذه العلامة لهفة منه على تحقق البشرى . وجعل المولى عز وجل الآية هى امتناع نبى الله زكريا عن الكلام ويبين لنا العلماء أن المراد بالامتناع عن الكلام لمدة ثلاث ليال هو الامتناع عن كلام البشر ولكن ترديد الدعاء والذكر والشكر لله لم ينقطع لأن هذا الامتناع لم يكن لمرض أو عجز ولكن علامة من المولى عز وجل لنبى الله زكريا .

---

(١) انظر التحرير والتنوير م ٨ ج ١٦ ص ٧٢،ص ٧٣ .

(٢) سورة آل عمران الآية رقم (٤١) .

قال الإمام القرطبى : " طلب آية على حملها بعد بشارة الملائكة إياه وبعد قوله تعالى : ﴿ **وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا** ﴾ زيادة طمأنينة ؛ أى تمّم النعمة بأن تجعل لى آية ، وتكون تلك الآية زيادة نعمة وكرامة " [1]

ثم ذكر الإمام القرطبى عند تفسيره للآية ٤١ من سورة آل عمران : " فعاقبهِ الله تعالى بأن أصابه السكوت عن كلام الناس لسؤاله الآية بعد مشافهة الملائكة إياه ؛ قاله أكثر المفسرين . قالوا : وكذلك إن لم يكن من مرض خرس أو نحوه ففيه على كل حال عقاب ما . قال ابن زيد : إن زكريا عليه السلام لما حملت زوجته منه بيحيى أصبح لا يستطيع أن يكلم أحداً وهو مع ذلك يقرأ التوراة ويذكر الله تعالى فإذا أراد مقاولة أحد لم يطقه . "

والقول أن عدم مقدرة سيدنا زكريا ــ عليه السلام ــ على الكلام عقوبة قول غير مسلم به ولا يليق فى حق نبى من الأنبياء . وأكبر دليل على خطأ الرواية المروية عن ابن زيد هو قوله إن زكريا ــ عليه السلام ــ لما حملت زوجته مرض وخرس يعنى ذلك أن مدة الحمل كلها مرض وخرس والمولى عز وجل يخبرنا أن امتناعه عن الكلام كان ثلاثة أيام وأن زكريا نبى الله لم يقترف ذنبا ولكنه هو طمع الحبيب مع حبيبه وكرم الله مع عباده فالسكوت عن الكلام مع البشر للتفرغ لعبادة الله وشكره .

ويؤيد رأى هذا ما نقله القرطبى عن النحاس : " قول قتادة إن زكريا عوقب بترك الكلام قول مرغوب عنه ؛ لأن الله عز وجل لم يخبرنا أنه أذنب ولا نهاه عن هذا ؛ والقول فيه أن المعنى : اجعل لى علامة تدل على كون الولد ، إذ كان ذلك مغيبا عنى " [2]

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبى ج ١١ ص ٨٤ .

(٢) المرجع السابق ج ٤ ص ٨١ .

قال الشيخ ابن عجيبة : " قال له تعالى ﴿ **آيتك ألا تكلم النـــاس** ﴾ أى : أن لا تقدر على أن تكلم الناس مع القدرة علـــى الذكـــر (ثــلاث ليال) بأيا مهن ، ... حال كونك (سويا) أى : سوى الخلــق ســليم الجوارح ما بك شائبة بكم ولا خرس وإنما منعت بطريق الإضطرار مع كمال العضاء .

وحكمة منعه ؛ لينحصر كلامه فى الشكر والذكر فى تلك الأيام " [1] .

قال الإمام ابن عاشور : " ومعنى أن لا تكلـــم النـــاس " أن لا تقدر على الكلام لأن ذلك هو المناسب لكونه آية من قبل الله تعـــالى وليس المراد نهيه عن كلام الناس ، إذ لا مناسبة فى ذلك للكون آية .

وجعلت مدة انتفاء تكليمه للناس هنا ثلاث ليال ، وجعلت فـــى سورة آل عمران ثلاثة أيام فعلم أن المراد هنا ليـــال بأيامـــها وأن المراد فى آل عمران أيام بلياليها .واكد ذلك هنا بوصفها ب ﴿ **سويا** ﴾ أى ثلاث ليال كاملة أى بأيامها .

وسوى : فعيل بمعنى مفعول ، يستوى الوصف به الواحد والواحـدة والمتعدد منهما .

وفسر أيضا ﴿ **سويا** ﴾ بأنه حال من ضمير المخاطب ، أى حال كونك سويا ، أى بدون عاهة الخرس والبكم . ولكنها آية لك اقتضتها الحكمة ، ..

وعلى هذا فذكر الوصف لمجرد تأكيد الطمأنينة . وإلا فإن تأجيلـــه بثلاث ليالٍ كاف فى الاطمئنان على انتفاء العاهة . " [2]

(١) انظر تفسير ابن عجيبة ج ١٦ ص ٣٢٢ .

(٢) التحرير والتنوير م ٨ ج ١٦ ص ٧٣ ، ص ٧٤ .

والمعنى أن علامتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال كاملة وأنت سوى صحيح معاف من أى علة .

قال ابن عباس : " اعتقل لسانه من غير مرض ثلاثة أيام وقال قتادة والسدى : اعتقل لسانه من غير بأس ولا خرس فإنه كان يقرأ الزبور ويدعوا إلى الله ويسبحه ، ولا يمكنه أن يكلم الناس وهذا أمر خارج عن العادة . "(١)

وقد ذكر الإمام ابن كثير فى كتابه البداية والنهاية ﴿ **قال رب اجعل لى آية** ﴾ أى علامة على وقت تعلق منى المرأة بهذا الولد المبشر به ﴿ **قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سويا** ﴾ يقول علاقة ذلك أن يعتريك سكت لا تنطق معه ثلاثة أيام إلا رمزاً وانت فى ذلك سوى الخلق صحيح المزاج معتدل البنية وامره بكثرة الذكر فى هذه الحال بالقلب واستحضار ذلك بفؤاده بالعشى والإبكار فلما بشر بهذه البشارة خرج مسروراً بها على قومه من محرابه ."(٢)

قال تعالى : ﴿ **فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنْ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا** ﴾ الآية (١١) .

قوله تعالى : ﴿ **فخرج على قومه من المحارب** ﴾ المراد بالخروج فى الآية هو اشرافه عليهم من المصلى وطلوعه منها عليهم .

يقول الإمام الشيخ بن عاشور : " ضمن (خرج) معنى (طلع) فعدى ب (على) كقوله تعالى : ﴿ **فخرج على قومه**

---

(١) انظر مجمع البيان للإمام الطبرسى ج ١٣ ص ١٧ .

(٢) انظر البداية والنهاية لابن كثير ج ١ ص ٤٥ .

فـى زينتـه ﴾ [1] (والمحـراب) : بيـت أو محتجـر يخصـص للعبادة الخاصـة ." [2] .

وللعلماء أقوال فى اشتقاق لفظ المحـراب فمنـهم مـن قـال أن المحراب هو المصلاة وسمى المحراب محرابا لأنه المتوجه إليـه فـى صلاته كالمحارب للشيطان على صلاته ، والأصل فيه مجلس الاشراف الذى يحارب دونه ذباعن أهله .

وقد ذكر الإمام القرطبى نفـس الاختـلاف فـى اشـتقاق لفـظ (المحراب) السابق مضاف إليه أنه مأخوذ من الحرَب (بفتح الـراء) كأن ملازمه يلقى منه جريا وتعبا ونصبا [3] "

فيكون الكلام معناه : أن نبى الله زكريا خرج علـى قومـه مـن المصلى أو مكان التعبد وكانوا ينتظرونه وراء هـذا المكـان ليدخلـوا للصلاة .

﴿ فأوحى إليهم ﴾ . (الوحى) الإشارة بالعين أو بغيرهـا . والإيماء لإفادة معنى شأنه أن يفاد بالكلام ." [4]

قال الإمام القرطبى : " أوحى إليهم أشار وقال مجاهد : كتب علـى الأرض . عكرمة : كتب فى كتاب . والوحى فى كلام العرب الكتابة " [5]

---

(١) سورة القصص آية ٧٩ .

(٢) انظر التحرير والتنوير م ٨ ج ١٦ ص ٧٤ .

(٣) انظر تفسير الإمام الطبرسى ج ١٣ ص ١٧ وتفسير الإمام ابن عاشور م ٨ ج ١٦ ص ٧٤ وتفسير الإمام القرطبى ج ١١ ص ٨٤ ن ص ٨٥ .

(٤) انظر التحرير والتنوير م ٨ ج ١٦ ص ٧٤ .

(٥) انظر تفسير القرطبى ج ١١ ص ٨٥ ومجمع البيان ج ١٦ ص ١٧ .

قولـــه تعـــالى ﴿ أن ســـبحوا بكـــرة وعشـــــيا ﴾ ﴿ أن ﴾ تفسيرية . وجملة ﴿ **سبحوا بكـــرة وعشـــيا** ﴾ تفســير﴿ **أوحـــى** ﴾ لأن ﴿ **أوحـــى** ﴾ فيـــه معنـــى القـــول دون حروفـــه وإنمـــا أمرهـــم بالتسبيح لئلا يحسبوا أن زكريا لما لم يكلمــــــهم قـــد نـــذر صمتـــا فيقتدوا به فيصمتوا . وكان الصمت مـــن صنـــوف العبـــادة فـــى الأمم السابقة كما فـــى قولـــه تعـــالى : ﴿ **ففولـــى إنـــى نـــذرت للرحمن صوما فلن اكلِـــم اليـــوم إنســـيا** ﴾ (١) فأومـــأ إليـــهم أن يشرعوا فيمـــا إعتـــاده مـــن التســـبيح ؛ أو أراد أن يســـبحوا الله شكر على ان وهب نبيـــهم ابنـــا يـــرث علمـــه . ولعلـــهم كـــانوا علموا ترقبه استجابة دعوته . أو أنه أمرهم بذلـــك أمـــرا مبـــهما يفسره عندما تزول حبسة لســـــانه " (٢)

قال الإمام ابن عجيبة : " أى صلوا صـــلاة الفجـــر وصـــلاة العصر ، ولعلها كـــانت صلاتـــهم . أو : نزهـــوا ربكـــم طرفـــى النهار ، ولعله أمر أن يسبح فيها شكراً ، ويـــأمر قومـــه بذلـــك . والله تعالى أعلـــم "(٣)

---

(١) سورة مريم آية ٢٦ .

(٢) التحرير والتنوير م ٨ ج ١٦ ص ٧٤ .

(٣) تفسير ابن عجيبة ج ١٦ ص ٣٢٢ .

التفسير الإجمالى للآيات

فى هذه الآيات ينادى المولى عز وجل عبده زكريا ويبشره بالولد ﴿ **إنا نبشرك بغلام** ﴾ ثم يختار له اسم الغلام تشريفا له وتعظيما وأن هذا الإسم لم يسمى به أحد من قبل قال تعالى : ﴿ **لم نجعل له من قبل سميا** ﴾ .

ثم نرى سؤال زكريا ربه تعجبا لأن مسببات الدنيا تأبى أن يكون له ولد وهو شيخ كبير وامرأته عاقراً لا تلد فالواقع يأبى أن يكون له ولد وسؤال زكريا نبى الله هذا ليس على سبيل الاستحالة ولكنه يريد أن يعلم هل سيكون الولد من زوجته أم من غيرها ، فهو موقن أن الله على كل شئ قدير .

فرد المولى عز وجل عن سؤال نبيه زكريا بأن ذلك سهل وميسور علىَّ ويذكره بخلقه وبداية خلق الإنسان من عدم وهو مثل لكل كائن حى .

قال : ﴿ **كذلك قال ربك** ﴾ ﴿ **هو علي هين** ﴾ ﴿ **وقد خلقتك ولم تك شيئا** ﴾ .

والمولى عز وجل هو الواهب العاطى فإذا أراد شيئا يقول له كن فيكون فإن أراد جعل الشيخ الفانى ينجب فليس ذلك ببعيد وإن أراد جعل العاقر تلد وكل شئ بأمر الله .

ومع ذلك فإن لهفة نبى الله زكريا على الولد تدفع به أن يطلب علامة على تحقق البشرى فأعطاه الله علامة ودليل وهى أن ينقطع

عن محادثة الناس لمدة ثلاث ليال لا ينطق لسانه إلا بذكر الله وهـو سوى معافى لم يصب فى لسانه بأى مرض .

قال تعالى : ﴿ **آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا** ﴾ فخرج علـى الناس مشيراً إليهم إما برأسه أو بيده أو الكتابة على الأرض أو علـى كتاب كما قال المفسرون وأمرهم أن يذكروا الله فى اول النهار وفـى نهايته أى كل صباح ومساءٍ .

قال تعالى : ﴿ **فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا** ﴾ .

قال تعالى : ﴿ يَايَحْيَى خُــذْ الْكِتَــابَ بِقُــوَّةٍ وَآتَيْنَــاهُ الْحُكْــمَ صَبِيًّا(١٢)وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا(١٣)وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَــمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا(١٤)وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا(١٥) ﴾ من الآية (١٢ : ١٥)

قوله تعالى : ﴿ **يايحيى خــذ الكتــاب بقــوة وآتينــاه الحكــم صبيا** ﴾ يخبر تعالى عن وجــود الولــد وفــق البشــارة الآلهيــة لأبيه زكريا ــ عليه السلام ــ وأن الله علمـــه الكتــاب والحكمــة وهو صغير فى حال صبــاه " [١]

وفى الكلام حذف ؛ والمعنى فولد له ولــــدا وقــال الله تعــالى للمولود : ﴿ **يا يحيى خذ الكتاب بقوة** ﴾ وهـــذا اختصــار يــدل عليه الكلام . أى فوهبنا لــه يحيــى وأعطينــاه الفــهم والعقــل ، وقلنا له ﴿ **يا يحيى خــذ الكتــاب بقــوة** ﴾ والنــداء هنــا ﴿ **يــا يحيى** ﴾ يدل على مكانة يحيى وعلى اســـتجابة الله لزكريــا فــى أن يجعل له من ذريته وليا ، يحسن الخلافـــة بعــده فــى العقيــدة وفى العشيرة فها هو ذا أول موقف ليحيـــى هــو موقــف انتدابــه ليحمل الأمانة الكــبرى [٢] .

---

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير ج ١ ص ٤٦ .

(٢) انظر تفسير الإمام القرطبى ج ١١ ص ٨٦ وزاد المسير فى علم التفسير ج ٥ ص ١٤٩ وسيد قطب ج ١٦ ص ٢٣٠٤ ومجمع البيان فى تفسير القــرآن ج ١٦ ص ١٨ ، وتفسير ابن عجيبة ج ١٦ ص ٣٢٣ .

واتفق المفسرون على أن المراد بالكتاب في قوله تعالى : ﴿ **خذ الكتاب بقوة** ﴾ التوراة كتاب بني اسرائيل من بعد موسى وعليه كان يقوم أنبياؤهم يعلمون به ويحكمون [1]

وقال الإمام ابن عجيبة : " بالإضافة إلى أن كتاب الله المراد به التوراة أن هناك رأى يقول : (قيل كتاب خص به فدلت الآية على رسالته) [2] .

ويؤكد لنا الإمام ابن عاشور أن يحيى لم يكن له كتاب منزل عليه وان الكتاب التوراة [3]

قوله عز من قائل : ﴿ **بقوة** ﴾ أي بجدَ واجتهاد ، وقيل بالعمل به والعلم به ، والحفظ له ، وهو الإلتزام لأوامره والكف عن نواهيه وقيل أيضا باستظهار بالتوفيق والتأييد [4] .

قال الإمام الطبرسي معناه : " وانت قادر على أخذه ، قوى على العمل به ، وقيل معناه بجد وصحة عزيمة على القيام بما فيه " [5] .

وقال الإمام ابن عاشور : " القوة المراد بها قوة معنوية وهي العزيمة والثبات .

---

(١) تفسير الإمام القرطبي ج ١١ ص ٨٦ ، مجمع البيان ج ١٣ ص ١٨ ، تفسير الإمام سيد قطب ج ١٦ ص ٢٣٠٤ ، وتفسير ابن كثير ج ٣ ص ١١٣ .

(٢) تفسير ابن عجيبة ج ١٦ ص ٣٢٣ .

(٣) تفسير التحرير والتنوير لابن عطية م ٨ ج ١٦ ص ٧٥ .

(٤) انظر تفسير القرطبي ج ١ ص ٤٣٧ , ج ١١ ص ٨٦ ، وتفسير الكشاف ج ٢ ص ٤٠٥ ، وتفسير ابن عجيبة ج ١٦ ص ٣٢٣ .

(٥) مجمع البيان للإمام الطبرسي ج ١٦ ص ١٩ .

والياء للملابسة . أى أخذاً ملابساً للثبات على الكتــاب أى علــى العمل به وحمل الأمة على اتباعه ، فقد أخذ الوهن يتطرق إلى الأمـــة اليهودية فى العمل بدينها " (١)

قوله تعالى : ﴿ **وآتيناه الحكم صبيا** ﴾ يقول ابن العربى المـــراد بالحكم هاهنا ثلاثة أقوال : الأول : الوحى والثانى : النبوة والثـــالث : المعرفة والعمل بها .وهذا كله محتمل يفتقر إلى تحقيق ؛ فأما من قـال : إنه الوحى فجائز أن يوحى الله إلى الصغير ، وكاشفه بملائكته وأمـوه ، وتكون هذه المكاشفة نبوة غير مهموزة رفعة ومهموزة إخباراً ، ويجوز ان يرسله إلى الحلق كامل العقل والعلم مؤيداً بالمعجزة ولكن لم يرد لك خير ، وإلا كان فيمن تقدم

وقول عيسى : ﴿ **إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا** ﴾ (٢) إخباراً عما وجب له حصوله ، لا عما حصل بعد .

وأما العلم والعمل فقد روى ابن وهب ، عن مـــالك فــى قولــه : ﴿ **وآتيناه الحكم صبيا** ﴾ . قال عيسى : أوصيكم بالحكمة ، والحكمــة فى قول مالك هى طاعة الله والاتباع لها والفقه فى الدين والعمل به ، وقال : ويبين ذلك أنك تجد الرجل عاقلا فى أمر الدنيا ذا بصر فيــها وتجــد آخــر ضعيفا فى أمر دنياه عالما بأمر دينه بصيراً به ، يؤتيه الله إياه ، ويحرمه هذا ، فالحكمة الفقه فى دين الله . وروى عنهِ ابن القاسم أنه سئل عن تفســير قوله تعالى : ﴿ **وآتيناه الحكم صبيا** ﴾ قال : المعرفة والعمل به " (٣) .

---

(١) تفسير ابن عاشور التحرير والتنوير م ٨ ج ١٦ ص ٧٥ .

(٢) سورة مريم آية ٣٠ .

(٣) انظر أحكام القرآن لابن العربى م ٢ ص ١٢٥١ ، ص ١٢٥٢ .

وقال الإمام ابن عاشور : " ﴿ وآتيناه ﴾ عطف على جملة القول المحذوفة ، أى قلنا : يايحيى خذ الكتاب وآتيناه الحكم .

والحكم : اسم للحكمة ....والمراد بها النبوة كما فى قوله تعالى : ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما ﴾ (١) فيكون هذا خصوصية ليحيى أن أوتى النبوة فى حال صباه . وقيل : الحكم هو الحكمة والفهم .

و ﴿ صبيا ﴾ حال من الضمير المنصوب فى ﴿ آتيناه ﴾ . وهذا يقتضى ان الله أعطاه استقامة الفكر وإدراك الحقائق فى حال الصبا على غير المعتاد . كما أعطى نبيه محمداً ﷺ الاستقامة وإصابة الرأى فى صباه . ويبعد أن يكون يحيى أعطى النبوة وهو صبى ، لأن النبوة رتبة عظيمة فإنما تعطى عند بلوغ الأشد واتفق العلماء على أن يحيى أعطى النبوة قبل بلوغ الأربعين سنة بكثير , ولعل الله لما أراد أن يكون شهيدا فى مقتبل عمره باكره بالنبوة . "(٢)

وجاء فى زاد المسير أن قوله تعالى : ﴿ وآتيناه الحكم ﴾ فيه أربعة أقوال : " أحدها : أنه الفهم ، قاله مجاهد . والثانى : اللب ، قاله الحسن ، وعكرمة . والثالث : العلم قاله ابن السائب . والرابع : حفظ التوراة وعلمها ، قاله أبو سليمان الدمشقى " (٣)

وقال الإمام القرطبى : ﴿ الحكم ﴾ الأحكام والمعرفة بها . وذكر الإمام ابن عجيبة قول ابن عباس أن ﴿ الحكم ﴾ هنا النبوة ، استنبأه وهو ابن ثلاث سنين ورد عليه الإمام ابن عجيبة : كون

---

(١) سورة يوسف آية ٢٢ .

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور م ٨ ج ١٦ ص ٧٦ .

(٣) زاد المسير فى علم التفسير ج ٥ ص ١٤٩ .

النبى صبيا جائز عقلا واقع عند الجمهور ، وأما بعثه رسولاً فجائز عقلا .

وظاهر كلام الفخر هنا أنه واقع ، وأن يحيى وعيسى بعثا صغيرين . وقال ابن مرزوق فى شرح البخارى ما نصه : " الأعم بعث الأنبياء بعد الأربعين " ؛ لأنه بلوغ الأشد ، وقيل : أرسل يحيى وعيسى عليهما السلام صبيين ...

وقول عيسى عليه السلام : ﴿ **إنى عبد الله** ﴾ إخبار عما وجب فى المستقبل ، لا عما حصل . واستشكل جواز بعث الصبى بأنه تكليف ، وشرطه : البلوغ ، إن كانت الشرائع فيه سواء .

والذى يظهر أن يحيى وعيسى ـ عليهما السلام ـ تنبئا صغيرين ، وأرسلا بعد البلوغ . والله تعالى أعلم .

وقيل : الحكم : الحكمة وفهم التوراة والفقه فى الدين " [1] .

وقوله تعالى : ﴿ **صبيا** ﴾ ففى سنه يوم أوتى الحكم قولان :

أحدهما : أنه سبع سنين ، رواه ابن عباس .

والثانى : ابن ثلاث سنين ، قاله قتادة ومقاتل " [2] .

وقال الإمام ابن عاشور : ﴿ **صبيا** ﴾ حال من الضمير المنصوب فى ﴿ **آتيناه** ﴾ وهذا يقتضى أن الله أعطاه استقامة الفكر وإدراك الحقائق فى حال الصبا على غير المعتاد ...

واتفق العلماء على أن يحيى أعطى النبوة قبل بلوغ الأربعين سنة بكثير . ولعل الله لما أراد أن يكون شهيدا فى مقتبل عمره باكره بالنبوة "[3]

---

(١) تفسير الإمام ابن عجيبة ج ١٦ ص ٣٢٣ .

(٢) انظر زاد المسير ج ٥ ص ١٥٠ .

(٣) انظر التحرير والتنوير م ٨ ج ١٦ ص ٧٦ ؛ وانظر مجمع البيان ج ١٦ ص ١٩ .

قوله تعالى : ﴿ **وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا** ﴾ .

قوله : ﴿ **حنانا** ﴾ أى رحمة ورقة في قلبه ، و ﴿ **حنانا** ﴾ معطوف على ﴿ **الحكم** ﴾ في قوله تعالى : ﴿ **وآتيناه الحكم صبيا** ﴾ أى آتيناه الحكم والحنان . وقوله ﴿ **من لدنا** ﴾ أى من عندنا تفضلا لا بجد واجتهاد منه ، أى جعلناه ذا حنان وشفقة على الناس وحسن نظر فيما وليه من الحكم فيهم .

قال الإمام ابن عجيبة : و ﴿ **آتيناه** ﴾ ﴿ **حنانا** ﴾ أى : تحننا عظيما ﴿ **من لدنا** ﴾ : من جناب قدسنا ، أو تحننا من الناس عليه . قال عوف : الحنان المجبب " [1] .

وجاء فى مجمع البيان : " والحنان العطف والرحمة أى وآتيناه رحمة من عندنا ... عن ابن عباس وقتادة والحسن ، وقيل معناه تحننا على العباد ورقة قلب عليهم ليدعوهم إلى طاعة الله تعالى عن الجبائى ، وقيل معناه محبة منا .. عن عكرمة وأصله الشفقة والرقة ومنه حنين الناقة وهو صوتها لبيك يايحيى ، وهو المزوى عن الباقر . وقيل معناه تعطفا منا عن مجاهد فهذه خمسة أقوال " [2]

وقال الإمام ابن كثير فى البداية والنهاية : " فروى ابن جرير عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال لا أدرى ما الحنان . وعن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك ﴿ **وحنانا من لدنا** ﴾ أى رحمة من عندنا رحمنا بها زكريا فوهبنا له هذا الولد . وعن عكرمة ﴿ **وحنانا** ﴾ أى محبة

---

(١) تفسير ابن عجيبة ج ١٦ ص ٣٢٣ .

(٢) مجمع البيان فى تفسير القرآن للإمام الطبرسى ج ١٦ ص ١٩ .

عليه ، ويحتمل أن يكون ذلك صفة لتحنين يحيى على الناس ولا سيما على أبويه وهو محبتهما والشفقة عليهما وبره بهما " (١)

وقال أيضا فى تفسيره (٢) : " فالحنان هو المحبة فى شفقة وميل كما تقول العرب حنت الناقة على ولدها وحنت المرأة على زوجها ومنه سميت المرأة حنة من الحنية وحن الرجل إلى وطنه ومنه التعطف والرحمة كما قال الشاعر : (٣)

تعطف علىَّ هداك المليك　　　فإن لكل مقام مقال

قال الشيخ ابن عاشور : " إن الحنان : هو الشفقة وأنه صفة من صفات الله تعالى . ومن كلام العرب : حنانيك ، أى حنانا منك بعد حنان وجعل حنان يحيى من لدن الله إشارة إلى أنه متجاوز المعتاد بين الناس " (٤)

ذكر الإمام القرطبى قول : النحاس : وفى معنى الحنان عن ابن عباس قولان : أحدهما ــ قال : تعطف الله عز وجل عليه بالرحمة .

القول الآخر : ما أعطيه من رحمة الناس حتى يخلصهم من الكفر والشرك وأصله من حنين الناقة على ولدها . ويقال : حنانك وحنانيك

---

(١) البداية والنهاية ج ١ ص ٤٦ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١١٣ .

(٣) وذكر فى زاد المسير ج ٥ ص ١٥٠ أن أبو عبيدة أنشده وذكر بيت الشعر بلفظ الحنان فقال :　تحنَّنْ علىَّ هداك المليك　　فإن لكل مقام مقال

ذكره فى تفسير الإمام القرطبى أن هذا البيت هو قول الحطيئة ج ١١ ص ٨٨ .

(٤) تفسير ابن عاشور " التحرير والتنوير " ج ١٦ ص ٧٦ .

قيل : هما لغتان بمعنى واحد . وقيل : حنانيك تثنية الحنان ، وقال أبو عبيدة : والعرب تقول : حنانك يارب وحنانيك يارب بمعنى واحد ؛ تريد رحمتك ...

والحنان مخفف : العطف والرحمة . والحنان : الرزق والبركة .

ابن عطية : والحنان فى كلام العرب أيضا ما عظم من الأمور فى ذات الله تعالى . " [1] .

قوله تعالى : ﴿ **وزكاة** ﴾ الزكاة : التطهير والبركة والتنمية فى وجوه الخير والبر ، أى جعلناه مباركا للناس يهديهم . وقيل : المعنى زكيناه بحسن الثناء كما تزكى الشهود إنسانا . وقيل : " زكاة " صدقة به على أبويه .

وقيل : ﴿ **الزكاة** ﴾ طهارة من الدنس وبعدا من اجتراح الذنوب والآثام .

وقيل : نقاؤها من الخبائث كما فى قوله تعالى : ﴿ **فقل هل لك إلى أن تزكى** ﴾ [2] أو أريد بها البركة [3] .

وقال صاحب زاد المسير : وفى قوله " وزكاة " أربعة أقوال :

أحدهما : أنها العمل الصالح ، قاله الضحاك ، وقتادة .

---

(١) تفسير الإمام القرطبى ج ١١ ص ٨٧ ، ص ٨٨ .

(٢) سورة النازعات آية ١٨ .

(٣) انظر القرطبى ج ١١ ص ٨٨ والزمخشرى ج ٢ ص ٥٠٤ والمراغى ج ١٦ ص ٣٩ والتحرير والتنوير ج ١٦ ص ٧٦ .

والثاني : أن معنى الزكاة : الصدقة ، فالتقدير : إن الله تعالى جعله صدقة تصدق بها على أبويه ، قاله ابن السائب .

والثالث : أن الزكاة : التطهير ، قاله الزجاج .

والرابع : أن الزكاة : الزيادة ، فالمعنى : وآتيناه زيادة فى الخـــير على ما وصف وذكر ، قاله ابن الأنبارى " (١)

سؤال : : " يقال لما أضاف الله سبحانه كونه زكاة إلى نفسه ؟ . وهـو إنما كان مطيعاً زكيا بفعله ؟

وجوابه : " أنه صار بذلك بألطاف من الله لا سيما فى تلك الحالـــة من الصغر . ولأنه إنما اهتدى بهداية الله إياه .

وقوله تعالى : ﴿ **وكان تقيا** ﴾ أى مخلصا مطيعا متقيا لما نهى الله عنه ، قاولوا وكان من تقواه أنه لم يعمل خطيئة ولم يهم بها " (٢) .

وقال الشيخ ابن عاشور : " تقى : فعيل بمعنى مُفعـــل ، مـــن اتقى إذا اتصف بالتقوى وهى تجنب ما يخالف الدين .

وجئ فى وصفه بالتقوى بفعل ﴿ **كان تقيا** ﴾ للدلالة على تمكنه من الوصف " (٣)

والمعنى : أن يحيى ــ عليه السلام ــ كان يتمتع بعدة صفـــات زودها الله بها فقد أعطاه الله الحكم وهو صبى صغير فقد زود بـــها

---

(١) انظر زاد المسير فى علم التفسير لأبى الفرج محمد بـــن الجـوزى ج ٥ ص ١٥٠ ، ص ١٥١ .

(٢) انظر مجمع البيان فى تفسير القرآن للشيخ الطبرسى ج ١٣ ص ١٩،٢٠ .

(٣) انظر التحرير والتنوير ج ١٦ ص ٧٦ .

وهو صغير ثم أعطاه الحنان وهو رقة القلب هبة من الله والحنان صفة يحتاج إليها الإنسان .

ثم أعطاه الطهارة والعفة والتقوى والورع كل هذا منحة وهبة من عند الرحمن . وهنا نذكر عبارة الإمام سيد قطب فى هذه الآية فقال : " وبعد النداء يكشف السياق عما زود به يحيى لينهض بالتبعة الكبرى .

﴿ وآتيناه الحكم صبيا ﴾ ، ﴿ وحنانا من لدنا وزكاة ﴾ ﴿ وكان تقيا ﴾

فهذه هى المؤهلات التى زوده الله بها وأعده وأعانه على احتمال ما كلفه إياه عندما ناداه .

﴿ آتاه الحكم صبيا ﴾ فكان فذاً فى زاده ، كما كان فذا فى اسمه وفى ميلاده . فالحكمة تأتى متأخرة . ولكن يحيى قد زود بها صبيا . وآتاه الحنان هبة لدنية لا يتكلفه ولا يتعلمه ، وإنما هو مطبوع عليه ومطبوع به . والحنان صفة ضرورية للنبى المكلف رعاية القلوب والنفوس ، وتألفها واجتذابها إلى الخير فى رفق .

وآتاه الطهارة والعفة ونظافة القلب والطبع ، يواجه بها أدران القلوب ودنس النفوس ، فيطهرها ويزكيها **﴿ وكان تقيا ﴾** موصولاً بالله ، متحرجاً معه ، مراقبا له ، يخشاه ويستشعر رقابته عليه فى سره ونجواه .

ذلك هو الزاد الذى آتاه الله يحيى فى صباه ، ليخلف أباه كما توجه إلى ربه وناداه نداء خفيا . فاستجاب له ربه ووهب له غلاماً زكيا .. " (١)

---

(١) انظر تفسير الإمام سيد قطب " فى ظلال القرآن " ج ١٦ ص ٢٣٠٤ .

قوله تعالى : ﴿ وبرا بوالديه ولم يكن جباراً عصيا ﴾ .

قال الإمام ابن عجيبة : ﴿ **وبراً بوالديه** ﴾ : لطيفا بهما محسنا إليهما ، ﴿ **ولم يكن جباراً عصيا** ﴾ ؛ متكبراً عاقا ، فالجبار : هو المتكبر لأنه يجبر الناس على أخلاقه , وقيل : من لا قبل النصيحة ، أو عاصيا الله تعالى . " [١] .

وقال الإمام القرطبى : أن البر بمعنى البار وهو الكثير البر و ﴿ **جباراً** ﴾ متكبراً وهذا وصف ليحيى ــ عليه السلام ــ بلين الجانب وخفض الجناح [٢]

وقال الإمام الطبرسى : معنى الآية " أن يحيى كان باراً بوالديه محسنا إليهما مطيعاً لهما لطيفا بهما طالبا مرضاتهما ولم يكن متكبراً متطاولاً على الخلق ، وقيل الجبار الذى يقتل ويضرب على الغضب ... عن ابن عباس ﴿ **عصيا** ﴾ أى عاصيا لربه فعيل بمعنى فاعل . " [٣] .

وقال الشيخ المراغى : رحمة الله عليه أن بر الوالدين من الصفات التى وصف الله بها يحيى ــ عليه السلام ــ ومعنى الآية " أنه كثير البر بهما والإحسان إليهما والحدب عليهما بعيداً عن عقوقهما قولا وفعلا ، وقد جعل الله طاعة الوالدين فى المرتبة التى تلى مرتبة طاعته فقال : " ﴿ **وقضى ربك الا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا** ﴾ [٤] .

---

(١) تفسير الإمام ابن عجيبة م ٣ ج ١٦ ص ٣٢٣ ، ص ٣٢٤ .
(٢) انظر تفسير الإمام القرطبى الجامع لأحكام القرآن ج ١١ ص ٨٨ .
(٣) انظر مجمع البيان فى تفسير القرآن ج ١١ ص ٢٠ .
(٤) سورة الإسراء آية ٢٣ .

وقوله تعالى : ﴿ **ولم يكن جباراً** ﴾ أى لم يكن متكبراً على الناس بل كان لين الجانب متواضعاً لهم ، وقد أمر الله نبيه محمداً ﷺ بمثل هذا فى قوله : ﴿ **واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين** ﴾ (١) ووصفه بقوله : ﴿ **ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك** ﴾ (٢) ومن ثم لما تجبر إبليس وتمرد صار مبعداً من رحمة ربه . و ﴿ **عصيا** ﴾ أى مخالفا لما أمره ربه ." (٣)

ثم قال سبحانه وتعالى بعد ذكر الأوصاف الجميلة التى وصف بها يحيى ــ عليه السلام ــ جزاء على ذلك فقال تعالى : ﴿ **وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا** ﴾ ومعنى قوله تعالى : ﴿ **وسلام عليه** ﴾ أى تحية من الله عليه .

ذكر الإمام القرطبى عن الإمام الطبرى (٤) وغيره : ومعناه أمان .

وابن عطية والأظهر عندى أنها التحية المتعارفة فهى أشرف وأنبه من الأمان ؛ لأن الأمان متحصل له بنفى العصيان عنه وهى أقل درجاته ، وإنما الشرف فى أن سلم الله تعالى عليه ، وحياه فى المواطن التى يكون الإنسان فيها فى غاية الضعف والحاجة وقلة الحيلة والفقر إلى الله تعالى وعظيم الحول .

وقد وافقهم الإمام القرطبى : " وقال : إن هذا قول حسن " (٥)

---

(١) سورة الشعرء آية ٢١٥ .

(٢) سورة آل عمران آية ١٥٩ .

(٣) انظر تفسير الشيخ المراغى ج ١٦ ص ٣٩ .

(٤) جامع البيان فى تفسير القرآن للإمام الطبرى ج ١٦ ص ٤٤ ، ص ٤٥ .

(٥) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج ١١ ص ٨٨ ، ٨٩ .

وقال الشيخ الإمام أبى الفرج محمد الجوزى في تفسير قوله تعالى : ﴿ **وسلام عليه** ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه السلام المعروف من الله تعالى ، قال عطاء : سلام عليه منى فى هذه الأيام ، وهذا اختيار أبى سليمان .

والثانى : أنه بمعنى : السلامة ، قاله ابن السائب " (١)

وقد ذكر الإمام ابن عاشور كلاماً جميلاً فى معنى السلام فقال : " والسلام ــ اسم للكلام الذى يفاتح به الزائر والراحل فيه ثناء أو دعاء . وسمى ذلك سلاما لأنه يشتمل على الدعاء بالسلامة ، ولأنه يؤذن بأن الذى أقدم عليه هو مسالم له لا يخشى منه بأسا .

والمراد هنا سلام من الله عليه ، وهو ثناء الله عليه ، كقوله ﴿ **سلام قولا من رب رحيم** ﴾ (٢) فإذا عرف السلام باللام فالمراد به مثل المراد بالمنكر أو مراد به العهد ، أى سلام إليه . . . . فالمعنى : أنه إكرام الله متمكن من أحواله الثلاثة المذكورة " (٣)

قوله تعالى : ﴿ **يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا** ﴾ معناه سلامة وأمنا له يوم ولد من عبث الشيطان به وإغوائه إياه . أى يوم يولد فيرى نفسه خارجاً مما كان فيه .

وسلامة وأمنا له يوم يموت فيرى قوما لم يكن عاينهم وأحكاماً ليس بها عهد .

---

(١) انظر تفسير زاد المسير فى علم التفسير ج ٥ ص ١٥١ .

(٢) سورة يس آية ٥٨ .

(٣) انظر التحرير والتنوير للإمام بن عاشور م ٨ ج ١٦ ص ٧٧ .

وسلامة وأمناً له يوم يبعث فيرى نفسه فى محشر لم يره . (١)

لذلك خص المولى عز وجل يحيى ـ عليه السلام ـ بالكرامة والسلامة فى المواطن الثلاثة . لما فيها من ضعف للإنسان وشدة احتياج إلى السلامة والنجاة ورضا الله ورحمته .

وقال الإمام الطبرسى : " وإنما قال حيا تأكيداً لقوله يبعث ، وقيل أنه يبعث مع الشهداء لأنهم وصفوا بأنهم أحياء .

واتفق مع المفسرين فى المراد بالمواطن الثلاثة إلا أنه أضاف : " أن السلام الأول يوم الولادة تفضل ، والثانى والثالث على وجه الثواب والجزاء " (٢) .

فإن قيل كيف خص التسليم عليه بالأيام وقد يجوز أن يولد ليلا ويموت ليلا ؟

فالجواب : أن المراد باليوم الحين والوقت .أى المراد باليوم مطلق الزمان الواقع فيه تلك الأحوال .

وقال الإمام ابن عاشور : " وجئ بالفعل المضارع فى " يوم يموت لاستحضار الحالة التى مات فيها . ولم تذكر قصة قتله فى القرآن إلا إجمالاً . " (٣)

وقال الإمام ابن كثير فى قصص الأنبياء : " هذه الأوقات الثلاثة أشد ما تكون على الإنسان ، فإنه ينتقل فى كل منها من عالم إلى عالم آخر فيفقد الأول بعد ما كان ألفه وعرفه ويصير إلى الآخر ولا يدرى ما بين يديه ،

---

(١) انظر تفسير التحرير والتنوير ج ١٦ ص ٧٨ ، تفسير القرطبى ج ١١ ص ٨٨ وتفسير ابن عجيبة ج ١٦ ص ٣٢٤ ، وتفسير زاد المسير ج ٥ ص ١٥١ .

(٢) انظر تفسير مجمع البيان ج ١٦ ص ٢٠ .

(٣) انظر التحرير والتنوير ج ١٦ ص ٧٨ .

ولهذا يستهل صارخا إذا خرج من بين الأحشاء وفارق لينها وضمها وينتقل إلى هذه الدار ليكابد همومها وغمها !

وكذلك إذا فارق هذه الدار وانتقل إلى عالم البرزخ بينها وبين دار القرار ، وصار بعد الدور والقصور إلى عرضة الأموات سكان القبور ، وانتظر هناك النفخة فى الصور ليوم البعث والنشور فمن مسرور ومحبور ومن محزون ومثبور ، وما بين جبير وكسير وفريق فى الجنة وفريق فى السعير ! ولقد أحسن بعض الشعراء حيث يقول :

ولدتك أمك باكيا مستصرخا والناس حولك يضحكون سرورا

فاحرص لنفسك أن تكون إذا بكوا فى يوم موتك ضاحكا مسرورا [1]

وقال سعيد بن أبى عروبة عن قتادة أن الحسن قال : إن يحيى وعيسى التقيا فقال له عيسى استغفر لى أنت خير منى فقال له الآخر استغفر لى أنت خير منى فقال له عيسى أنت خير منى سلمت على نفسى وسلم الله عليك فعرف والله فضلهما . " [2]

وهنا يسدل الستار على يحيى كما أسدل من قبل على زكريا وقد رسم الخط الرئيسى فى حياته ، وفى منهجه وفى اتجاهه وبرزت العبرة من القصة فى دعاء زكريا واستجابة ربه له ، وفى نداء يحيى وما زوده الله به .

ولم يعد فى تفصيلات القصة بعد ذلك ما يزيد شيئا فى عبرتها ومغزاها .. " [3] **والله أعلم**

---

(١) انظر قصص الأنبياء للإمام ابن كثير ج ٢ ص ٥٤٨ .

(٢) انظر تفسير الإمام القرطبى ج ١١ ص ٨٩ وتفسير الإمام ابن عجيبة ج ١٦ ص ٣٢٤ ، والبداية والنهاية لابن كثير ج ٢ ص ٤٦ .وتفسيره أيضا ج٣ ص ١١٤ وقصص الأنبياء له أيضا ج ٢ ص ٥٤٨ .

(٣) انظر تفسير الإمام الجليل سيد قطب فى ظلال القرآن ج ١٦ ص ٢٣٠٤ .

القصة الثانية

قصة مريم وابنها عيسى عليهما السلام

قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذْ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا(١٦)فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا(١٧)قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنتَ تَقِيًّا(١٨)قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا(١٩)قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا(٢٠)قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا(٢١) ﴾الآيات من ١٦ ــ ٢١ .

بعد أن ذكر المولى عز وجل قصة زكريا ــ عليه السلام ــ وأنه أوجد منه الولد وهو رجل كبير وزوجته عجوز عقيم علمنا المولى عز وجل أن الأسباب الدنيوية خاصة بالبشر وأن مسبب الأسباب إذا أراد شيئا يقول له كن فيكون .

ثم بين عز وجل صفات هذا الولد الذى سماه " يحيى " ولداً زكيا مباركاً طاهراً بلراً ثم أردف ذلك ببيان قصة مريم ابنة عمران وابنها عيسى . فالرابطة بين القصتين واضحة والمناسبة ظاهرة انتقال تدريجى من الأقرب منالاً وهو الولد " يحيى " من زوجين كبيرين وأم عقيم ، من زوجين تستحيل الأسباب الدنيوية أن يأتِ الولد إلى أصعب منه وهو خلق الولد من أم بلا أب قصة غريبة ومعجزة عظيمة .

يقول الإمام سيد قطب : " والأن فإلى قصة أعجب من قصة ميلاد يحيى . إنها قصة ميلاد عيسى . وقد تدرج السياق من القصة الأولى ووجه العجب فيها هو ولادة العاقر من بعلها الشيخ ، إلى الثانية ووجه العجب فيها هو ولادة العذراء من غير بعل ! وهى أعجب وأغرب .

وإذا نحن تجاوزنا حادث خلق الإنسان أصلاً وإنشائه على هذه الصورة ، فإن حادث ولادة عيسى ابن مريم يكون أعجب ما شهدته البشرية فى تاريخها كله ، ويكون حادثا فذا لا نظير له من قبله ولا من بعده .

والبشرية لم تشهد خلق نفسها وهو الحادث العجيب الضخم فى تاريخها لم تشهد خلق الإنسان الأول من غير أب وأم ، وقد مضت القرون بعد ذلك الحادث ؛ فشاءت الحكمة الإلهية أن تبرز العجيبة الثانية فى مولد عيسى من غير أب ، على غير السنة التى جرت منذ مولد الإنسان على هذه الأرض ، ليشهدها البشر ؛ ثم تظل فى سجل الحياة الإنسانية بارزة فذة تتلفت إليها الأجيال ، إن عز عليها أن تتلفت إلى العجيبة الأولى التى لم يشهدها إنسان ! لقد جرت بسنة الله التي وضعها لامداد الحياة بالتناسل من ذكر وأنثي في جميع الفضائل والأنواع بلا استثناء ، حتى المخلوقات التي لا يوجد فيها ذكر وأنثي متميز أن تتجمع في الفرد الواحد منها خلايا التذكير والتأنيث... جرت هذه السنة أحقاباً طويلة حتى استقر في تصور البشر أن هذه الطريقة الوحيدة ، ونسوا الحادث الأول . حادث وجود الإنسان لأنه خارج عن القياس فأراد الله

أن يضرب لهم مَثل عيسى ابن مريم ــ عليه السلام ــ ليذكرهم بحرية القدرة وطلاقة الإرادة ، وأنها لا تحتبس داخل النواميس التي تختارها .

ولم يتكرر حادث عيسى لأن الأصل هو أن تجري السنة التي وضعها الله ، وأن ينفذ الناموس الذي اختاره .

وهذه الحادثة الواحدة تكفي لتبقي أمام أنظار البشرية معلماً بارزاً علي حرية المشيئة ، وعدم احتباسها داخل حدود النواميس ﴿ **ولنجعله آية للناس** ﴾ [١].

ونظراً لغرابة الحادث وضخامته فقد عز علي فرق من الناس أن تتصوره علي طبيعته وأن تدرك الحكمة في إبرازه ، فجعلت تضفي علي عيسى ابن مريم ــ عليه السلام ــ صفات ألوهية ، وتصوغ حول مولده الخرافات والأساطير ، وتعكس الحكمة من خلقه علي هذا النحو العجيب ــ وهي إثبات القدرة الإلهية التي لا تتقيد ــ تعكسها فتشوه عقيدة التوحيد .

والقرآن في هذه السورة يقص كيف وقعت هذه العجيبة ، ويبرز دلالتها الحقيقية ، وينفي تلك الخرافات والأساطير .

والسياق يخرج القصة في مشاهد مثيرة ، حافلة بالعواطف والإنفعالات ، التي تهز من يقرؤها هزاً كأنما هو يشهدها [٢].

يقول الإمام ابن عاشور : ﴿ واذكر في الكتاب مريم ﴾ عطف علي جملة **﴿ ذكر رحمة ربك ﴾** عطف القصة علي القصة فلا

---

(١) سورة مريم آية ٢١ .

(٢)انظر تفسير الإمام سيد قطب جـ ١٦ صـ٢٣٠٥ .

يراعي حسن اتحاد الجملتين في الخبرية والإنشائية ، علي أن ذلك الاتحاد ليس بملتزم . علي أنك علمت أن الأحسن أن يكون قوله : ﴿ **ذكر رحمة ربك عبده زكريا** ﴾ مصدراً وقع بدلاً من فعله (١).

قوله تعالي : ﴿ **واذكر في الكتاب مريم إذا إنتبذت من أهلها مكاناً شرقياً** ﴾ .

المراد بالذكر في قوله ﴿ **واذكر** ﴾ التلاوة ، آي اتل عليهم خبر مريمِ الذي تقصه عليك . والخطاب لرسول الله محمد ﷺ والكتاب : هو القرآنِ الكريم . والمعني : أتل عليهم قصة مريم ابنة عمران ليعرفوا قصتها وليعلموا كمال قدرة الله عز وجل وليقتدوا بها ولتكون معرفتك لهذه القصة معجزة لك .

وقال الإمام ابن عاشور : "وقد اختصت هذه السورة بزيادة كلمة ﴿ **في الكتاب** ﴾ بعد كلمة ﴿ **واذكر** ﴾ " .وفائدة ذلك التنبيه إلي أن ذكر من أمر بذكرهم كائن بآيات القرآن وليس مجرد ذكر فضله في كلام آخر من قول النبي ﷺ ...

ولم يأت مثل هذه الجملة في سورة أخري لأنه قد حصل علم المراد في هذه السورة فعلم أنه المراد في بقية الآيات التي جاء فيها لفظ ﴿ **اذكر** ﴾ .

ولعل سورة مريم هي أول سورة أتي فيها لفظ ﴿ **واذكر** ﴾ . في قصص الأنبياء فإنها السورة الرابعة والأربعون في عدد نزول السور ...

و ﴿ **إذ** ﴾ ظرف متعلق ب ﴿ **اذكر** ﴾ باعتبار تضمنه معني القصة والخبر وليس متعلقاً به في ظاهر معناه لعدم صحة المعني .ويجوز أن

---

(١)انظر التحرير والتنوير م ٨ حـ ١٦ صـ ٧٨ ، صـ ٧٩ .

يكون ﴿ إذ ﴾ مجرد اسم زمان غير ظرف ويجعل بدلاً من مريم ، آي اذكر زمن إنتباذها مكاناً شرقياً [١]

يقول الإمام ابن عجيبة . ﴿ **إذ انتبذت** ﴾ : بدل اشتمال من مريـــم ، علي أن المراد بها نبؤها ، فإن الظرف مشتمل علي ما فيها وقيل : بدل الكل ،علي أن المراد بالظرف ما وقع فيه .وقيل ﴿ إذ ﴾ ظرف لنبـــأُ المقدر ، آي : اذكر نبأُ مريـــم حيـــن انتبـــذت ؛ لأن الذكـــر لايتعلـــق بالأعيان ، لكن لا على أن يكون المأمور به ذكر نبأها عنـــد انتباذهـــا فقط ، بل كل ما عطف عليه وحكى بعده بطريق الاستثناء داخـــل فـــى حيز الظرف متمم للنبأ ". [٢]

والانتباذ : الانفراد والاعتزال ، لأن النبذ : الابعاد والطرح فالإنتباذ فى الأصل افتعال مطاوع نبذه ، ثم أطلق على الفعل الحـــاصل بـــدون سبق فاعل له .

قال الإمام القرطبى : " ﴿ **إذا انتبذت** ﴾ أى تنحت وتبـــاعدت والنبـــذ : الطرح والرمى ؛ قال الله تعالى : ﴿ **فنبذوه وراء ظهورهم** ﴾ [٣]

واختلف الناس لما انتبذت ؛ فقال السدى : انتبذت لتطهر مـــن حيض أو نفاس . وقال غيره : لتعبد الله ؛ وهذا حســـن .وذلـــك أن مريم ـــ عليها السلام ـــ كانت وقفا على ســـدانة المعبـــد وخدمتـــه

---

(١)انظر تفسير ابن عاشور م ٨ حـــ٦ صـــ٧٩ .

(٢) تفسير ابن عجيبة ج ١٦ ص ٣٢٤ .

(٣) سورة آل عمران جزء من آية ١٨٧ .

والعبادة فيه ، فتنحت من الناس لذلك ، ودخلت فى المسجد إلى جانب المحراب فى شرقيه لتخلوا للعبادة ، فدخل عليها جبريل عليه السلام " (١)

" وفى التعبير بقوله تعالى : ﴿ **إذ انتبذت من أهلها** ﴾ إشارة إلى شدة عزلتها عن أهلها إذ النبذ معناه الطرح والرمى ، فكانها ألقت بنفسها فى هذا المكان لتختلى للعبادة والطاعة ، والتقرب إلى الله ــ تعالى ــ بصالح الأعمال ." (٢)

ويقول الإمام سيد قطب : " ها هى ذى تخلو إلى نفسها لشأن من شئونها التى تقتضى التوارى من أهلها والاحتجاب عن أنظارهم ...

ولا يحدد السياق فى هذا الشأن ، وربما لأنه شأن خاص جداً من خصوصيات الفتاة ... " (٣)

ومهما كان سبب الخلوة والإعتزال عن الناس فلا يغير من الأمر شيئا فإن عزلتها للخلو بنفسها يعلم منه أنها فى حالة لا تحب أن يراها أحد .

قوله تعالى : ﴿ **من أهلها** ﴾ أى ممن كان معها .

---

(١) انظر تفسير الإمام القرطبى ج ١١ ص ٩٠ .

(٢) التفسير الوسيط للقرآن الكريم للإمام الأكبر د . محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر م ٩ ص ٢٣ .

(٣) انظر فى ظلال القرآن للإمام سيد قطب ج ١٦ ص ٢٣٠٥ .

قوله : ﴿ **مكانا شرقيا** ﴾ أى مما يلى المشرق ، وهو عند العــرب خير من الغربى . وإنما خص المكان بالشرق لأنهم كـــانوا يعظمــون جهة المشرق ومن حيث تطلع الأنوار ، وكانت الجهات المشـــرقية من كل شئ أفضل من سواها .

وذكر المكان إبهاما له لعدم تعلق الغرض بتعيين نوعه إذ لا يفيــد كمالا فى المقصود من القصة .

وذكر أن التصدى لوصف المكان أنه شرقى : للتنبيه على أصل اتخاذ النصارى الشرق قبلة لصلواتهم إذ كان حمل مريم بعيسى فى مكان من جهة مشرق الشمس .

كما قال ابن عباس : إنى لأعلم خلــق الله لأى شـــئ اتخــذت النصارى الشرق قبلة لقوله تعالى : ﴿ **مكانا شرقيا** ﴾ أى أن ذلــك الاستقبال ليس بأمر من الله تعالى .

فذكر كون المكان شرقيا نكتة بديعة من تاريخ الشرائع مع مــا فيه من مؤاخاة الفواصل . " (١)

وانتصب ﴿ **مكانا** ﴾ على أنه مفعول ﴿ **انتبــذت** ﴾ لتضمنــه معنى حصلت ويجوز نصبه على الظرفية لما فيه من الإبهام " (٢)

---

(١) انظر التحرير والتنويــر م ٨ ج ١٦ ص٧٩،ص٨٠ والقرطبــى ج ١١ص٩٠ والمراغى ج ١٦ ص ٦٥ .

(٢) تفسير ابن عجيبة ج ١٦ ص ٣٢٤ والتحرير والتنوير ج ١٦ ص ٨٠ .

قال تعالى : ﴿ **فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا** ﴾ الآية ١٧ .

واتخاذ الحجاب : جعل شئ يحجب عن الناس أى استترت منهم وتوارت .

قال الإمام الطبرسى : " أى فضربت من دون أهلها لئلا يروها ستراً وحاجزاً بينها وبينهم " (١)

وجاء فى زاد المسير فى علم التفسير أن اتخاذ الحجاب فيه ثلاثة أقوال :

أحدهما : أنها ضربت ستراً ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثانى : أن الشمس اظلتها ، فلم يرها أحد منهم ، وذلك مما سترها الله به ، وهذا المعنى عن ابن عباس أيضا .

والثالث : أنها اتخذت حجابا من الجدران ، قاله السدى عن أشياخه " (٢)

وبأى شئ كان الحجاب لا يغير من الأمر شيئا فالمراد أن مريم قد توارت عن أعين الناس واستترت عنهم .

وقال الإمام الدكتور / محمد سيد طنطاوى فى قوله تعالى : ﴿ **فاتخذت من دونهم حجابا** ﴾ تأكيد لانتباذها من أهلها ، واعتزالها إياهم . أى : اذكر وقت أن اعتزلت أهلها فى مكان يلى

---

(١) انظر مجمع البيان فى تفسير القرآن ج ١٦ ص ٢٢ .

(٢) انظر زاد المسير فى علم التفسير للإمام أبى الفرج جمال الدين الجوزى ج ٥ ص ١٥٢ .

شرق بيت المقدس ، فاتخذت بينها وبينهم حجاباً وساتراً للتفرغ لعبادة ربها " [١]

قوله تعالى : ﴿ **فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا** ﴾

وحينما كانت فى الخلوة متوارية عن أعين الناس أرسل المولى عز وجل لها جبريل فى صورة رجل سوى معتدل الهيئة .

فالمراد ب ﴿ **روحنا** ﴾ جبريل عليه السلام و ﴿ **فتمثل** ﴾ أى ظهر لها فى صورة بشر . ومعنى ﴿ **سويا** ﴾ تام الخلقة لا يعيبه شئ .

قال ابن عباس : " جاءها فى صورة شاب أبيض الوجه ، جعد قطط حين طر شاربه . " [٢]

" وسماه الله روحاً لأنه روحانى ، وأضافه إلى نفسه تشريفاً له وتكريماً "[٣] .

وقال الإمام الدكتور / سيد طنطاوى : " وسمى جبريل ــ عليه السلام ــ روحا لمشابهة الروح الحقيقية فى أن كلا منهما مادة الحياة للبشر . فجبريل من حيث ما يحمل من الرسالة الإلهية تحيا به القلوب ، والروح تحيا به الأجسام ".[٤]

وجاء فى زاد المسير : قول الجمهور أن المراد بالروح هو جبريل .

---

(١) انظر التفسير الوسط للقرآن الكريم د . محمد سيد طنطاوى م ٩ ص ٢٣ .

(٢) انظر زاد المسير ج ٥ ص ١٥٢ .

(٣) مجمع البيان ج ١٦ ص ٢٢ .

(٤) التفسير الوسيط م ٣ ص ٢٤ .

وقال ابن الأنبارى : صاحب روحنا ، وهو جبريل والروح بمعنى : الرَّوْح والفرح ، ثم تضم الراء لتحقيق مذهب الاسم ، وإبطال طريق المصدر ، ويجوز ان يراد بالروح هاهنا : الوحى وجبريل صاحب الوحى .

وفى وقت مجيئه إليها ثلاثة أقوال :

أحدها : وهى تغتسل .

والثانى : بعد فراغها ، ولبسها الثياب .

والثالث : بعد دخولها بيتها . وقد قيل : المراد بالروح هنا : الروح الذى خُلق منه عيسى ، حكاه الزجاج ، والماوردى .

قال ابن الأنبارى : وفيه بعد ، لقوله ﴿ **فتمثل لها بشراً سوياً** ﴾ (١)

لما كان ظهور الملك جبريل ــ عليه السلام ــ فى صورته الحقيقية أمر لا يتحمله الإنسان ، فرحمة من الخالق تبارك وتعالى جعل رسله من الملائكة إلى بنى البشر يظهرون فى غير صورهم الحقيقية ومن هنا كان ظهور جبريل ــ عليه السلام ــ لمريم فى صورة غير صورته الحقيقية .

وهكذا كان يظهر للرسول ﷺ وهو ما أحاطنا به المولى تبارك وتعالى قال : ﴿ **ولو جعلنا ملكاً لجعلناه رجلا وللبثنا عليهم ما يلبثون** ﴾ (٢)

قال الشيخ المراغى : " فأرسلنا إليها جبريل ــ عليه السلام ــ فجاءها بصورة رجل معتدل الخلق ليُعلمها بما يريد بها من الكرامة بولادة عيسى ــ عليه السلام ــ من غير أب ، إذ ربما يشتبه عليها

---

(١) انظر زاد المسير ج ٥ ص ١٥٣ .

(٢) سورة الأنعام آية ٩ .

الأمر فتقتل نفسها أسى وغما ، وإنما تمثل لها بهذا المثال ، لتـــأنس بكلامه ، وتتلقى منه ما يُلقيِ إليها من كلماته ، ولأنه لو بدا لها على الصورة الملكية لنفرت منه ولم تستطع محاورته ." (١)

قال تعالى : ﴿ **قالت إنـــى أعــوذ بــالرحمن منـــك إن كنـــت تقيــا** ﴾ (١٨)

ــ ومعنى : ﴿ **أعوذ** ﴾ أى أعتصم وألتجــــئ .و ﴿ **تقيــا** ﴾ أى مطيعا .

والمعنى : فلما رأته فزعت منه واعتصمت بالله من شره إن كــــان رجلا ذو تقوى .

وجاء فى زاد المسير : " المعنى : إن كنت تتقــى الله ، فســتنتهى بتعوذى منك ، هذا هو القول عند المحققين ، وحكى عن ابن عباس أنــه كان فى زمنها رجل اسمه تقى ، وكان فاجراً ، فظننته إياه ، ذكره ابــن الأنبارى والماوردى .

وفى قراءة على ــ رضى الله عنه ــ ، وابن مسعود ن وأبى رجـــاء : " إلا أن تكون تقيا " (٢)

وذكر لنا الإمام ابن عاشور أن ظهور جبريل ــ عليه السلام ــ فى صورة بشر مكتمل الخلقة لبيان كمال عصمتها إذ تعوذت منــــه لأنـــها ظنت انه بشر اختبأ لها ليراودها عن نفسها وهى فى مكان لا يراها

---

(١) تفسير الإمام المراغى ج ١٦ ص ٤١ .

(٢) انظر زاد المسير ج ٥ ص ١٥٣،١٥٢ .

فيه أحد من البشر ، فبادرته بالتعوذ بالرحمن من قبل أن يبادرهـا بالإنكار على ما توهمته من قصده .

وجملة : ﴿ **إنى أعوذ بالرحمن منك** ﴾ خبرية ، ولذلك أكدت بحـرف التأكيد .

والمعنى : أنها أخبرته أنه جعلت الله معاذاً لها منه ، أى جعلت جـانب الله ملجأ لها مما هم به ، وهذه موعظة لها . (١)

وذكرها صفة ﴿ **الرحمن** ﴾ للمبالغة فى العياذ به تعـالى واسـتجلاب آثار الرحمة الخاصة ، التى هى العصمة مما دهمها قاله أبو السعود . (٢)

يقال : كيف شرطت فى التعوذ منه أن يكون تقيا ؟ والتقى لا يحتـاج أن يتعوذ منه ، وإنما يتعوذ من غير التقى ! .

والجواب : أن التقى إذا تعوذ بالرحمن منه ارتدع عما يسخط الله ففـى ذلك تخويف وترهيب له .

أى أن الاستعاذة لا تؤثر إلا فى التقى ، لأن الله تعالى يخشى فى حـال دون حال ، فهو كقوله : ﴿ **وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنيـن** ﴾ (٣) أى إن الإيمان يوجب ذلك .

وروى عن على أنه قال : علمت أن التقى ينهاه التقى عـن المعصيـة وقيل أن معنى قوله ﴿ **إن كنت تقيا** ﴾ ما كنت تقيا حيث اسـتحللت النظـر إلىّ ، وخلوت بى . (٤)

---

(١) انظر تفسير التحرير والتنوير م ٨ ج ١٦ ص ٨٠ ، ص ٨١ .

(٢) انظر تفسير ابن عجيبة ج ١٦ ص ٣٢٥ .

(٣) سورة البقرة آية ٢٧٨ .

(٤) انظر تفسير مجمع البيان ج ١٦ ص ٢٣ .

وقال الإمام الأكبر : " وخصت الرحمن بـــالذكر ، لتثـــير مشـــاعر التقوى فى نفسه ، إذ من شأن الإنسان التقى أن ينتفض وجدانه عند ذكر الرحمن ، وأن يرجع عن كل سوء يخطر بباله .

وجواب هذا الشرط محذوف ، أى إن كنت تقيـــا ، فـــابتعد عنـــى واتركنى فى خلوتى لأتفرغ لعبادة الله ــ تعالى ــ .

وبهذا القول الذى حكاه عن مريم . تكون قد جمعت بين الاعتصـــام بربها وبين تخويف من تخاطبه وترهيبه من عذاب الله إن ســـولت لـــه نفسه إرادتها بسوء . كما أن قولها هذا ، يدل على أنها قد بلغت أســـمى درجات العفة والطهر والبعد عن الريبة ، فهى تقول هذا القول ، وهـــى تراه بشرا سويا وفى مكان بمعزل عن الناس . (١)

فلما علم جبريل خوفها .

﴿ قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا ﴾ الآية ١٩ .

والمعنى : " فقال الملك مجيبا لها ومزيلا لما حصل عندهـــا مـــن الخوف على نفسها : لست ممن تظنين ، ولا يقع منى ما تتوهمين مـــن الشر ، ولكنى رسول ربك بعثنى إليك ، لأهب لك غلاما طاهراً مـــبرأ من العيوب وقد أضاف الهبة إلى نفسه من قبل أنها جرت على يده بـــأن نفخ فى جيبها بأمر الله " . (٢)

قرأ ابن كثير ، ونافع وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائى : **﴿ لأهب لك ﴾** بالهمز . وقرأ أبـــو عمـــرو ، وورش عـــن نـــافع :

---

(١) انظر التفسير الوسيط م ٩ ص٢٤.

(٢) انظر تفسير الإمام المراغى ج ١٦ ص ٤٢ .

(ليهب لك) بغير همز . قال الزجاج : من قرأ (ليهب) فالمعنى : أرسلني ليهب لك وقال ابن الأنباري المعنى : أرسلني يقول لك : أرسلت رسولي إليك لأهب لك " [1]

والقصر في قوله : ﴿ **إنما أنا رسول ربك** ﴾ قصر إضافي ، أي لست بشرا ، ردا على قولها ﴿ **إن كنت تقيا** ﴾ المقتضى اعتقادها أنه بشر .....

ومعنى اسناد الهبة إلى نفسه مجاز عقلي لأنه سبب هذه الهبة [2] و ﴿ **غلاما** ﴾ أي ولداً ﴿ **زكيا** ﴾ طاهراً من الذنوب والأدناس وقيل ناميا في أفعال الخير وقيل يريد نبيا عن ابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ **قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا** ﴾ الآية ٢٠ .

وتعجبت العذراء مما سمعت وتساءلت كيف يكون لي ولد ولم يمسسني بشر بزواج حلال أو بزنى .

قال الإمام الزمخشري : " جعل المس عبارة عن النكاح الحلال ، لأنه كناية عنه . كقوله تعالى ﴿ **من قبل أن تمسوهن** ﴾ [3] والزنا ليس كذلك ، إنما يقال فيه : فجر بها وخبث بها وما أشبه ذلك ، وليس بقمن أن تراعى فيه الكنايات والآداب .

---

(١) انظر تفسير زاد المسير ج ١٥ ص ١٥٣ .

(٢) انظر التحرير والتنوير م ٨ ج ١٦ ص ٨١ .

(٣) سورة البقرة آية ٢٣٨ .

والبغى : الفاجرة التى تبغى الرجال .. [1] .

ويقول الإمام الأكبر : " وعلى هذا ــ أى الرأى الذى ذكره الإمام الزمخشرى ــ يكون ما حكاه القرآن عن مريم من قولها : ﴿ **ولم يمسسنى بشر** .. ﴾ المقصود به النكاح الحلال .

ويرى آخرون أن المقصود به ما يشمل الحلال والحرام ، أى ولم يمسسنى بشر كائنا من كان لا بنكاح ولا بزنى ، ويكون قوله : ﴿ **ولم أك بغيا** ﴾ من باب التخصيص بعد التعميم .

ويؤيد هذا الرأى قوله تعالى : ﴿ **قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر * قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون** ﴾ . [2]

ويؤيده أيضا لفظ ﴿ **بشر** ﴾ نكرة فى سياق النفى فيعم كل بشر سواء أكان زوجا أم غير زوج [3] .

وأكد الإمام القرطبى أن قولها : ﴿ **ولم أك بغيا** ﴾ أى زانية . وذكرت هذا تأكيداً ؛ لأن قولها لم يمسسنى بشر يشمل الحلال والحرام .

وقيل : ما استبعدت من قدرة الله تعالى شيئا ولكن أردت كيف يكون هذا الولد ؟ و من قبل الزوج فى المستقبل أم يخلقه الله ابتداء ؟ " [4]

---

(١) انظر الكشاف للإمام الزمخشرى ج ٣ ص ١٠ .

(٢) سورة آل عمران الآية ٤٧ .

(٣) انظر التفسير الوسيط م ٩ ص ٢٧ .

(٤) انظر تفسير الإمام القرطبى ج ١١ ص ٩١ وانظر حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٥٦ .

وقال الإمام ابن عاشور : " والبغى : اسم للمرأة الزانية ولذلك لم تتصل به هاء التأنيث ووزنه فعيل أو فعول بمعنى فاعل فيكون أصله بغوى . لأنه من البغى فلما اجتمع الواو والياء وسكن السابق منهما قلبت الواو ياء وأدغمت فى الياء الأصلية وعوض عن ضمه العين كسرة لمناسبة الياء فصار بغى . " [١]

ويقول الإمام الطبرسى : " وفى هذه الآيات دلالة على جواز إظهار المعجزات لغير الأنبياء ، لأن من المعلوم أن مريم ليست نبياً ، وأن رؤية الملك على صورة البشر وبشارة الملك إياها وولادتها من غير وطء إلى غيرها من الآيات التى أتاها الله بها من أكبر المعجزات ، ومن لم يحوز إظهار المعجزات على غير النبى اختلفت أقوالهم فى ذلك ، قال الجبائى وابنه أنها معجزات لزكريا وقال البلخى أنها معجزات لعيسى على سبيل الإرهاص والتأسيس لنبوته " [٢]

قال تعالى : ﴿ **قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضيا** ﴾ الآية ٢١ .

فلما تعجبت مريم العذراء من مجئ الولد من غير ذكر أجابها الملك بأن الله قد حكم بإيجاد الولد منك من غير زوج ومن غير أن توجد منك فاحشة فإنه على ما يشاء قدير .

وأن مجئ هذا الولد دلالة للناس على قدرة الله ورحمة من الله لمن اتبعه منهم وأن هذا أمر قضى به المولى عز وجل وحكم به .

---

(١) التحرير والتنوير م ٨ ج ١٦ ص ٨٢ ، ص ٨٣ .

(٢) مجمع البيان ج ١٦ ص ٢٣ .

يقول الإمام ابن عاشور : " وجواب الملك معناه : أن الأمـــر كمـــا قلت . نظير قوله فى قصة زكريا ﴿ **كذلك قال ربك هو على هيـــن** ﴾ وهـــو عـــدول عـــن إبطـــال مرادهـــا مـــن المراجعـــة إلى بيان هون هذا الخلق فى جانب القدرة على طريقة الإسلوب الحكيم .

وفى قوله : ﴿ **هو على هين** ﴾ توجيه بأن ما اشتكته من توقع ضد قولها وطعنهم في عرضها ليس بأمر عظيم فى جانب ما أراد الله مـــن هدى الناس لرسالة عيسى ــ عليه السلام ــ بأن الله تعالى لا يصرفـــه عن انفاذ مراده ما عسى أن يعرض من ضر فى ذلك لبعض عبيـــده ، لأن مراعاة المصالح العامة تقدم على مراعاة المصالح الخاصة .

فضمير هو ﴿ **على هين** ﴾ عائد إلى ما تضمنه حوارهما من لحاق الضر بها كما فسرنا به قولها ﴿ **ولم يمسسنى بشر ولم اك بغيا** ﴾ .

فبين جواب الملك إياها وبين جواب الله زكريا اختـــلاف فـــى المعنى والكلام فى الموضعين على لسان الملك من عند الله . ولكنه أسند فى قصة زكريا إلى الله لأن كلام الملك كان تبليغ وحى عـــن الله جوابا من الله عن مناجاة زكريا ، وأسند فى هذه القصـــة إلـــى الملك لأنه جواب عن خطابها إياه " (١)

فالقائل هو جبريل ــ عليه السلام ــ حين سمع تعجبها من هـــذه البشارة ، أن الأمر كما وصفت لك من اتيان الولد من غـــير زوج أمر ميسور وسهل ولا يشق علىّ بأمر الله .

---

(١) انظر التحرير والتنوير م ٨ ج ١٦ ص ٨٣ .

ويقول الشيخ المراغى : " فى تفسير هذه الآية : " أى قال الملـــك مجيبا لها عما سألت : إن الله قد قال : إنه سيوجد منك غـــلام وإن لـــم تكونى ذات بعل ، ولا تقترفين فاحشة ، فإنه تعالى على ما يشاء قدير ، ولا يمتنع عليه فعل ما يريده ولا يحتاج فى إنشائه إلى المواد والآلات .

ونحو الآية قوله فى سورة آل عمران : ﴿ **كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون** ﴾ (١)

وقوله تعالى : ﴿ **ولنجعله آية للناس** ﴾ . الآية هى العلامة والدليل والبرهان . قال الإمام الطبرسى : لنجعله آية ظاهرة للناس على نبوته ، ودلالة على براءة أمه (٢) .

قال ابن الأنبارى : " إنما دخلت الواو فى قولـــه : ﴿ **ولنجعلـــه** ﴾ لأنها عاطفة لما بعدها من كلام مضمر محذوف ، تقديره : قال ربـــك خلقُه على هين لننفعك به ، ولنجعله عبرة " . (٣)

ويقول الإمام ابن كثير : " ﴿ **ولنجعله آية للناس** ﴾ أى دلالـــة وعلامة للناس على قدرة بارئهم وخالقهم الذى نوع فى خلقهم فخلق آياهم آدم من غير ذكر ولا أنثى وخلق حواء من غير ذكر بلا انثى وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى إلا عيسى فإنه أوجده من أنثـــى بلا ذكر فتمت القسمة الرباعية الدالة على كمـــال قدرتـــه وعظيـــم

---

(١) سورة آل عمران جزء من آية ٤٧ وانظر تفسير المراغـــى ج ٦ ص ٤٢ ، ص ٤٣ .

(٢) مجمع البيان فى تفسير القرآن للإمام الطبرسى ج ١٦ ص ٢٩ .

(٣) انظر زاد المسير ج ٥ ص ١٥٣ .

سلطانه فلا إله غيره ولا رب ســـواه [1] . ويقــول ابــن عجيبـــة والإلتفات إلى نون العظمة ؛ لإظهار كمال الجلالة [2] .

وإلى الأولين أشار القائل :

ألا رب مولود وليس له أب وذوى ولد لم يلده أبوان [3]

قوله تعالى : ﴿ **ورحمـــة منـــا وكـــان أمـــراً مقضيـــا** ﴾ أى لنجعله نعمة على الخلق يـــهتدون بـــه لأنـــه ســـيكون نبـــى مـــن الأنبياء يدعوا إلى عبادة الله وحـــده .

قوله : ﴿ **وكان أمراً مقضيـــا** ﴾ فـــى الأزل قـــد تعلـــق بـــه قضاء الله وقدره وسطر فى اللوح المحفوظ فلابـــد مـــن جريانـــه عليك أو كان أمراً حقيقياً بأن يقضـــى ويفعـــل ؛ لتضمنـــه حكمـــا بالغة وأسراراً عجيبة والله تعـــالى أعلـــم . [4]

وجملة : ﴿ **وكان أمراً مقضيا** ﴾ يجوز أن تكون من قول الملك ويجوز أن تكون مستانفة . وضمير ﴿ **كان** ﴾ عائد إلـــى الوهـــب المأخوذ من قوله : ﴿ **لأهب لك غلاما** ﴾ .

وهذا قطع للمراجعة وإنباء بأن التخليق قد حصل فى رحمها [5] .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١١٥ ، تفسير الشيخ المراغى ج ١٦ ص ٦٧ .

(٢) انظره فى تفسير ابن عجيبة ج ١٦ ص ٣٢٦ .

(٣) انظر تفسير الشيخ المراغى ج ١٦ ص ٦٧ .

(٤) انظر تفسير البحر المديد ج ١٦ ص ٣٢٦ .

(٥) انظر التحرير والتنوير م ٨ ج ١٦ ص ٨٤ .

ومن الآية يفهم أن الله علـــى كـــل شــئ قديـــر وأن حكمـــه نافذ لا يتعلق بالأسباب والمســـببات الدنيويـــة وأن المولـــى عـــز وجل أراد أن يجعل من خلـــق عيســـى ــ عليـــه الســـلام ــ آيـــة للناس وعلامة على إرادتـــه وســـيطرته علـــى الكـــون ورحمـــة لبنى اسرائيل لأنه نزل فيهم وأن تحقـــق وقوعـــه ﴿ **كـــان أمـــراً مقضيا** ﴾ أى منتهى متحقق الوقـــوع . **والله أعلـــم**

قال تعالى : ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا(٢٢)فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا(٢٣)فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا(٢٤)وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا(٢٥)فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيْنَ مِنْ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا(٢٦) ﴾

تعرض لنا الآيات أصعب موقف مرت به مريم العذراء الطاهرة فقد حملت بالولد ولا تدرى كيف تواجه قومها وما كان منها إلاّ أن تعتزل الأهل وتتوارى عنهم فى مكان بعيد اختلف المفسرون فيه . كما أنهم اختلفوا فى كيفية الحمل ومقداره ومدته واختلفوا أيضا فى سن مريم عند الحمل .

وأرى أن هذا الإختلاف لا يؤثر فى الحكمة التى سيقت من أجلها القصة ولا يؤثر فى عظمة المعجزة وهى حمل مريم بعيسى ــ عليه السلام ــ بدون ذكر ولكن للمعرفة سنعرض كل ما دار من اختلافات بين المفسرين والله المعين .

قوله تعالى : ﴿ **فحملته** ﴾ يعنى عيسى ــ عليه السلام ــ .

يقول صاحب التحرير والتنوير : " الفاء للتفريع والتعقيب ، أى حملت بالغلام فى فور تلك المراجعة .

والحمل : العلوق ، يقال : حملت المرأة ولدا ، وهو الأصل ، قال تعالى : ﴿ **حملته أمه كرها** ﴾ [1] ويقال : حملت به وكأن الباء لتأكيد اللصوق ، مثلها فى ﴿ **وامسحوا برؤوسكم** ﴾ [2] .

---

(١) سورة الأحقاف جزء من آية ١٥ .

(٢) سورة المائدة جزء من الآية ٦ وانظر التحرير والتنوير م ٨ ج ١٦ ص ٨٤ .

﴿ فانتبذت ﴾ أى تنحت بالحمل واعتزلت متلبسة به حين أحست بقرب وضعها . [1] .

واختلف المفسرون فى كيفية حملها :

قال صاحب زاد المسير فى كيفية حملها قولان :

أحدهما : أن جبريل نفخ فى جيب درعها فاستمر به حملها ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس . قال السدى : نفخ فى جيب درعها وكان مشقوقا من قُدَّامها ، فدخلت النفخة فى صدرها فحملت من وقتها .

والثانى : أن الذى خاطبها هو الذى حملته ، ودخل من فيها ، قاله أبى بن كعب . [2] .

وقال الإمام ابن كثير : " يقول تعالى مخبراً عن مريم أنها لما قال لها جبريل عن الله تعالى ما قال أنها استسلمت لقضاء الله تعالى فذكر غير واحد من علماء السلف أن الملك وهو جبرائيل ــ عليه السلام ــ عند ذلك نفخ فى جيب درعها فنزلت النفخة حتى ولجت فى الفرج فحملت بالولد بإذن الله تعالى فلما حملت ضاقت ذرعا ولم تدر ماذا تقول للناس فإنها تعلم أن الناس لا يصدقونها فيما تخبرهم به . " [3]

---

(١) تفسير البحر المديد ج ١٦ ص ٣٢٧ .

(٢) زاد المسير فى علم التفسير لأبى الفرج الجوزى البغدادى ج ٥ ص ١٥٤ وانظر مجمع البيان فى تفسير القرآن ج ١٦ ص ٣٠ .

(٣) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٣ ص ١١٦ .

ثم اختلفوا أيضا فى مدة الحمل :

فقال الإمام أبى الفرج الجوزى البغدادى فى مقدار حملها سبعة أقوال :

أحدها : أنها حين حملت وضعت قاله ابن عباس ، والمعنى : أنه ما طال حملها ، وليس المراد أنها وضعته فى الحال ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ **فحملته فانتبذت به** ﴾ وهذا يدل على أن بين الحمل والوضع وقتا يحتمل الانتباذ به .

والثانى : أنها حملته تسع ساعات ، ووضعت من يومها ، قاله الحسن .

والثالث : تسعة أشهر قاله سعيد بن جبير ، وابن السائب .

والرابع : ثلاث ساعات ، حملته فى ساعة ، وصور فى ساعة ووضعته فى ساعة ، قاله مقاتل ابن سليمان .

والخامس : ثمانية أشهر ، فعاش ، ولم يعش مولود قط لثمانية أشهر ، فكان فى هذا آية ، حكاه الزجاج .

والسادس : فى ستة أشهر ، حكاه الماوردى .

والسابع : فى ساعة واحدة ، حكاه الثعلبى . (١)

ويقول الإمام ابن كثير : " اختلف المفسرون فى مدة حمل عيسى ــ عليه السلام ــ فالمشهور عند الجمهور أنها حملت به تسعة أشهر وقال عكرمة ثمانية أشهر قال ولهذا لا يعيش ولد الثمانية أشهر وقال ابن جريج أخبرنى المغيرة عن عتبة عن عبد الله الثقفى سمع ابن عباس

---

(١) انظر زاد المسير ج ٥ ص ١٥٤ وانظر مجمع البيان ج ١٦ ص ٣٠ وانظر البحر المديد ج ١٦ ص ٣٢٧ والكشاف ج ٢ ص ٥٠٦ .

وسئل عن حمل مريم قال لم يكن إلا أن حملت ووضعت وهذا غريب وكأنه مأخوذ من ظاهر قوله تعالى ﴿ **فحملته فانتبذت به مكانا قصيا ، فاجاءها المخاض إلى جزع النخلة** ﴾ فالفاء وإن كانت للتعقيب لكن تعقيب كل شئ بحسبة كقوله تعالى : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما** ﴾ (١) فهذه الفاء للتعقيب بحسبها . وقد ثبت فى الصحيحين أن بين كل صفتين أربعين يوما ، وقال تعالى : ﴿ **ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة** ﴾ (٢) فالمشهور الظاهر والله على كل شئ قدير أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن . (٣)

كما أنهم اختلفوا فى عمر مريم العذراء وقت حملها فمنهم من قال كانت بنت عشر سنين وقيل بنت ثلاثة عشرة سنة .

قوله تعالى : ﴿ **مكانا قصيا** ﴾ القصى : البعيد والقاصى خلاف الداني والقصى البعيد وقرأ ابن مسعود وابن أبى علبة : (قاصيا) قال ابن إسحاق : مشت ستة أميال .

قال الفراء : القصى والقاصى بمعنى واحد . وقال غير الفراء : القصى والقاصى بمنزلة الشهيد والشاهد .

وإنما بعدت ، فراراً من قومها أن يعيِّروها بولادتها من غير زوج .

---

(١) سورة المؤمنون آية ١٦ .

(٢) سورة الحج آية ٦٣ .

(٣) انظر تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١١٦ .

واختلف المفسرون فى تحديد المكان فمنهم من قال وراء الجبل ومنهم من قال بيت لحم بفلسطين والأرجح أنه بيت لحم لما روى عن النسائى عن أنس رضى الله عنه والبيهقى عن شداد بن أوس ــ رضى الله عنه ــ أن ذلك ببيت لحم . (١)

ويقول الإمام المراغى : " والقرآن قد أثبت النفخ فقال : ﴿ **فنفخنا فيها من روحنا** ﴾ ولم يعين موضع النفخ فلا يجزم بشئ من ذلك إلا بالدليل القاطع ..

والقرآن الكريم لم يعين مدة الحمل " ولا حاجة إليها فى العبرة " فنقول إنها كانت كما يكون غيرها من النساء إلا إذا ثبت غيره ، وكذلك لا حاجة إلى تعيين سنها حينئذ ، إذ لا يتعلق به كبير فائدة . (٢)

وهنا يقول الإمام سيد قطب : " إن السياق لا يذكر كيف حملته ولا كم حملته . وهل كان حملا عاديا كما تحمل النساء وتكون النفخة قد بعثت الحياة والنشاط فى البويضة فإذا هى علقة فمضغة فعظام ثم تكسى العظام باللحم ويستكمل الجنين أيامه المعهودة ؟ إن هذا جائز . فبويضة المرأة تبدأ بعد التلقيح فى النشاط والنمو حتى يستكمل تسعة أشهر قمرية والنفخة تكون قد أدت دور التلقيح فسارت البويضة سيرتها الطبيعية ..

---

(١) انظر تفسير الإمام القرطبى ج ١١ ص ٢٢ وتفسير ابن عجيبة ج ١٦ ص ٣٢٧ وزاد المسير ج ٥ ص ١٥٤ وابن كثير ج ٣ ص ١١٦ ، وحاشية الجلالين ج ٣ ص ٥٧ والكشاف ج ٢ ص ٥٠٦ .

(٢)انظر تفسير المراغى ج ١٦ ص ٤٤ .

كما أنها من الجائز فى مثل هذه الحالة الخاصة أن لا تسير البويضة بعد النفخة سيرة عادية ، فتختصر المراحل اختصاراً ، ويعقبها تكوين الجنين ونمزه واكتماله فى فترة وجيزة ٠٠٠

ليس فى النص ما يدل على إحدى الحالتين فلا نجرى طويلا وراء تحقيق القضية التى لا سند فيها (١) .

هذه آراء المفسرين حول تحديد الكيفية والمدة والعمر والمكان والآيات كما نرى أغفلت ذلك كله ولا يزيدنا معرفته شيئا ولا ينقص من المعجزة ــ وهى الحمل بدون ذكر ــ عدم معرفتها ولا يوجد أدلة حديثية ترجح أى قول من الأقوال . **والله اعلم** .

قوله تعالى : ﴿ **فاجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت ياليتنى مت قبل هذا أو كنت نسيا منسيا** ﴾ الآية ٢٣ .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن حالتها عند حملها بعيسى وعندما فاجاءها المخاض وما اعتراها من حزن وأسى .

قوله تعالى : ﴿ **فاجاءها المخاض إلى جزع النخلة** ﴾

﴿ **فاجاءها** ﴾ من المفاجأة ، وهو تعدية " جاء " بالهمز يقال : جاءه به وأجاءه إلى موضع كذا كما يقال: ذهبت به وأذهبه .

وقرأ شبيل وروى عن عاصم : " ﴿ **فاجاءها** ﴾ من المفاجأة . وفى مصحف أبى : " فلما أجأءها المخاض " (٢)

ويقول الإمام الزمخشرى : " (فأجاءها) أجاء منقول من جاء إلا أن استعماله قد تغير بعد النقل إلى معنى الإلجاء ؛

---

(١) انظر فى ظلال القرآن للإمام الجليل سيد قطب ج ١٦ ص ٢٣٠٧ .

(٢) انظر تفسير الإمام القرطبى ج ١١ ص ٩٢ .

ألا تراك لا تقول جئت المكان وأجاءنيه زيد كما تقول بلغنيه وأبلغنيه ، ونظيره آتى حيث لم يستعمل إلا في الإعطاء ، ولم تقل أتيت المكان وآتانيه فلان . "

ومعنى : " فأجاءها " أى ألجأها واضطرها .

قوله : ﴿ المخاض ﴾ جاء في زاد المسير [1] أن معنى المخاض وجع الولادة ويقول الإمام الطبرسي [2] أى ألجأها الطلق أى وجع الولادة .

ويقول الشيخ المراغى [3] : المخاض : الطلق حين تحرك الولد للخروج من البطن .

قرأ ابن كثير فى رواية : " ﴿ المخاض ﴾ بالكسر يقال : مخضت الحامل مخاضا ومخاضا وهو تمخض الولد في بطنها . " [4]

ويقول الإمام الأكبر : " المخاض " مأخوذ من المخض وهو الحركة الشديدة وسمى بذلك لشدة تحرك الجنين فى بطن الأم عند قرب خروجه . " [5] .

قوله تعالى : **﴿ إلى جزع النخلة ﴾** .

---

(١) زاد المسير ج ٥ ص ١٥٤ .

(٢) مجمع البيان ج ١٦ ص ٣٠ .

(٣) انظر تفسير الشيخ المراغى ج ١٦ ص ٤٣ .

(٤) تفسير الإمام الزمخشرى ج ٢ ص ٥٠٦ .

(٥) التفسير الوسيط م ٩ ص ٢٨ .

أى : فاضطرها وألجأها الطلق إلى جزع نخلة فى المكان الذى توارت فيه . " وكأنما طلبت شيئا تستند إليه وتتعلق به ، كما تتعلق الحامل لشدة وجع الطلق .

والجذع : ساق النخلة اليابسة فى الصحراء الذى لا سعف عليه ولا غصن ولهذا لم يقل إلى النخلة . (١)

وقال الإمام الطبرسى : " ﴿ **إلى جذع النخلة** ﴾ فالتجأت إليها تستند إليها عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدى ، وقيل أجاءها أى جاء بها ، قال ابن عباس نظرت مريم إلى أكمه فصعدت مسرعة إليها فإذا عليها جذع نخلة نخرة ليس لها سعف ، والجذع ساق النخلة ، والألف واللام دخلت للعهد لا للجنس أى النخلة المعروفة (٢) .

وقال الإمام ابن عجيبة : " ﴿ **إلى جذع النخلة** ﴾ لتستتر به ، أو لتعتمد عليه عند الولادة ، وهو ما بين العرق والغصن . وكانت نخلة يابسة ، لا رأس لها ولا قعدة ، قد جئ بها لبناء بيت ، وكان الوقت شتاء ، ولعله تعالى ألهمها ذلك ليريها من آيات ما يسكن روعتها ، وليطعمها الرطب ، الذى هو من طعام النفساء المرافق لها . " (٣)

قوله تعالى : ﴿ **قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا** ﴾ والمعنى أن مريم العذراء عندما جاءها ألم الطلق تمنت الموت قبل أن ترى ما ترى .

---

(١) انظر تفسير الإمام القرطبى ج ١٢ ص ٩٢ .

(٢) انظر مجمع البيان فى تفسير القرآن للإمام الطبرسى ج ١٦ ص ٣٠ .

(٣) تفسير ابن عجيبة ج ١٦ ص ٣٢٧ .

ويقول المفسرون [1] : " وإنما قالته ن مع أنها كانت تعلـــم مـــا جرى لها مع جبريل ــ عليه السلام ــ من الوعد الكريم ؛ استحياء مــن الناس وأن يظن بها الشر فى دينها وتعير فيفتنيها ذلك ، وحتى لا يقـــع بسببها قوم فى البهتان والنسبة إلى الزنى وذلك مهلك . أو ان ذلك جريا على سنن الصالحين عند اشتداد الأمر .

وعلى هذا يكون تمنى الموت جائز ولا كراهة فيه .

ويقول الإمام الألوسى : " وتمنى الموت لمثل ذلك لا كراهة فيه ــ لأنه يتعلق بأمر دينى ــ نعم يكره أن يتمنى المرء الموت لأمــر دنيوى كمرض أو فقر .. ففى صحيح مسلم ، قال رسول الله ﷺ : " لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ، فإن كـــان لابــد متمنيــا فليقل : اللهم أحينى ما كانت الحياة خيراً لى وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى " [2]

ومن ظن أن تمنى مريم الموت كان لشدة الوجـــع فقــد أســاء الظــن [3] .

قوله : ﴿ **وكنت نسيا منسيا** ﴾ أى وكنت شيئا منسيا متروكا لا قيمة له قال الإمام القرطبى : " النسى فى كلام العرب الشئ الحقـير الذى شأنه أن ينسى ولا يتألم لفقده كالوتد والحبل للمسافر ونحوه .

---

(١) انظر تفسير الإمام القرطبى ج ١١ ص ٩٢ ، وتفسير الإمام الألوســـى ج ١٦ ص ٨٢ ، وتفسير ابن عجيبة ج ١٦ ص ٣٢٨ . وذاد المسير ج ٥ ص ١٥٥ .

(٢) صحيح افمام مسلم بشرح الإمام النووى ج ١٧ متاب الذكر باب كراهة تمنـــى الموت لضر نزل به ص ٧ ، ص ٨ .

(٣) تفسير الإمام الألوسى ج ١٦ ص ٨٢ .

وقال الفراء : ﴿ نسيا منسيا ﴾ أى حيضة ملقاة وقرئ **﴿ نسيا ﴾** بفتح النون وهما لغتان مثل الحْجر والحَجر والوِتر والوَتر وقرأ محمد بن كعب القرظى بالهمز : (نسئاَ) بكسر النون .وقرأ نوف البكائى : (نسئا) بفتح النون من نسأ الله تعالى فى أجله أى أخره . وحكاها أبو الفتح والدانى عن محمد بن كعب وقرأ بكر بن حبيب : (نسًّا) بتشديد السن وفتح النون دون همز [1] .

ويقول صاحب كتاب زاد المسير : " وللمفسرين فى قوله تعالى : **﴿ نسيا منسيا ﴾** خمسة أقوال :

أحدها : ياليتنى لم أكن شيئا ، قاله الضحاك عن ابن عباس وبه قال عطاء وابن زيد .

الثانى : ﴿ وكنت نسيا منسيا ﴾ أى : دم حيضة ملقاة قاله مجاهد وسعيد بن جبير ، وعكرمة . قال الفراء النسى ما تلقيه المرأة من خرق اعتلالها . وقال ابن الأنبارى : هى حزق الحيض تلقيها المرأة فلا تطلبها ولا تذكرها .

والثالث : أنه السقط ، قاله أبو العالية ، والربيع .

والرابع : أن المعنى : ليتنى لا يدرى ، من أنا ، قاله قتادة .

والخامس: أنه الشئ التافه يرتحل عنه القوم ، فيهون عليهم فلا يرجعون إليه ، قاله ابن السائب ، وقاله أبو عبيدة : النسٌ والمنس : ما ينسى من إدواة وعصا يعنى أنه ينسى فى

---

(١) انظر تفسير الإمام القرطبى ج ١١ ص ٩٢ ، ص ٩٣ .

المنزل فلا يرجع إليه لاحتقار صاحبه إياه وقال الكسائى : معنى الآية : ليتنى كنت ما إذا ذكر لم يطلب [1] .

والمعنى واضح أن ألم الوضع ألجأها إلى جذع النخلة لتتشبث به حتى تلد ولدها . ورغم علمها أن هذا الولد من عند الله إلا أنها تذكرت قومها وماذا تقول لهم عن هذا المولود فتمنت الموت في ذلك الوقت حتى لا يعيرها قومها ويتهمونها بالزنا ، حياءاً من الناس ، وخوفا منهم وتمنت لو أنها كانت شيئا مهملا لا يعتد به ولا يتذكرها الناس .

قوله تعالى : ﴿ **فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا** ﴾ الآية ٢٤ .

يبين لنا المولى عز وجل مدى رحمته بخلقه ففى وسط أحزانها وخوفها وشدة ألامها يطمئن المولى مريم العذراء ويؤكد لها المرة تلو المرة أن هذا الولد شأنه غير سائر البشر فهو معجزة كبرى فنداء الطفل أمه عقب الولادة لا يتأتى من أى مولود .

فاتركى الحزن والأسى وشاهدى بدء علو شأن ذلك المولود الذى بشرت به من قبل .

قوله تعالى : ﴿ **فناداها من تحتها** ﴾ قبل أن نتحدث عن المنادى لابد أن نوضح أن فى قوله تعالى : ﴿ **من تحتها** ﴾ قرائتين .

---

(١) انظر زاد المسير فى علم التفسير للإمام أبى الفرج جمال الدين بن محمد الجوزى ج ٥ ص ١٥٥ .

قرأ ابن كثير ، وأبوعمرو ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : ﴿ مَن تحتَها ﴾ بفتح الميم ، والتاء . وقرأ نافع ، وحمزة والكسائى وحفص عن عاصم : ﴿ مِنْ تحتِها ﴾ بكسر الميم والتاء .

وعلى ذلك يكون المراد بالماندى على القرائتين وجهين :

أحدهما : ناداها الملك من تحت النخلة . وقيل : كانت على نشز ، فناداها الملك أسفل منها .

والثانى : ناداها عيسى لما خرج من بطنها . قال ابن عباس : كل ما رفعت إليه طرفك ، فهو فوقك ، وكل ما خفضت إليه طرفك ، فهو تحتك .

وكان الفراء يقول : ما خاطبها إلا الملك على القرائتين جميعاً (١) .

وذكر الإمام القرطبى (٢) **والإمام ابن كثير** (٣) الوجهين السابقين ولكنهما رجحا أن المنادى هو جبريل عليه السلام لأن عيسى نبى الله لم يتكلم حتى أتت قومها .

قال الإمام القرطبى : وقيل : ناداها عيسى ــ على قراءة من فتح من تحتها ــ وكان ذلك معجزة ةآية وتسكينا لقلبها ، ...

وقرأ ابن عباس : " فناداها ملك من تحتها " قالوا : وكان جبريل ــ عليه السلام ــ فى بقعة من الأرض أخفض من البقعة التى كانت عليها ...

---

(١) انظر واد المسير ج ٥ ص ١٥٥ .

(٢) انظر تفسير الإمام القرطبى ج ١١ ص ٩٣ ، ص ٩٤ .

(٣) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١١٧ .

وذكر أيضا فى قول ابن عباس : " المراد بـ ﴿ **من** ﴾ جبريل ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها ؛ وقاله علقمة والضحاك وقتادة ؛ ففى هذا لها آية وأمارة أن هذا من الأمور الخارقة للعادة التى لله فيها مراد عظيم .

وقد رجح الإمام القرطبى رأى ابن عباس إن المراد ب ﴿ **من** ﴾ هو جبريل ـ عليه السلام ـ .

ورجح الإمام ابن جرير الطبرى أن المنادى هو عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ فقال :" وأولى القولين فى ذلك عندنا قول من قال : الذى ناداها ابنها عيسى ، وذلك أنه من كناية ـ أى ضمير ـ ذكره أقرب منه من ذكر جبريل ، فرده على الذى هو أقرب إليه أولى من رده على الذى هو أبعد منه ، ألا ترى أنه فى سياق قوله ـ تعالى ـ ﴿ **فحملته فانتبذت به مكانا قصيا** ﴾ ثم قيل: فناداهما نسقاً على ذلك ، ولعلة أخرى وهى قوله : ﴿ **فأشارت إليه ..** ﴾ ولم تشر إليه ـ إن شاء الله ـ إلا وقد علمت انه ناطق فى حاله تلك ... " (١)

ورجح الإمام الجليل شيخ الأزهر رأى الإمام الطبرى القائل بأن الذى ناداها هو ابنها عيسى ـ عليه السلام ـ فقال : " ويبدوا لنا أن ما ذهب إليه ابن جرير من كون الذى نادى مريم هو ابنها عيسى ، أقرب إلى الصواب ، لأن هذا النداء منه لها فى تلك الساعة ، فيه ما فيه من إدخال الطمأنينة والسكينة على قلبها .

---

(١) انظر تفسير ابن جرير الطبرى ج ١٦ ص ٥٢ .

أى : فناداها ابنها عيسى الذى كان أسفل منها عندمـــا وضعتـــه . مطمئنا إياها بعد أن قالت : ﴿ **ياليتنى مت قبل هذا ..** ﴾ (١)

وأقول : والله أعلم إن قوله تعالى : ﴿ **من تحتها** ﴾ فيه قرائتيـــن (بالفتح والكسر) وما دامت الآية تحتمل المعنيين فلا ينفى كلا منـــهما الآخر لأن المعجزة قد تمت سواء كان المنادى الملك أو كان عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ .

فاحتمال أن يكون المنادى الملك وارد لإنه هو الذى بشرها بقـــدوم الولد بدون ذكر ، واحتمال أنه عيسى ـ عليه الســـــلام ـ وارد لتبـــدأ المعجزة فى شخصه عليه السلام .

قوله تعالى : ﴿ **ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا** ﴾

﴿ **ألا تحزنى** ﴾ تفسير النـــداء و ﴿ **أن** ﴾ مفســرة بمعنـــى أى ؛ المعنى : فلا تحزنى بولادتك . (٢)

وقال ابن عجيبة : " أو : بألا تحزنى ، على أن ﴿ **أنْ** ﴾ مفسرة أو مصدرية ، حذف عنها الجار . (٣) .

قوله تعالى : ﴿ **قد جعل ربك تحتك** ﴾ أى : بمكان أسفل منك ، أى ناداها قائلا لا تحزنى قد جعل ربك بمكان أسفل منك سريا .

قال المفسرون إن لفظ ﴿ **سريا** ﴾ المراد به النهر الصغير ، وقيـل المراد به سريا من الرجال أى سيداً نبيلاً .

---

(١) انظر التفسير الوسيط للقرآن الكريم للدكتور ســـيد طنطـــاوى م ٩ ص ٢٩ ، ص٣٠ .

(٢) تفسير الإمام القرطبى ج ١١ ص ٩٤ .

(٣) تفسير الإمام ابن عجيبة ٨ ص ٣٢٨ .

جاء فى زاد المسير : ﴿ قد جعل ربك تحتك سريا ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه النهر الصغير ، قاله جمهور المفسرين ، واللغويــــون قال أبو صالح ، وابن جريج : هو الجدول بالسريانية .

والثانى : أنه عيسى كان سريا من الرجال ، قاله الحسن ، وعكرمـــة ، وابن زيد ، قال ابن الأنبارى : وقد رجع الحسن عـــن هــذا القول إلى القول الأول ، ولو كان وصفا لعيسى ، كان غلامــا سريا أو سريا . من الغلمان ، وقلما تقول العـــرب : رأيــت عندك نبيلا ، حتى يقولوا : رجلا نبيلاً .(١)

وقاله أيضا الإمام ابن عجيبة ﴿ سريا ﴾ أى نهراً صغيراً حســبما روى مرفوعاً (٢) قال ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ " إن جـــبريل ــ عليه السلام ــ ضرب برجله فى الأرض فظهرت عين ماء عــذب ؛ فجرى جدولا " . وقيل : فعله عيسى أى : ضــرب برجلــه فجــرى ، وقيل : كان هناك نهر يابس ــ أجرى الله تعالى فيه الماء ، كما فعـــل مثله بالنخلة ، فإنها كانت يابسة لا رأس لها ، فأخرج لها رأسا وخوصا وتمراً ، وقيل كان هناك نهر ماء . والأول أظهر ؛ لأنه الموافق لبيـــان إظهار الخوارق ، والمتبادر من النظم الكريم .

وقيل ﴿ سريا ﴾ أى : سيداً نبيلا رفيع الشأن جليلاً وهو عيســى ــ عليه السلام ــ .

---

(١) زاد المسير ج ٥ ص ١٥٦ .

(٢) أخرجه الطبرانى فى المعجم الصغير ج ١ ص ٢٤٤ من حديث الـــبراء بــن عازب ، وأخرجه فى الكبير ج ١٢ ص ٣٤٦ من حديث ابن عمر .

والتنوين حينئذ للتفخيم . والجملة تعليل لانتفاء الحزن المفهوم من النهى . والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرها ؛ لتشريفها وتأكيد التعليل وتكميل التسلية [1]

فإن قيل كيف ناسب تسليتها أن قيل : لا تحزنى ، فهذا نهر يجرى ؟

فالجواب من وجهين :

أحدهما : أنها حزنت لجدب مكانها الذى ولدت فيه ، وعدم الطعام والشراب الذى يُتطهر به ، فقيل : لا تحزنى قد أجرينا لك نهراً ، وأطلعنا لك رطبا ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثانى : أنها حزنت لما جرى عليها من ولادة ولد عن غير زوج فأجرى الله تعالى لها نهراً فجاءها من الأردن ، وأخرج لها الرطب من الشجرة اليابسة ، فكان ذلك آية تدل على قدرة الله عز وجل فى إيجاد عيسى ، قاله مقاتل [2] وكذلك قال الإمام الزمخشرى " معجزتان تريان الناس أنها من أهل العصمة والبعد عن الريبة وأن مثلها مما قرفوها به بمعزل وأن لها أمور إلهية خارجة عن العادات خارقة لما ألفوه واعتادوا ، حتى يتبين لهم أن ولدها من غير فحل ليس ببدع من شأنها [3]

---

(١) تفسير البحر المديد ج ١٦ ص ٣٢٨ . وانظره فى تفسير الإمام القرطبى ج ١١ ص ٩٤ .

(٢) انظر زاد المسير ج ٥ ص ١٥٦ .

(٣) تفسير الكشاف للزمخشرى ج ٢ ص ٥٠٧ .

قوله تعالى : ﴿ وهزى إليك بجزع النخل تساقط عليك رطبا جنيا ﴾ الآية ٢٥ .

هذه الآية تنبيه وعلامة أخرى على قدرة الله عز وجل وعلى أنه إذا أراد شيئا فلا دخل للأسباب والسنن العادية فقد روى أن النخلة كانت يابسة ولا رأس لها ولا ثمر وكان الوقت شتاء ، فأنزل الله لها رزقا فجعل للنخلة رأسا وخوصا وجعل لها ثمراً رطبا .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ **هزى إليك** ﴾ أى : حركى النخلة إليك ، أى : جاذبة لها جهتك . فهز الشئ : تحريكه إلى الجهات المتقابلة تحريكا عنيفا ، والمراد هنا ما كان بطريق الجذب والدفع فالهز هو التحريك وقال الفراء : العرب تقول هزه وهز به [١] .

ويقول الإمام القرطبى قوله تعالى : ﴿ **وهزى** ﴾ أمرها بهز الجذع اليابس لترى آية أخرى فى إحياء موات الجذع .

وقيل : المعنى ؛ وهزى إليك رطبا على جذع النخلة [٢]

والياء فى قوله تعالى : ﴿ **بجذع** ﴾ قال الإمام القرطبى [٣]: زائدة مؤكدة كما قال : خذ بالزمام ، وأعط بيدك .

ووافقه الإمام شيخ الأزهر [٤] : وقال لأن فعل الهز يتعدى بنفسه .

---

(١) تفسير البحر المديد ج ١٦ ص ٣٢٨ . وانظر تفسير زاد المسير ج ٥ ص ١٥٦ وتفسير مجمع البيان ج ١٦ ص ٣١ .

(٢) تفسير الإمام القرطبى ج ١١ ص ٩٤ .

(٣) تفسير الإمام القرطبى ج ١١ ص ٩٤ .

(٤) التفسير الوسيط للقرآن الكريم م ٩ ص ٣١ .

يقول الإمام الزمخشري : " والباء في بجذع النخلة صلة للتأكيد كقوله تعالى : ﴿ **ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة** ﴾ أو على معنى : أفعلي الهز به كقوله : بجرح في عراقيبها نصلي [1]

وذكر كذلك الإمام أبو الفرج جمال الدين بن محمد الجوزي في تفسيره أن للباء في قوله تعالى : ﴿ **بجذع النخلة** ﴾ ثلاثة أقوال : أحدهما : زائدة ، والثاني : مؤكدة ، والثالث : أنها دخلت على الجذع لتلصقه بالهز ، فهي مفيدة للإلصاق ، قاله ابن الأنباري [2] .

يقول الإمام ابن العربي : قوله : ﴿ **وهزي إليك بجذع النخلة** ﴾ أمر بتكلف الكسب في الرزق ، وقد كانت قبل ذلك يأتيها رزقها من غير تكسب ، كما قال تعالى : ﴿ **كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يامريم انى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾ [3]

قال علماؤنا : كان قلبها فارغا لله ، ففرغ الله جارحتها عن النصب ، فلما ولدت عيسى وتعلق قلبها بحبه ، وكلّها الله إلى كسبها ، وردّها إلى العادة في التعلق بالأسباب وفي معناه أنشدوا :

ألم تر أن الله قال لمريم ... إليك فهزى الجذع يساقط الرطب

ولو شاء أحنى الجذع من غير هزها ... إليها ، ولكن كل شئ له سبب

وقد كان حب الله أولى برزقها ... كما كان حب الخلق أدعى إلى النصَب [4]

---

(١) انظر تفسير الكشاف ج ٢ ص ٥٠٧ .

(٢) زاد المسير ج ٥ ص ١٥٦ .

(٣) سورة آل عمران آية ٣٧ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي مجلد ٢ ص ١٢٥٢ .

قوله تعالى : ﴿ تساقط عليك رطبا جنيا ﴾ .

و ﴿ تساقط ﴾ أى تتساقط . وقرئ : تساقط وتسقط ، أى : النخلة عليك إسقاطاً متواتراً بحسب تواتر الهز .

وجاء فى زاد المسير القراءات فى قوله ﴿ تساقط ﴾ بشىء من التفصيل : " قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، والكسائى ، وأبو بكر عن عاصم : ﴿ تسّاقط ﴾ بالتاء مشددة بالسين ، وقرأ حمزة ، وعبد الوارث : ﴿ تَسَاقط ﴾ بالتاء مفتوحة مخففة بالسين ، وقرأ حفص عن عاصم : ﴿ تُساقط ﴾ بضم التاء وكسر القاف مخففة بالسين ، وقرأ يعقوب ، وأبو زيد عن المفضل : ﴿ يسّاقط ﴾ بالياء مفتوحة وتشديد السين وفتح القاف فهذه القراءات المشاهير . وقرأ أبىُ بن كعب ، وأبو حيوة : ﴿ يَسْقُط ﴾ بفتح الياء وسكون السين ورفع القاف . وقرأ عبد الله بن عمرو ، وعائشة والحسن : ﴿ يُساقِط ﴾ بألف وتخفيف السين ورفع الياء وكسر القاف . وقرأ الضحاك ، وعمرو بن دنيار ﴿ يُسقِط ﴾ برفع الياء وكسر القاف مع سكون السين وعدم الألف . وقرأ عاصم الجحدرى ، وأبو عمران الجونى مثله ، إلا أنه بالتاء وقرأ معاذ القارئ ، وابن يعمر مثله ، إلا أنه بالنون . وقرأ أبو رزين العقيلى ، وابن أبى عبلة : ﴿ تَسقُط ﴾ بالتاء مفتوحة مع سكون السين ورفع القاف .وقرأ أبو السماك العدوى ، وابن حزلم : ﴿ تتساقط ﴾ بتاءين مفتوحين وبألف . وقال الزجاج : من قرأ ﴿ يسّاقط ﴾ فالمعنى : يتساقط ، فأدغمت التاء فى السين ومن قرأ ﴿ تسّاقط ﴾ فكذلك أيضا ، وأنث لأن لفظ النخلة مؤنث . ومن قرأ ﴿ تساقط ﴾ بالتاء والتخفيف ، فإنه حذف من ﴿ تتساقط ﴾ اجتماع

التائين . ومن قرأ ﴿ يُساقط ﴾ ذهب إلى معنى : يُساقط الجذع عليك . ومن قرأ ﴿ نُساقط ﴾ بالنون ، فالمعنى : نحن نُساقط عليك ، فنجعله لك آية " . [1]

ومعنى : ﴿ **رطبا جنيا** ﴾ أى : طرياً وهو ما قطع قبل يبسه فعيل بمعنى مفعول ، أى : مجنيا صالحا للاجتناء .

قال الزمخشرى [2] : " ﴿ **رطبا** ﴾ تمييز أو مفعول على حسب القراءة .

وقال الإمام القرطبى : " يختلف نصبه بحسب معانى القراءات .

ومعنى : ﴿ **جنيا** ﴾ : معناه قد طابت وصلحت للاجتناء وهى من جنيت الثمرة ...

وقال عباس بن الفضل : " سألت أبا عمرو بن العلاء عن قوله : ﴿ **رطبا جنيا** ﴾ فقال : لم يذو .

قال وتفسيره : لم يجف ولم ييبس ولم يبعد عن يدى مجتنيه ؛ وهذا هو الصحيح " . [3]

وقال ابن العربى : " الجنى : ما طاب من غير نقش [4] ولا إفساد والنقش فى أسفل البسرة حتى ترطب ، فهذا مكروه ؛ يعنى مالك : أن هذا تعجيل للشئ قبل وقته ، وإفساد لجناه ؛ فلا ينبغى

---

(١) انظر زاد المسير ج ٥ ص ١٥٦ ، ص ١٥٧ .

(٢) انظر تفسير الزمخشرى ج ٢ ص ٥٠٧ .

(٣) انظر تفسير الإمام القرطبى ج ١١ ص ٩٥ .

(٤) المنقوش من البسر : الذى يطعن فيه بالشوك لينضج ويرطب انظر لسان العرب ج ١ ص ٤٠٥ .

لأحد أن يفعله ، ولو فعله فاعل ما كان ذلك مجوز البيعة ، ولا حكمـــا بطيبه " (١) وأجمع العلماء على فائدة الرطب للنفساء وكذلـــك للتحنيـــك وكان السلف يستحبون للنفساء الرطب من أجل مريم ــ عليها السلام ــ

قال الإمام الزمخشرى : " قالوا : التمر للنفسا عادة من ذلك الوقـــت وكذلك التحنيك ، وقالوا : كان من العجوة وقيل ما للنفساء خـــير مـــن الرطب ولا للمريض خير من العسل وقيل إذا عسر ولادها لم يكن لـــها خير من الرطب " (٢)

قال تعالى : ﴿ **فكلى واشـــربى وقـــرى عينـــا فامـــا تريـــن مـــن البشر أحداً فقولى إنى نـــذرت للرحمـــن صومـــا ولـــن أكلـــم اليـــوم إنسيا** ﴾ الآيـــة ٢٦ .

قوله تعالى : ﴿ **فكلى واشربى وقرى عينا** ﴾ أى : فكلى من ذلـــك الرطب ، واشربى من عصيره ، وطيبى نفسا ، وأبعدى عنك الأحزان ، فإن الله قدير أن ينزه ساحتك ويبعد عنك تخرصات المبطليـــن الذيـــن يتقيدون بالسنن التى جعلها الله الطريق للولادة فى البشر ، ويرشدهم إلى الوقوف على سريرة أمرك حتى يثبتو لك القداسة والطهر " (٣)

فيتبين من كلام الشيخ المراغى أن قوله : ﴿ اشـــربى ﴾ مـــن عصير الرطب وقال الإمام أبو الفرج جمال الدين محمد الجـــوزى

---

(١) تفسير ابن العربى م ٢ ص ١٢٥٣ . وانظر تفسير الإمام القرطبى ج ١١ ص ٥٦ .

(٢) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٥٠٧ وانظر زاد المســـير ج ٥ ص ١٥٧ وتفســـير القرطبى ج ١١ ص ٩٥ .

(٣) انظر تفسير المراغى ج ١٦ ص ٤٥ .

إن قوله ﴿ **اشربى** ﴾ من النهر . وأيده الإمام القرطبى وكذلك قال الشيخ الطبرسى [1] .

قوله تعالى : ﴿ **وقرى عينا** ﴾ قال الإمام ابن عاشور : " وقرة العين : كناية عن السرور بطريق المضادة ، لقولهم : سخنت عينه إذا كثر بكاؤه . فالكناية بضد ذلك عن السرور كناية بأربع مراتب ...

وقرة العين تشمل هناء العيش وتشمل الأنس بالطفل المولود . وفى كونه قرة عين كناية عن ضمان سلامته ونباهة شأنه .

وفتح القاف فى ﴿ **وقرى عينا** ﴾ لأنه مضارع قررت عينه من باب رض ، أدغم فتنقلت عين الحركة إلى فائها فى المضارع لأن الفاء ساكنة " [2]

ومعنى ﴿ **قرى عينا** ﴾ أى طيبى نفساً وأبعدى عنك الحزن والهم ، فإنه تعالى قد نزه ساحتك عن التهم ، بما يفصح به لسان ولدك عن التبرئة .

أو : وقرى عينا بحفظ الله ورعايته فى أمورك كلها .

وقرة العين : برودتها ، مأخوذ من القر ، وهو البرد ، لأن دمع الفرح بارد ، ودمع الحزن سخن ، ولذلك يقال : قرة العين للمحبون ، وسخنة العين للمكروه [3] .

---

(١) زاد المسير ج ٥ ص ١٥٧ وانظر تفسير الإمام القرطبى ج ١١ ص ٩٦ . وتفسير الطبرسى ج ١٦ ص ٣٠ .

(٢) انظر التحرير والتنوير ج ١٦ ص ٨٩ .

(٣) البحر المديد ج ١٦ ص ٣٢٩ .

وذكر الإمام القرطبى رحمه الله نفس المعنى إلا أنــه قــال : " وضعف فرقة هذا أى التفرقة بين دمعة الفرح ودمعــة الحــزن ــ وقالت : الدمع كله حار ، فمعنى أقر الله عينه أى ســكن الله عينــه بالنظر إلى من يحبه حتى تقر وتسكن ؛ وفلان قرة عينى ؛ أى نفس تسكن بقربة . وقال الشيبانى : ﴿ **وقرى عينا** ﴾ معناه نــامى ؛ حضها على الأكل والشرب والنوم . قال أبو عمرو : أقر الله عينــه أى أنام عينه ، وأذهب سهره و ﴿ **عينا** ﴾ نصب على التميــيز ؛ كقولك : طب نفسا . والفعل فى الحقيقة إنما هو للعين فنقل ذلك إلى ذى العين ؛ وينصب الذى كان فاعلا فى الحقيقة علــى التفســير . ومثله طبت نفسا وتفقأت شحما ، وتصببت عرقا ، ومثله كثير (١) ، و ﴿ **عينا** ﴾ منصوبة على التمييز .

قال تعالى : ﴿ **فإما ترين من البشر أحداً فقولى انــى نــذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا** ﴾ .

والآية حكاية من المولى عز وجل لبقية كلام عيســى ــ عليــه السلام ــ لأمه .

وجاء فى زاد المسير : قوله تعالى : ﴿ **فإما تَرِيَن** ﴾ وقرأ ابن عباس وأبو محلز ، وابن السميقع ، والضحاك ، وأبــو العاليــة ، وعاصم الجحدرى : ﴿ **ترئِنَّ** ﴾ بهمزة مكسورة من غير ياء. أى :

---

(١) تفسير الإمام القرطبى ج ١١ ص ٩٦ ، ص ٩٧ .

إن رأيت من البشر أحداً فقولى ؛ وفيه إضمار تقديره : فسألك عن أمر ولدك . ﴿ **فقولى إنى نذرت للرحمن صوما** ﴾ (١)

والبشر : يعنى آدميا كائنا من كان .

ويقول الإمام الأكبر شيخ الأزهر : " لفظ " إما " مركب من " إن " الشرطية ، و " ما " المزيدة لتوكيد الشرط " وترين " فعل الشرط ، وجوابه ﴿ **فقولى** ﴾ وبين هذا الجواب وشرطه كلام محذوف يرشد إليه السياق .

والمعنى : أن عيسى ــ عليه السلام ــ قال لأمه : لا تحزنى يأماه بسبب وجودى بدون أب . وقرى عينا ، وطيبى نفسك لذلك ، فإما ترين من البشر أحداً كائنا من كان فسألك عن أمرى وشأنى فقولى له ﴿ **إنى نذرت للرحمن صوما** ﴾ أى صمتا عن الكلام ﴿ **فلن أكلم اليوم إنسيا** ﴾ لا فى شأن هذا المولود ولا فى شأن غيره ، وإنما سأترك الكلام لابنى ليشرح حقيقة أمره (٢)

قالوا : " إنما منعت من الكلام لأمرين :

أحدهما : أن يكون عيسى هو المتكلم عنها ليكون أقوى لحجتها فى إزالة التهمة عنها . وفى هذا دلالة على تفويض الكلام إلى الأفضل .

---

(١) انظر زاد المسير ج ٥ ص ١٥٨ .

(٢) انظر التفسير الوسيط م ٩ ص ٣١ .

والثانى : " كراهة مجادلة السفهاء ، وفيه أن السكوت عن الســـفيه واجب ؛ ومن أذل الناس سفيها لم يجد مسافهاً " [١]

وهنا تخبر مريم العذراء من يقابلها من البشـــر أنـــها نـــذرت الصوم وكان فى زمانهم ينذر الصوم عن الكلام مثل الصوم عـــن الطعام والشراب .

وقال الإمام ابن عجيبة إنها نـــذرت الصيـــام لحكمـــة هـــى : " لكراهة مجادلة الشفهاء ومقاولاتهم ، وللاكتفاء بكـــلام عيســـى ــ عليه السلام ــ فإنه نص قاطع فى قطع الطعن " [٢] .

وقال ابن عباس وأنس بن مـــالك ، وأبـــو رزيـــن العقيلـــى : " صمتاً " مكان قوله ﴿ **صوماً** ﴾ وقرأ ابن عباس : صياماً وكـــانت تكلم الملائكة ولا تكلم الإنس . [٣]

والنون فى قوله تعالى : ﴿ **تريـــن** ﴾ نون التوكيـــد الشـــديدة اتصلت بالفعل الذى صار آخره ياء بسبب حذف نون الرفع لأجـــل حرف الشرط فحركت الياء بحركة مجانسة لها كما هو الشأن مـــع نون التوكيد الشديدة .

والإنس : الإنسان ، والياء فيه للنسب إلى الإنس ، وهـــو اســـم جمع إنسان ، فياء النسب لإفادة فرد من الجنس مثل : ياء حـــرس

---

(١) انظر تفسير الفخر الرازى ج ٥ ص ٥٣٥ .

(٢) انظر البحر المديد ج ١٦ ص ٣٢٩ .

(٣) انظر زاد المسير ج ٥ ص ١٥٨ .

لواحد من الحرس . وهذا نكرة فى سياق النفى تفيد العموم ، أى لن أكلم أحداً .

وعدل عن " أحد " إلى ﴿ **إنسيا** ﴾ للرعى على فاصلة اليـــاء . وليس ذلك احتراز عن تكليمها الملائكة إذ لا يخطر ذلك بالبال عند المخاطبين بمن هيئت لهم هذه المقالة فالحمل عليه سماجة (١) .

يقول الإمام القرطبى : " من التزم بالنذر ألا يكلـم أحـداً مـن الآدميين فيحتمل أن يقال : إنه قُربة فيلـزم بـالنذر ، ويحتمـل أن يقال : ذلك لا يجوز فى شرعنا لما فيه مـن التضييـق وتعذيـب النفس ، كنذر القيام فى الشمس ونحوه . وعلى هـذا كـان نـذر الصمت فى تلك الشريعة لا فى شريعتنا ...

وقد أمر ابن مسعود من فعل ذلك بالنطق بالكلام .

وهذا هو الصحيح لحديث أبى اسرائيل ، خرجه البخارى عـن ابن عباس قال : بينما النبى ﷺ يخطب إذا هو برجل قائم فسأل عنه فقالوا : أبو اسرائيل نذر أن يقوم ولا يقعد ولا يسـتظل ولا يتكلـم ويصوم ؛ فقال النبى ﷺ : " مره فليتكلم وليستظل وليقعـد وليتـم صومه " (٢) .

---

(١) انظر التحرير والتنوير ج ١٦ ص ٩٤ .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الإيمان والنذور ٣١ ـ باب النذر فيما لا يملـك ، وفـى معصية ١٧ .

ـ سنن أبى داود ج ٣ كتاب الإيمان والنذور حديث رقم ٣٣٠ ص ٢٣٥ .

ـ موطأ مالك ج ٢ كتاب النذور والإيمان (٤) باب ما لا يجوز مـن النـذور فـى معصية الله ص ٤٧٥ .

وقال ابن زيد والسدى : كانت سنة الصيام عندهم الإمساك عن الأكل والكلام .

قلت : ومن سنتنا نحن فـــى الصيـــام الإمســـاك عـــن الكـــلام القبيح ، قال ﷺ : " الصيام جنـــة فـــلا يرفـــث ولا يجـــهل فـــإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إنـــى صـــائم " (١) .

وقال ﷺ : " من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجـــة فى أن يدع طعامه وشرابه " (٢)

قوله تعالى : ﴿ **فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَامَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا(٢٧)يَاأُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا(٢٨)** ﴾

إننا لنتصور الدهشة التى تعلو وجوه القوم ــ ويبدوا أنهم أهل بيتها الأقربون فى نطاق ضيق محدود ــ وهم يرون ابنتهم الطاهرة العـــذراء الموهوبة للهيكل العابدة المنقطعة للعبادة ٠٠ يرونها تحمل طفلا ٠٠٠

إن ألسنتهم لتنطلق بـــالتقريع والتـــأنيب : ﴿ **يـــا مريـــم لقـــد جئت شيئا فريا** ﴾ فظيعا مســـتنكراً ، ثـــم يتحـــول الســـخط إلـــى

---

(١) ــ صحيح الإمام البخارى كتاب الصوم باب فضل الصوم ج ٣ ص ٣١ .
ــ مسند أحمد ج ٢ ص ٢٤٥ ، ص ٢٥٧ .
ــ سنن النسائى ج ٤ كتاب الصوم ــ فضل الصيام ص ١٦٣ ، ص ١٦٤ . .

(٢) رواه الخمسة ماعدا مسلم . التاج ج ٢ ص ٦١ . ــ صحيح البخارى ج ٣ كتـــاب الصوم باب من لم يدع قول الزور والعمل به فى الصوم ص ٣٣ . ــ
وانظر تفسير الإمام القرطبى ج ١١ ص ٩٨ .

تهكم مرير : ﴿ يا أخت هارون ﴾ النبـــى الــذى تولــى الــهيكل هو وذريته من بعده والذى تنتســـبين إليــه بعبــادتك وانقطــاعك لخدمة الــهيكل .

﴿ ما كان أبوك امــرأ ســوء * ومــا كــانت أمــك بغيــا ﴾ حتى تأتى بهذه الفعلـــة التـــى لا يأتيــها إلا بنــات آبــاء الســوء والأمهات البغايــا (١)

قوله تعالى : ﴿ فأتت به قومِــها تحملــه ﴾

قال الإمام القرطبـــى : " روى أن مريــم لمــا اطمــأنت بمــا رأت من الآيات وعلمت أن الله تعـــالى ســيبين عذرهــا ، أتــت به تحمله من المكان القصى الذى كانت انتبـــذت فيــه " (٢)

ويقول الإمام الألوسى : " إنها جاءتــــهم مــع ولدهــا حاملــة إياه على أن التاء للمصاحبــة ... وأن ظــاهر الآيــة والأخبــار أنها جاءتهم به من غير طلب منــــهم (٣)

وقال صاحب زاد المسير : " انطلــق قومــها يطلبونــها فلمــا رأتهم حملت عيسى فتلقتهم بـــه " (٤)

﴿ قومها ﴾ أى أهل بلدتها ومحلتـــها .

---

(١) انظر تفسير الإمام سيد قطب ج ١٦ ص ٢٣٠٧ ، ص ٢٣٠٨ .

(٢) تفسير القرطبى ج ١١ ص ٩٩ .

(٣) تفسير الإمام الألوسى ج ١٦ ص ٨٧ .

(٤) زاد المسير لأبى الفرج جمال الدين محمد الجوزى البغـــدادى ج ٥ ص ١٥٨ وانظر مجمع البيان ج ١٦ ص ٣٢ ، ص ٣٣ .

مدة المكث بعد الولادة :

قال الإمام القرطبى : " قال ابن عباس : خرجت من عندهم حين أشرقت الشمس ، فجاءتهم عند الظهر ومعها صبى تحمله ، فكان الحمل والولادة فى ثلاث ساعات من النهار .

وقال الكلبى : " ولدت حيث لم يشعر بها قومها ، ومكثت أربعين يوما للنفاس ، ثم أتت قومها تحمله ، فلما رأوها ومعها الصبى حزنوا وكانوا أهل بيت صالحين " (١)

ويبين لنا صاحب التحرير والتنوير (٢) : أن الفاء للتعقيب فتدل على أن الإتيان كان عقب الولادة مباشرة .

ثم قال : ويجوز أن يكون تعقيباً عرفيا مثل : تزوج فولد له .

قوله تعالى : ﴿ **تحمله** ﴾ حال من تاء ﴿ **أتت** ﴾ وهذه الحال للدلالة على أنها أتت معلنة به غير سائرة لأنها قد علمت أن الله سيبرئها مما يتهم به مثل من جاء فى حالتها .

ويوضح لنا أيضا الإمام أبى الفرج محمد الجوزى البغدادى أن قوله تعالى : ﴿ **تحمله** ﴾ يضيف معنى جديد وليس فيه تكرار فيقول : " فإن قيل : ﴿ **أتت به** ﴾ يغنى عن ﴿ **تحمله** ﴾ فما فائدة التكرير ؟

فالجواب : أنه لما ظهرت منه آيات ، جاز أن يتوهم السامع ﴿ **فأتت به** ﴾ أن يكون ساعيا على قدميه ، فيكون سعيه آية كنطقه ،

---

(١) انظر تفسير الإمام القرطبى ج ١١ ص ٩٩ . وانظر أيضا زاد المسير ج ٥ ص ١٥٨ .

(٢) انظر تفسير ابن عاشور ج ١٦ ص ٩٤ .

فقطع ذلك التوهم ، وأعلم أنه كسائر الطفال ، وهذا مثل قول العـرب : نظرت إلى فلان بعينى ، فنفوْا بذلك نظر العطف ؛ والرحمة ، وأثبتـوا أنه نظر عين . وقال ابن السائب : لما دخلت على قومها بكوْا ، وكـانوا قوما صالحين " [1]

قوله تعالى : ﴿ قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا ﴾

الجملة : مستأنفة استئنافا بيانيا ، وقال قومها هذه المقالة توبيخا لـها . وتكون الجملة حكاية لما قاله قومها عندما رأوها ومعـها وليدهـا ، وقالوا لها ذلك على سبيل الإنكار حيث أتت بالولد من غير زوج .

وقال الإمام الطبرسى [2] : " ﴿ **فريا** ﴾ أى أمراً عظيما بديعـاً إذ لم تلد أنثى قبلك من غير رجل عن مجاهد وقتادة وقيـل أمـراً قبيحاً منكراً من الافتراء وهو الكذب عن الجبائى .

وفى زاد المسير [3] : أن ﴿ **فريا** ﴾ فيه ثلاثة أقـوال : الأول : بمعنى عظيماً والثانى : بمعنى عجيبـا فائقـا والثـالث : بمعنـى مصنوعا .

ويقول الإمام ابن عاشور : " وفرى : فعيل من فَرَى من ذوات الياء . ولهذا اللفظ عدة إطلاقات ؛ وأظهر محامله هنا أنه الشـنيع فى السوء ، قاله مجاهد والسدى وهو جاء من مادة افترى إذا كـذب لأن المرأة تنسب ولدها الذى حملت به من زنى إلى زوجها كذبـا .

---

(١) انظر زاد المسير ج ٥ ص ١٥٨ ، ص ١٥٩ .

(٢) انظر مجمع البيان ج ١٦ ص ٣٢ .

(٣) انظره فى زاد المسير ج ٥ ص ١٥٩ .

ومنه قوله تعالى : ﴿ **ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن** ﴾ (١)

ومن أهل اللغة من قال : إن الفرى والفرية مشتقان من الإفراء بالهمز ، وهو قطع الجلد لإفساده أو لتحريقه ، تفرقة بين أفرى وفرى ، وأن فرى المجرد للإصلاح " (٢)

وقال الإمام ابن عجيبة : " قال أبو عبيدة : " كل فائق من عجب أو عمل فهو فرى " . قال النبى ﷺ : " فى حق عمر رضى الله عنه : " أريت فى المنام أنى أنزع بدلو على بكرة على قليب ، فجاء أبو بكر فنزع ذنوبا أو ذنوبين نزعا ضعيفا ، والله يغفر له ، ثم جاء عمر بن الخطاب ، فاستحالت غربا ، فلم أر عبقريا يفرى فريه ، حتى روى الناس وضربوا بِعطنٍ (٣) .

ومعنى ﴿ **يفرى فريه** ﴾ يعمل عمله . (٤)

قال تعالى : ﴿ **يا أخت هارون** ﴾

يقول الإمام سيد قطب (٥) : " هذا النداء جاء للمفارقة بين تلك النسبة التى تنتسبها وذلك الفعل الذى اقترفته .

---

(١) سورة الممتحنة آية ١٢ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير ج ١٦ ص ٩٥ .

(٣) أخرجه الإمام البخارى فى ج ٥ باب فضائل الصحابة باب مناقب عمر ابن الخطاب ص ١٣ .

(٤) انظر البحر المديد ج ١٦ ص ٣٢٩ .

(٥) انظر فى ظلال القرآن ج ١٦ ص ٢٣٠٧ .

قال الإمام الألوسى : " ما ملخصه " قوله ﴿ **يا أخت هـارون** ﴾ استئناف لتجديد التعبير ، وتأكيد التوبيخ ، وليس المراد بهارون أخـا موسى بن عمران ـــ عليهما السلام ـــ .

عن المغيرة بن شعبة قال : " بعثنى رسول الله ﷺ إلـى أهـل نجران فقالوا : أرأيت ما تقرأ ب ﴿ **يا أخت هارون** ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا . قال : فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقـال : " ألا أخبرتهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم " (١)

وعن قتادة قال : " هو رجل صالح فى بنى اسرائيل .

والأخت هذا بمعنى المشابهة ، وشبهوها به تهكما ، أو لما رأوا قبل من صالحها ... " (٢) .

وقال الإمام القرطبى (٣) : " اختلف الناس فى معنى هذه الأخـوة ، **ومن هارون ؟**

فقيل : هو هارون أخو موسى ؛ والمراد من كنا نظنـها مثـل هارون فى العبادة تأتى بمثل هذا .

قيل : على هذا كانت مريم من ولد هارون أخا موسى فنسـبت إليه بالأخوة لأنها من ولده ؛ ...

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ٤ ص ٢٥٢ .

(٢) تفسير الإمام الألوسى ج ١٦ ص ٨٨ .

(٣) انظر القرطبى ج ١١ ص ١٠٠ ، ص ١٠١ وذكره أيضا ابن كثـير ج ٣ ص ١٢٠ .

وقيل : كان لها أخ من أبيها اسمه هارون ؛ لأن هذا الاسم كان كثيرا فى بنى اسرائيل تبركا باسم هارون أخا موسى ، وكان أمثل رجل فى بنى اسرائيل ؛ قاله الكلبى .

وقيل : هذا رجل صالح فى ذلك الزمان تبع جنازته يوم مات أربعون ألفا كلهم اسمه هارون .

وقال قتادة : كان فى ذلك الزمان فى بنى اسرائيل عابد منقطع إلى الله عز وجل يسمى هارون فنسبوها إلى أخوته من حيث كانت على طريقته قبل ؛ إذ كانت موقوفة على خدمة البيع ؛ أى ياهذه المرأة الصالحة ما كنت أهلاً لذلك .

وقال الإمام الطبرى [١] : " بل كان فى ذلك الزمان رجل فاجر اسمه هارون فنسبوها إليه على وجهة التعيير والتوبيخ ــ ولم يسم قائله .

وخلاصة الكلام : أن قوله تعالى : ﴿ **يا أخت هارون** ﴾ يحتمل أن يكون على حقيقته فيكون لمريم أخ اسمه هارون وكان صالحاً فيكون مخاطبتها بالإضافة إليه زيادة فى التوبيخ . ويرجحه الحديث الصحيح المذكور أنفا [٢] أو أن تكون الأخوة هنا بمعنى أنها من نسل هارون ومن ذريته . **والله أعلم** .

---

(١) تفسير الإمام الطبرى ج ١٦ ص ٥٨ .

(٢) انظر ص   من الكتاب

قوله تعالى : ﴿ ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا ﴾ .

قوله : ﴿ **ما كان أبوك** ﴾ يعنون عمران .

و ﴿ **امرأ سوء** ﴾ أى : زانيا ، و ﴿ **بغيا** ﴾ أى زانية .

وقوله تعالى : ﴿ **ما كان أبوك ....** ﴾ تقرير لكون ما جاءت به فريا ومنكراً وتنبيه على أن ارتكاب الفواحش من أولاد الصالحين أفحش الفواحش . فمن أين لك هذا الولد من غير زوج . والله أعلم

قال تعالى : ﴿ **فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا** ﴾ الآية ٢٩ .

وهنا نرى أن مريم بدأت فى الدفاع عن نفسها عن طريق معجزة وليدها .

أى : فأشارت مريم إلى ابنها عيسى – عليه السلام – ليوجهوا الكلام إليه ولكنهم لم يقتنعوا بإشارتها أى : كيف نكلم طفلا صغيراً ما زال فى مهده .

يقول الإمام ابن عجيبة : " ﴿ **فأشارت إليه** ﴾ أى : إلى عيسى أن كلموه ، ولم تكلمهم وفاء بنذرها ، وإشارتها إليه من باب الإدلال ، رجوعا لقولها لها : ﴿ **وقرى عينا** ﴾ ، ولا تقرعينها إلا بالوفاء بما وعدت به ؛ من العناية بأمرها والكفاية لشأنها ، وذلك يقتضى انفرادها بالله وغناها به " (١)

---

(١) البحر المديد ج ١٦ ص ٣٣٠ .

ويقول سيد قطب : " أن مريم بدأت تنفذ وصية الطفل العجيب التى لقنها إياها . " (١)

قوله تعالى : **﴿ قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ﴾**

معناه : كيف نكلم صبيا فى المهد . والمهد هو مكان نوم الصبى قيل إنه حجر أمه الذى تربيه فيه . إذ لم تكن هيأت له مهداً .

قال فى زاد المسير : إن المراد بالمهد قولان : أحدهما : حجرها قال نوف وقتادة والكلبى والثانى : سرير الصبى المعروف ، حكاه الكلبى أيضا (٢) .

وقيل : إنهم غضبوا عند إشارتها إليه وقالوا لسخريتها بنا أشد علينا من زناها ، فلما تكلم عيسى ـ عليه السلام ـ قالوا إن هذا الأمر عظيم . (٣)

يقول الإمام ابن عاشور : " والاستفهام : إنكارى ؛ أنكروا أن يكلموا من ليس فى شأنه أن يتكلم وأنكروا أن تحيلهم على مكالمته ، أى كيف نترقب منه الجواب ، أو كيف نلقى عليه السؤال ، لأن الحالتين تقتضيان التكلم ... وزيادة فعل الكون فى **﴿ من كان ... ﴾** للدلالة على تمكن المظروفية فى المهد من هذا الذى أحيلوا على مكالمته ،

---

(١) انظر فى ظلال القرآن ج ١٦ ص ٢٣٠٨ .

(٢) انظر زاد المسير ج ٥ ص ١٦٠ .

(٣) انظر مجمع البيان ج ١٦ ص ٣٣ .

وذلك مبالغة منهم فى الإنكار ، وتعجب من استخفافها بهم . ففعل ﴿ كان ﴾ زائد للتوكيد ، ولذلك جاء بصيغة الماضى لأن ﴿ كان ﴾ الزائدة تكون بصيغة الماضى غالبا . وقوله : ﴿ فى المهد ﴾ خبر ﴿ من ﴾ الموصولة . و ﴿ صبيا ﴾ حال من اسم الموصول . [1]

وقال الإمام ابن عجيبة : " منكرين لجوابها : **﴿ كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ﴾** ولم يعهد فيما سلف صبى يكلمه عاقل . و ﴿ **كان** ﴾ هنا : تامة و ﴿ **صبيا** ﴾ حال ـ وقيل : زائدة ، أى : من هو فى المهد " . [2]

---

(١) انظر التحرير والتنوير ج ١٦ ص ٩٧ .

(٢) انظر البحر المديد ج ١٦ ص ٣٣٠ .

قال تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا(٣٠)وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا(٣١)وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا(٣٢)وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا(٣٣) ﴾

وهنا يعلن عيسى ــ عليه السلام ــ عبوديته لله ويقرر حقيقة ظاهرة أنه ليس بإله ولا ابن إله كما ادعت النصارى بل هو عبد من عباد الله مولده معجزة من الله وأعطاه النبوة وأيده الله بمعجزات حسية تدل على صدق رسالته وبارك فيه وأوصاه بالصلاة والزكاة طول حياته ، والبر بأمه مريم العذراء وجعله متواضعاً وتلك صفات الأنبياء .

ثم أخبرنا المولى عز وجل أنه عليه رحمة وأمان وسكينة يوم ميلاده ويوم موته ويوم بعثه .

قال المفسرون [1] : إنما قدم ذكر العبودية ، ليبطل قول من ادعى فيه الربوبية .فيكون ذلك ردا على من غلا من بعده فى شأنه .

وقوله : ﴿ **قال** ﴾ أى عيسى ــ عليه السلام ــ

ومتى قال ذلك ؟ للعلماء رأيان فى وقت تكلمه منهم من قال : تكلم بعد أربعين يوما ومنهم من قال : تكلم فور ولادته . وكان ذلك

---

(١) انظر زاد المسير ج ٥ ص ١٦٠ ، مجمع البيان ج ١٦ ص ٣٣ ، تفسير القرطبى ج ١١ ص ١٠٢ ، والبحر المديد ج ١٦ ص ٣٣٠ .

نتيجة لاختلاف أرائهم فى خروج مريم ـ عليها السلام ـ وحملـها عيسى هل كان بعد ولادتها مباشرة أم بعد مكوثها مدة النفاس .

قال الإمام الطبرسى : " قيل إنه كلمهم وهو ابن اربعين يومـاً عن وهب ، وقيل يوم ولد عن ابن عباس وأكثر المفسـرين وهـو الظاهر " (١) .

وجاء فى زاد الميسر : " وفى وقت تكليمه لهم قولان :

أحدهما : أنه كلمهم بعد أربعين يوما .

والثانى : فى يومه وهو مبنى على ما ذكرنا من الزمان الذى غابت عنهم فيه مريم " (٢) .

يقول الإمام ابن عجيبة (٣) : " كلمهم بذلك ، ثم لم يتكلم حتى تم مبلغا يتكلم فيه الصبيان ووافقه الإمام القرطبى : وقال ولم ينقل أنـه دام نطقه ، ولأنه كان يصلى وهو ابن يوم أو شهر ولو كان يـدوم نطقه وتسبيحه ووعظه وصلاته فى صغره فى وقت الولادة لكـان مثله مما لا ينكر .

قوله تعالى : ﴿ **آتانى الكتاب** ﴾

و ﴿ **الكتاب** ﴾ : الشريعة التى من شأنها أن تكتب لئلا يقع فيها تغيير . فإطلاق الكتاب على شريعة عيسى كإطلاق الكتـاب علـى القرآن .

---

(١) مجمع البيان ج ١٦ ص ٣٣ .

(٢) انظر تفسير زاد الميسر ج ٥ ص ١٦٠ .

(٣) انظر البحر المديد ج ١٦ ص ٣٣٠ وتفسير الإمام القرطبى ج ١١ ص ١٠٣.

والمراد بالكتاب الإنجيل وهو ما كتب من الوحى الذى خاطب الله به عيسى . ويجوز أن يراد بالكتاب التوراة فيكون الإيتاء إيتاء علم ما فى التوراة كقوله تعالى : ﴿ يايحيى خذ الكتاب بقوة ﴾ (١)

ما المراد بالكتاب ؟ قال بعض العلماء : إن المراد به الإنجيل وقال آخرون : إن المراد به الإنجيل والتوراة (٢)

ولا يمنع أن يراد بالكتاب التوراة والإنجيل حيث علمه التوراة وأنزل عليه الإنجيل .

وقوله : ﴿ آتانى ﴾ أسكن هذه الياء حمزة .

وفى معنى الآية قولان :

أحدهما : أنه آتاه الكتاب وهو فى بطن أمه ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . وقيل : علم التوراة والإنجيل وهو فى بطن أمه .

والثانى : قضى أن يؤتينى الكتاب ، قاله عكرمة " (٣)

فيكون معنى الإتيان : الإعطاء أو القضاء .

قوله تعالى : ﴿ وجعلنى نبيا ﴾ أى وجعلنى مع ذلك نبيا .

أى حكم لى بإتيان الكتاب والنبوة ، وقيل إن الله تعالى أكمل عقله فى صغره وأرسله إلى عباده ، وكان نبيا مبعوثا إلى الناس فى

---

(١) انظر التحرير والتنوير ج ١٦ ص ٩٨ .

(٢) انظر البحر المديد ج ١٦ ص ٣٣٠ وتفسير القرطبى ج ١١ ص ١٠٢ ومجمع البيان ج ٥ ص ٣٣ .

(٣) انظر زاد المسير ج ٥ ص ١٦٠ وابن كثير ج ٣ ص ١١٩ .

ذلك الوقت مكلفا عاقلا ، ولذلك كانت له تلك المعجـــزة ٠٠ عـــن الحسن والجبائى " (١)

وجاء فى زاد المسير أن قوله تعالى : ﴿ **وجعلنى نبيا** ﴾ : ــ هــذا وما بعده إخبار عما قضى الله له وحكم له به ومنحه إياه مما ســـيظهر ويكون .

وقيل : المعنى : يؤتينى الكتاب ويجعلنى نبيـــا إذا بلغـــت ؛ فحـــل الماضى محل المستقبل ، كقوله تعالى: ﴿ **و إذ قال الله يا عيسى** ﴾ (٢)

وقال الإمام الأكبر شيخ الأزهر : " عبر بالفعل الماضى عما ســـيقع فى المستقبل ، تنزيلا لتحقيق الوقوع منزلة الوقوع الفعلى وهذا التعبـــير له نظائر كثيرة فى القرآن الكريم . **وذكر عدة أمثلة لذلك** " (٣)

قوله تعالى : ﴿ **وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بـــالصلاة والزكاة ما دمت حيا** ﴾ الآية ٣١ .

أصل البركة : الثبوت ٠٠ عن الجبائى

والبركة : كثرة الخير والبركة واليمن .

قال الإمام ابن عاشور : " ذلك أن الله أرســـله برحمـــة لبنـــى اسرائيل ليحل لهم بعض الذى حرم عليهم وليدعوهم إلـــى مكـــارم الأخلاق بعد أن قسبت قلوبهم وغيروا من دينهم فهذه أعظـــم بركـــة تقارنه .

---

(١) انظر مجمع البيان ج ١٦ ص ٣٣ .

(٢) سورة المائدة الآية ١١٦ .

(٣) انظر تفسير الإمام الأكبر شيخ الأزهر م ٩ ص ٣٤ .

ومن بركته أن جعل الله حلوله فى المكان سببا لخير أهل تلـــك البقعة من خصبها واهتداء أهلها وتوفيقهم إلى الخير .

ولذلك كان إذا لقيه الجهلة والقساة والمفسدون انقلبوا صـــالحين وانفتحت قلوبهم للإيمان والحكمة . ولذلك ترى أكـــثر الحوارييـــن كانوا من عامة الأميين من صيادين وعشارين فصاروا دعاة هـــدى وفاضت ألسنتهم بالحكمة .

وبهذا يظهر أن كونه مباركا أعم من كونه نبيا عمومًا وجـــهيا . فلم يكن فى قوله ﴿ **وجعلنى نبيا** ﴾ غُنية عـــن قولـــه ﴿ **وجعلنـــى مباركاً** ﴾ . (١)

وقال الإمام الطبرسى : " معلما للخير عن مجاهد ، وقيل نفاعـــا حيـــث توجهت . والبركة نماء للخير ، والمبارك الذى ينتمى الخير به ، وقيل ثابتـــا دائما على الإيمان والطاعة " (٢)

روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ فى هذه الآية قال : " نفاعـــا حيثما توجهت " (٣)

وقوله : ﴿ **أينما** ﴾ أى حينما حللت وحيثما كنت

والتعميم الذى فى قوله ﴿ **أينما كنت** ﴾ تعميم للأمكنة . أى لا تقتصـــر بركته على كونه فى الهيكل المقدس أو فى مجمع أهل بلدة ، بل هو حيثمـــا حل تحل معه البركة " (٤)

---

(١) انظر التحرير والتنوير ج ١٦ ص ٩٩ .

(٢) مجمع البيان ج ١٦ ص ٣٥ وزاد الميسر ج ٥ ص ١٦١ .

(٣) انظر مسند أحمد ج ٢ ص ٢٨،٧،٤ .

(٤) انظر التحرير والتنوير ج ١٦ ص ٩٩ .

فأينما شرطية وجوابها محذوف لدلالة ما قبلـــه عليــه .

وقوله تعالى : ﴿ **وأوصانى بـــالصلاة والزكـــاة** ﴾

﴿ **وأوصانى** ﴾ أى أمرنـــى بـــها أمـــراً مؤكـــداً أى أمرنـــى بإقامتها وآدائها والمحافظة عليـــها .

قال الإمام القرطبـــى [1] : " ﴿ **وأوصـــانى بـــالصلاة والزكـــاة** ﴾ أى لأؤديها إذا أدركنى التكليف ، وأمكننى أداؤها ، علـــى القـــول الأخـــير الصحيـــح .

﴿ **والزكاة** ﴾ : قيل المراد بالزكاة قولان : أحدهما : زكاة الأمـــوال ، قاله ابن السائب .

والثانى : الطهارة : قاله الزجـــاج .

والزكاة بمعنى الطهارة تعنى تطهير النفس مـــن الرزائـــل [2]

قوله تعالى : ﴿ **ما دمت حيـــا** ﴾ قولـــه : ﴿ **مـــا دمـــت** ﴾ أى مـــا بقيت .

و ﴿ **حيا** ﴾ أى مكلفا إلى أن أمـــوت .

﴿ **ما** ﴾ فى موضع نصب على الظرف أى دوام حياتى [3]

قال تعالى : ﴿ **وبَرًّا بوالدتى ولـــم يجعلنـــى جبـــاراً شـــقيا** ﴾ الآيـــة ٣٢ .

هذه الآية وسابقتها تدل على أن الصلاة والزكاة وبر الوالديـــن كان واجبا على الأمم السابقة .

---

(١) انظر تفسير الجامع لأحكام القرآن الكريم للإمام القرطبى ج ١١ ص ١٠٣ .

(٢) انظر زاد الميسر ج ٥ ص ١٦١ والبحر المديد ج ١٦ ص ٣٣٠ .

(٣) الإمام القرطبى ج ١١ ص ١٠٣ .

وقوله تعالى : ﴿ وبرا بوالدتى ﴾ تأكيد لبرائتها من الزنى وأنه ولد من أم بلا أب .

فقد جاء فى زاد المسير : قوله تعالى : ﴿ **وبراً بوالدتى** ﴾ قال ابن عباس : لما قال هذا ، ولم يقل : (بوالدى) علموا أنه ولد من غير بشر (١)

والمعنى : أن المولى عز وجل جعله باراً بها يؤدى شكرها ﴿ **وبراً بوالدتى** ﴾ عطف على ﴿ **مباركا** ﴾ . وقرئ بالكسر على أنه مصدر وصف به مبالغة .

وقوله : ﴿ **ولم يجعلنى جباراً شقيا** ﴾ عند الله تعالى ، بل متواضعا لينا ، سعيداً مقربا ن فكان يقول : سلونى فإن قلبى لين ، وإنى فى نفسى صغير ، لما أعطاه الله من التواضع . (٢)

ولفظ جباراً : تعنى : متجبراً متعظما و ﴿ **شقيا** ﴾ عاصياً لربه والمعنى : أنى بلطفه وتوفيقه كنت محسنا إلى والدتى متواضعا فى نفسى حتى لم أكن من الجبابرة الأشقياء .

قوله تعالى : ﴿ **والسلام علىّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا** ﴾ الآية ٣٣ .

والسلام هو الأمان والتحية .

﴿ **والسلام علىّ** ﴾ قيل أدخل لام التعريف لتعرفه بالذكر قبله كقولك جاءنا رجل ، فكان من فعل الرجل كذا والمعنى : ذلك السلام الموجه إلى يحيى فى المواصلة الثلاثة موجه إلىّ .

---

(١) انظر زاد المسير ج ٥ ص ١٦١ .

(٢) انظر البحر المديد ج ١٦ ص ٣٣٠ .

والصحيح أن يكون هذا التعريف تعريضا باللعنة على متـــهمى مريم ــ عليها السلام ــ وأعدائها من اليهود ، وتحقيقـــه أن الـــلام للجنس ، فإذا قال : وجنس السلام علىّ خاصة ، فقد عــرّض بـــأن ضده عليكم ، ونظيره قوله تعالى : **﴿ والسلام علـــى مـــن اتبـــع الهدى ﴾** (١)

يعنى أن العذاب على من كذب وتولى وكان المقام مقام منـــاكرة وعناد فهو مئنة لنحو هذا من التعريض . (٢)

وذكر ذلك أيضا فى زاد الميسر على صيغة سؤال مجاب عنـــه بجوابين .

قال صاحب زاد الميسر: " فإن قيل : لما ذكر هنـــا " الســـلام " بألف ولام ، وذكره فى قصة يحيى بلا ألف ولام ؟

فعنه جوابان :

أحدهما : أنه لما جرى ذكر السلام قبل هذا الموضع بغير ألف ولام كان الأحسن أن يرد ثانية بألف ولام ، هذا قول الزجاج .

وقد اعترض على هذا القول ، فقيل : كيف يجوز أن يعطـــف هذا وهو قول عيسى ، على الأول وهو قول الله عز وجل ؟ !

وقد أجاب عنه ابن الأنبارى فقال : عيسى إنما يتعلم من ربـــه فيجوز أن يكون سمع قول الله فى يحيى ، فبنى عليه وألصقه بنفســـه ، ويجوز أن يكون الله عز وجل عرَّف السلام الثانى لأنه أتـــى بعـــد

---

(١) سورة طه آية ٤٧ .

(٢) انظر الكشاف للزمخشرى ج ٢ ص ٥٠٨ .

سلام قد ذكره ، وأجراه عليه غير قاصد به اتباع اللفظ المحكـــى ، لأن المتكلم ، له أن يغير بعض الكلام الذى يحكيه ، فيقول : قــــال عبد الله : أنا رجل منصف ، يريد : قال لى عبد الله أنـــت رجــل منصف .

والجواب الثانى : أن سلاما والسلام لغتان بمعنى واحد ، ذكره ابــن الأنبارى .(١)

قوله تعالى : **﴿ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيــا ﴾** أى أن السلام والتحية على عيسى ــ عليه السلام ــ فى هذه الأحــوال الثلاث يوم المولد فلم ينغزه شيطان ويوم الموت ويوم البعث وهـــى المواطن الثلاثة التى يكون الإنسان فيها أشد حاجة لأمان الله .

يقول الإمام ابن عاشور : " **﴿ والسلام علىّ يوم ولدت ﴾** إلــى آخره تنويه بكرامته عند الله ، أجراه على لسانه ليعلموا أنه بمحــل العناية من ربه " (٢)

---

(١) انظر زاد المسير ج ٥ ص ١٦١ .

(٢) انظر التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١٠٠ .

قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ(٣٤)مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ(٣٥)وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ(٣٦)فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ(٣٧)أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنْ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ(٣٨) وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ(٣٩)إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ(٤٠) ﴾

قال تعالى : ﴿ **ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون** ﴾

لفظ الإشارة ﴿ **ذلك** ﴾ يعود إلى المنعوت بتلك النعوت الجليلة والأوصاف الحميدة التى وصفها المولى عز وجل لعيسى ابن مريم ــ عليه السلام ــ .

قول الإمام القرطبى : " أى ذلك الذى ذكرناه ــ عيسى ابن مريم فكذلك اعتقدوه ، لا كما تقول اليهود إنه لغير رشدة وإنه ابن يوسف النجار ، ولا كما قالت النصارى : إنه الإله أو ابن الإله " . [1]

ويقول الإمام ابن عجيبة [2] : " المنعوت هو ــ عيسى ابن مريم ــ لا ما يصفه النصارى به من وصف الألوهية ، فهو تكذيب لهم على الوجه الأبلغ والمنهاج البرهانى ، حيث جعله موصوفا بأضداد ما يصفونه به .

---

(١) انظر الإمام القرطبى ج ١١ ص ١٠٥ .

(٢) انظر البحر المديد ج ١٦ ص ٣٣٢ .

وأتى بإشارة البعيد ؛ للدلالة على علو رتبته وبعد منزلته ، وامتياز تلك المناقب الحميدة عن غيره ، ونزوله منزلة المشاهد المحسوس .

قوله تعالى : ﴿ **قول الحق** ﴾ أى أن عيسى بن مريم – عليه السلام – قول الحق الذى لا ريب فيه وأنه عبد الله ورسوله .

يقول الإمام القرطبى (١) : " سمى قول الحق كما سمى كلمة الله والحق هو الله عز وجل .

وقال أبو حاتم : المعنى هو قول الحق . وقيل : التقدير هذا الكلام قول الحق . قال ابن عباس : يريد هذا كلام عيسى " ابن مريم " صلى الله عليه وسلم قول الحق ليس بباطل ؛ وأضيف القول إلى الحق كما قال : ﴿ **وعد الصدق الذى كانوا يوعدون** ﴾ (٢) أى الوعد الصدق . وقال : ﴿ **ولدار الآخرة خير** ﴾ (٣) أى ولا الدار الآخرة .

وقرأ عاصم وعبد الله بن عامر : ﴿ **قَوْلَ الحَقِّ** ﴾ بالنصب على الحال ؛ أى أقول قولا حقا . والعامل معنى الإشارة فى ﴿ **ذلك** ﴾ .

الزجاج : هو مصدر أى أقول قول الحق ؛ لأن ما قبله يدل عليه . وقيل : مدح . وقيل : إغراء .

وقرأ عبد الله : ﴿ **قالُ الحقِّ** ﴾ . وقرأ الحسن : ﴿ **قُولُ الحقِّ** ﴾ بضم القاف ، وكذلك فى " الأنعام " ﴿ **قَوْلُهُ الحقُّ** ﴾ .

---

(١) انظر الإمام القرطبى ج ١١ ص ١٠٥ ، ص ١٠٦ .

(٢) سورة القصص آية ١٣ .

(٣) سورة يوسف جزء من آية ١٠٩ .

والقـول والقـال والقُـول بمعنـى واحـد ، كـالرَّهب والرَّهْـب والرُّهَب والرُّهْـب . "

وذكر ابن الأنبارى فى الآية وجهين : ــ

أحدهما : أنه لما وُصف بالكلمة جاز أن ينعت بالقول .

والثانى : أن فى الكلام إضماراً ، تقديره : ذلك نبأ عيسى ، ذلـك النبأ قول الحق " (١)

ويؤكد لنا شيخ الأزهر (٢) : " ﴿ **الحق** ﴾ يصح أن يراد بـه الله ــ سبحانه ــ لأنه من أسمائه ، ويصح أن يراد به ما هو ضـد البـاطل ، وهو الصدق والثبوت . والإضافة من باب إضافة الموصوف إلى صفته أى : القول الحق .

قوله تعالى : ﴿ **الذى فيه يمترون** ﴾

﴿ **الذى** ﴾ من نعت عيسى ــ عليه السلام ــ .

قال الإمام ابن عاشور : " ﴿ **الذى فيه يمترون** ﴾ صفة ثانيـة أو حال ثانية أو خبر ثان عن " عيسى بن مريم " والإمتراء الشـك ، أى الذى فيه يشكون أى يعتقدون اعتقاداً مبناه الشك ، والخطأ . فإن عاد الموصول إلى القول فالإمتراء فيه هو الامتراء فى صدقـه وإن عاد إلى عيسى فالإمتراء فيه هو الامتراء فى صفاته بيـن رافـع وخافض " (٣)

---

(١) انظر زاد الميسر ج ٥ ص ١٦٢ وابن عاشور ج ١٦ ص ١٠٢ .

(٢) انظر كتابه التفسير الوسيط م ٩ ص ٣٦ .

(٣) انظر التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١٠٢ ، ص ١٠٣ .

وقرأ أبو مجلز ، ومعاذ القارئ ، وابن يعمر ، وأبو رجاء **﴿ تمترون ﴾** بالتاء [1]

و **﴿ يمترون ﴾** : أى : يشكون أو يتنازعون ، فيقول اليهود : ساحر كذاب ، ويقول النصارى : إله ، أو ابن إله . [2]

فاليهود كانوا يشككون فى صدقه ويقولون ساحر كذاب والنصارى كانوا يقولون إنه إله ، أو ابن إله . فيبالغون فى أمره . والله يخبرنا أنه رسوله ونبيه خلقه من غير أب وجعله آية للناس على قدرته عز وجل .

قوله تعالى : **﴿ ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾** الآية ٣٥ .

يقول الإمام ابن عاشور : " وجملة **﴿ ما كان لله أن يتخذ من ولد ﴾** تقرير لمعنى العبودية ، أو تفصيل لمضمون جملة **﴿ الذى فيه يمترون ﴾** فتكون بمنزلة بدل البعض أو الاشتمال منها . اكتفاء بإبطال قول النصارى بأن عيسى ابن الله .

لأنه أهم بالإبطال . إذ هو تقرير لعبودية عيسى وتنزيه لله تعالى عما لا يليق بجلال الألوهية من اتخاذ الولد ومن شائبة الشرك ولأنه القول الناشئ عن الغلو فى التقديس فكان مما ذكر من صفات المدح لعيسى ما قد يقوى شبهتهم فيه [3] بخلاف قول اليهود فقد ظهر بطلانه بما عدد لعيسى من صفات الخير . "

---

(١) انظر زاد الميسر ج ٥ ص ١٦٢ .

(٢) انظر البحر المديد ج ١٦ ص ٣٣٢ .

(٣) التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١٠٣ .

فالآية هنا تنزه المولى ــ عز وجل ــ أن يكون له ولد لأن ذلــك لا يستقيم ولا يجوز فى حق الله لأن الولد امتداد للوالد والكل مصيره الفناء والله عز وجل باقٍ قادر فى غنى عن الولد والوالد والشريك .

قوله تعالى : ﴿ **ما كان لله أن يتخذ من ولد** ﴾

أى : ما ينبغى له ولا يليق ولا يجوز أن يتخذ ولدا و ﴿ **مــن** ﴾ مؤكدة تدل على نفى الواحد والجماعة أى أنه لا يجوز أن يتخذ ولداً واحداً ولا أكثر فأكدت المعنى وأفادت تعميمه .

وعن ابن الأنبارى ، قال فنابت اللام عن الفعل ، وذلك أن من اتخذ ولداً فإنما يتخذه من جنسه ، لأن الولد مجانس للوالد ، والله تعالى ليس كمثله شــئ فلا يكون له سبحانه ولد ولا يتخذ ولداً .

ثم نزه المولى عز وجل نفسه عن ذلك فقال ﴿ **سبحانه** ﴾ أى تعالى عما يقولون علواً كبيرا ، فهو تنزيه عما بهتوه ونطقوا به من البهتان [1]

قوله : ﴿ **إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون** ﴾

فالمولى عز وجل لا يتعذر عليه إيجاد شئ على الوجه الذى أراده فـــإن حكمه وقضاءه نافذ لا يحتاج إلى أسباب ومعالجة وأمره تعالى كلمح البصر .

﴿ **أمراً** ﴾ أى أمر ، أى أن إيجاد أى شئ أو عدمه .

ويقول الإمام الزمخشرى : " والقول هنا مجاز ومعناه أن إرادته للشئ يتبعها كونه لا محالة من غير توقف ، فشبه ذلك بأمر الآمر المطــاع إذا ورد على المأمور الممتثل . " [2]

---

(1) انظر واد المسير ج ٥ ص ١٦٢ ، مجمع البيان ج ١٦ ص ٣٦ ، والبحر المديـد ج ١٦ ص ٣٣٢ وابن كثير ج ٣ ص ١٢٠ .

(2) الكشاف ج ٢ ص ٥٠٩ .

وقوله : ﴿ **كن فيكون** ﴾ فيها قراءتان : الأولى : بالسكون والثانية ﴿ **فيكونَ** ﴾ بالنصب .[١]

وتكون هذه العبارة القرآنية بمثابة بيان السبب فى كون عيسى بن مريم من غير أب . وذلك لأن حكم الله وقضائه نافذ لا محال .

قال تعالى : ﴿ **وإن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم** ﴾ الآية ٣٦ .

قوله تعالى : ﴿ **إن الله ربى وربكم فاعبدوه** ﴾ . القائل هنا هو عيسى ـ عليه السلام ـ لينفوا ما نسب إليه من الربوبية وأن العبادة لله وحده فهو رب المخلوقات المستحق للعبادة .

قال الإمام ابن عاشور : " يجوز أن يكون هذا بقية لكلام جرى على لسان عيسى تأييداً لبراءة أمه وما بينها اعتراض ...

والمعنى : تعميم ربوبية الله تعالى لكل الخلق "[٢]

وقوله تعالى : ﴿ **وإن الله ربى وربكم ..** ﴾

فى ﴿ **إن** ﴾ قرائتين[٣] الأولى بكسر " إن " والثانية بفتحها فمن فتح " إن " عطفه على قوله تعالى : ﴿ **وأوصانى بالصلاة والزكاة** ﴾ .

ومن كسرها ففيه وجهان :

الأول : يكون معطوفا على قوله تعالى : ﴿ **إنى عبد الله** ﴾ .

---

(١) زاد المسير ج ٢ ص ١٦٢ .

(٢) انظر تفسير التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١٠٤ وتفسير البحر المديد ج ١٦ ص ٣٣٢ وتفسير زاد الميسر ج ٥ ص ١٦٢ .

(٣) انظر زاد الميسر ج ٥ ص ١٦٢ ، ابن عجيبة ج ٦ ص ٣٣٢ والقرطبى ج ١١ ص ١٠٧ والكشاف ج ٢ ص ٥٠٩ .

والثانى : يكون مستانفا .

وقال الإمام الطبرسى : " قوله : ﴿ **وإن الله ربى وربكم** ﴾ من فتح الهمزة ففيه أربعة أوجه :

أحدها : أن المعنى وقضى أن الله ربى وربكم . عن ابن عمر وابن العاء .

والثانى : أنه معطوف على كلام عيسى أى وأوصانى بأن الله ربى وربكم .

والثالث : ذلك عيسى بن مريم وذلك أن الله ربى وربكم ... عن الفراء .

والرابع : أن العامل فيه ﴿ **فاعبدوه** ﴾ والتقدير ولأن الله ربى وربكم ﴿ **فاعبدوه** ﴾ فحذف الجار .

ومن كسر الهمزة جاز أن يكون معطوفا على قوله تعالى :﴿ **إنى عبد الله** ﴾ أى وقال إن الله ربى وربكم ، وجاز أن يكون ابتداء كلام من الله تعالى أو أمر من الله لرسوله أن يقول ذلك . " [1]

والمعنى : أى ومما أمر به عيسى قومه وهو فى مهده أن أخبرهم بقوله : ﴿ **إن الله ربى وربكم** ﴾ ، وأمرهم بعبادته .

وقوله تعالى : ﴿ **هذا** ﴾ الإشارة هنا تعود إلى مضمون ما تقدم على اختلاف الوجوه .

والجملة تزييل لما تقدم أيضا . [2]

والمراد بالصراط المستقيم : الإعتقاد الحق أى هذا الذى دعوتكم إليه وأوصيتكم به هو الطريق المستقيم الذى وصانى به الله فمن سلكه

---

(١) انظر مجمع البيان ج ١٦ ص ٣٧ .

(٢) انظر التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١٠٥ ، تفسير البحر المديد ج ١٦ ص ٣٣٢ وتفسير المراغى ج ١٦ ص ٧٥ .

نجا ، ومن اتبعه أهتدى ، لأنه هو الدين الذى أمر به أنبياءه ومن خالفه ضل وغوى وسلك سبيل الردى .

يقول الإمام ابن عاشور : " والمراد بالصراط المستقيم اعتقاد الحق ، شبه الاعتقاد الحق فى كونه موصولا إلى الهدى بالصراط المستقيم فى إيصاله إلى المكان المقصود باطمئنان بال ، وعلم أن غير هذا كبنيات الطريق من سلكها ألقت به فى المخاوف والمتالف كقوله **﴿ وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾** (١)(٢) .

والمعنى : أى دين قويم لا إعوجاج فيه فهو مستقيم من تبعه استقام فى حياته وفاز وفلح ومن تركه اختل ميزانه وخسر الدنيا والآخرة .

قال تعالى : **﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم ﴾** الآية ٣٧ .

فى هذه الآية يبين المولى عز وجل ـ موقف أهل الكتاب من عيسى ـ عليه السلام ـ فقال : **﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم ﴾**

﴿ الأحزاب ﴾ جمع حزب والمراد بهم فرق اليهود والنصارى لأنهم أهل الكتاب .

فمنهم من اتهم مريم العذراء بما هى بريئة منه وهم اليهود كما فى قوله عز من قائل: **﴿ وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما ﴾** (٣)

---

(١) سورة الأنعام آية ١٥٣ .

(٢) انظر التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١٠٥ .

(٣) سورة النساء آية ١٥٦ .

ومنهم من قال هو ابن الله ؛ أو هو الله ، أو إله مـــع الله أو ثـــالث ثلاثة ... إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة البعيدة عن الحـــق التـــى أخبرنا بها القرآن الكريم وهم النصارى ,

" **الفاء** " فى قوله تعالى : ﴿ **فاختلف** ﴾ قال الإمام ابن عاشـــور [1] إنها لتفريع الإخبار بحصول الاختلاف على الإخبار بأن هـــذا صـــراط مستقيم ، أى حاد عن الصراط المستقيم الأحزاب فاختلفوا بينـــــهم فـــى الطرائق التى سلكوها ، أى هذا صراط مستقيم لا يختلف سالكوه اختلافا أصليا ، فسلك الأحزاب طرقا أخرى هى حائدة عن الصراط المســـتقيم فلم يتفقوا على شئ .

والإختلاف فى المذاهب أن يعتقد كل قوم خـــلاف مـــا يعتقـــده الآخرون .

فاختلفوا فى عيسى ــ عليه السلام ــ فصاروا أحزاباً .

وقوله تعالى : ﴿ **الأحزاب** ﴾ : الأحزاب جمع حزب وهو الجمـــع المتقطع فى رأيه عن غيره .

قال الإمام الزمخشرى [2] : " ﴿ **الأحزاب** ﴾ اليهود والنصارى عن الكلبى وقيل النصارى لتحزبـــهم ثـــلاث فـــرق نســـطورية ويعقوبيـــة وملكانية .

وعن الحسن : الذين تحزبوا على الأنبياء لما قص عليـــهم قصـــة عيسى اختلفوا فيه من بين الناس " .

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١٠٥ .

(٢) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٥٠٩ .

قال ابن عباس : المراد بالأحزاب الذى تحزبوا على النبـــى ﷺ وكذبوه من المشركين [1].

وأقول والله أعلم : إن قول ابن عباس ــ رضى الله عنـــه ــ معناه عام فى الأحزاب ونحن نعلم أن الأحـــزاب هــم المختلفــون المتحزبون فرقاً تنكر كل فرقة رأى الفرقة الأخـــرى تفــرط هــذه وتغالى هذه .

أما مراد الآية فالفرق والأحزاب التى اختلفت فى القول عن عيســى ــ عليه السلام ــ وأمه لأنه المانسب للقصة التى نحن بصددها .

يقول الإمام ابن عاشور : " والمراد بالأحزاب أحزاب النصـــارى . لأن الاختلاف مؤذن بأنهم كانوا متفقين ولـــم يكـــن اليـــهود موافقيـــن النصارى فى شئ من الدين .

وقد كان النصارى على قول واحد على التوحيد فى حياة الحواريين ثم حدث الاختلاف فى تلاميذهم . وقد ذكرنا فى تفسير قولـــه تعـــالى : ﴿ **فآمنوا بالله ورسوله ولا تقولوا ثلاثة** ﴾ [2] فى سورة النســـاء أن الاختلاف انحل إلى ثلاثة مذاهب : الملكانيـــة وتســـمى " الجاثليقيـــة " واليعقوبية والنسطورية . وتشعبت من هذه الفرق عـــدة فـــرق ذكرهـــا الشهرستانى ، ومنها الألبانية ، والبليارسية ، والمقدانوسية ، والسبالية ، والبوطينوسية ، والبولية ، إلى فرق أخرى . ومنهافرقـــة كـــانت فـــى العرب تسمى الركوسيه ورد ذكرها فى الحديث " أن النبـــى ﷺ قـــال لعدى بن حاتم : إنك ركوسى " .

---

(١) انظر تفسير القرطبى ج١١ ص ١٠٨ .

(٢) سورة النساء جزء من آية ١٧١ .

قال أهل اللغة هى نصرانية مشوبة بعقائد الصائبة ، وحدثت بعد ذلك فرقة الاعتراضية (البروتستان) أتباع " لوثير " وأشهر الفرق اليوم هى الملكانية (كاثوليك) ، واليعقوبية (أرثوذوكس) ، والاعتراضية (برتستان) . ولما كان اختلافهم قد انحصر فى مرجع واحد يرجع إلى إلهية عيسى اغتراراً وسوء فهم فى معنى لفظ " ابن " الذى ورد صفة للمسيح فى الأناجيل مع أنه قد وصف بذلك فيها أيضا أصحابه .

وقد جاء فى التوراة أيضا ــ أنتم أبناء الله ــ وفى إنجيل متى الحوارى وإنجيل يوحنا الحوارى كلمات صريحة فى أن المسيح ابن إنسان وأن الله إلهه وربه .

فقد انحصرت مذاهبهم فى الكفر بالله فلذلك زيل بقوله ﴿ **فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم** ﴾ .

فشمل قوله : ﴿ **الذين كفروا** ﴾ هؤلاء المخبر عنهم من النصارى وشمل المشركين غيرهم . (١)

قوله تعالى : ﴿ **من بينهم** ﴾ قال المفسرون (٢) : ﴿ **من** ﴾ زائدة والمعنى : اختلفوا بينهم .

وقال ابن الأنبارى : لما تمسك المؤمنون بالحق ، كان اختلاف الأحزاب بين المؤمنين مقصوراً عليهم .

قال أبو حيان : " ومعنى : ﴿ **من بينهم** ﴾ أن الاختلاف لم يخرج عنهم ، بل كانوا هم المختلفين دون غيرهم " . (٣)

---

(١) انظر التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١٠٦ .

(٢) انظر زاد المسير ج ٥ ص ١٦٣ والإمام القرطبى ج ١١ ص ١٠٨ ومجمع البيان ج ١٦ ص ٣٧ .

(٣) تفسير البحر المحيط ج ٦ ص ١٩١ .

يقول الإمام ابن عاشور : " وقولـــه : ﴿ **مــن بينـــهم** ﴾ متعلــق ب ﴿ **فــاختلف** ﴾ . و ﴿ **مــن** ﴾ حــرف توكيــد ، أى اختلفـــوا بينـــهم . " (١)

قوله تعالى : ﴿ **فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم** ﴾

﴿ **الويل** ﴾ : كلمة عذاب ووعيد ، مصدر لا فعل له .

وهى تهديد ووعيد شديد لمن كذب على الله وافترى وزعم أن له ولداً .

والويل حاصل لهم فى جميع الاحتمالات التى ذكرت فى الإختلافات حول عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ (٢) والتعبير بالتنكير فى قولـــه تعالى : ﴿ **من مشهد** ﴾ للتهويل .

قوله تعالى : ﴿ **من مشهد يوم عظيم** ﴾ أى من شـــهودهم هــول الحساب والجزاء فى يوم القيامة ، أو من كـــان الشـــهود فيـــه وهـــو الموقف ، أو من وقت الشهود ، أو من شهادة ذلك اليـــوم عليـــهم وأن تشهد عليهم الملائكة والأنبياء وألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بالكفر وســـوء الأعمال ، أو من مكان الشهادة أو وقتها . وقيل هو ما قالوه وشهدوا بـــه فى عيسى وأمه . (٣)

يقول الإمام الطبرسى (٤): " المشهد بمعنى الشهود والحضـــور أى من حضروهم ذلك اليوم وهو يوم القيامة ، وسمى عظيما لعظـــم

---

(١) التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١٠٦ .

(٢) انظر الإمام القرطبى ج ١١ ص ١٠٨ ، التحرير والتنويـــر ج ١٦ ص ١٠٥ ، تفسير الإمام شيخ الأزهر م ٩ ص ٣٨ .

(٣) انظر تفسير الكشاف ج ٢ ص ٥٠٩ .

(٤) تفسر مجمع البيان ج ١٦ ص ٣٨ .

أهواله وقيل ويل لهم من مجمع يوم أى من الفضيحة على رؤوس الجميع يومئذ . "

ويقول الإمام ابن كثير [1] : " تهديد ووعيد شديد لمن كذب على الله وافترى وزعم أن له ولداً ولكن أنظرهم تعالى إلى يوم القيامة وأجلهم حلما وثقة بقدرته عليهم فإنه الذى لا يعجل على من عصاه كما جاء فى الصحيحين [2] : إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته" ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ **وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد** ﴾ . [3]

قال تعالى : ﴿ **أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين** ﴾ الآية ٣٨ .

يقول الإمام أبى السعود : " ﴿ **أسمع بهم وأبصر** ﴾ تعجب من حدة سمعهم وأبصارهم يؤمئذ ومعناه : أن أسماعهم وأبصارهم ﴿ **يوم يأتوننا** ﴾ للحساب والجزاء أى يوم القيامة جدير بأن يتعجب منها بعد أن كانوا فى الدنيا صماً عميا ، أو تهديد بما سيسمعون ويبصرون يومئذ ، وقيل أمر بأن يسمعهم ويبصرهم بمواعيد ذلك اليوم وما يحيق بهم فيه والجار والمجرور على الأول فى موقع الرفع ، وعلى الثانى فى خبر النصب .

---

(١) تفسير القرآن العظيم ج ٣ ص ١٢١ .

(٢) صحيح الإمام البخارى ج ٦ كتاب التفسير ص ٩٣ ، ص ٩٤ .

(٣) سورة هود آية ١٠٢ .

﴿ **لكن الظالمون اليوم** ﴾ أى فى الدنيا ﴿ **فى ضلال مبين** ﴾ لا تدرك غايته حيث أغفلوا الاستماع والنظر بالكلية ووضع الظالمين موضع الضمير للإنذار بأنهم فى ذلك ظالمون لأنفسهم " (١)

ويقول الإمام المراغى (٢) : " ﴿ **أسمع بهم وأبصر** ﴾ عما فى الدنيا عن إبصار الحق والنظر إلى حجج الله التى أودعها فى الكون دالة على وحدانيته وعظيم قدرته وبديع حكمته ، صما عن سماع آى كتبه وما دعتهم إليه الرسل مما ينفعهم فى دينهم ودنياهم ويهديهم إلى الصراط المستقيم فما أسمعهم يوم قدومهم على ربهم فى الآخرة ، وما أبصرهم حينئذ ، حيث لا يجدى السماع والإبصار شيئا ويعضون على أناملهم حسرة وأسفا . "

ويقول الإمام الطبرسى (٣) : " ومعناه الإخبار عن قوة علومهم بالله تعالى فى تلك الحال ومثله قوله : ﴿ **فكشفنا عنك غطائك فبصرك اليوم حديد** ﴾ (٤)

ويوضح ذلك صاحب زاد الميسر (٥) أن قوله تعالى : ﴿ **أسمع بهم وأبصر** ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أن لفظه لفظ الأمر ، فالمعنى : ما أسمعهم وأبصرهم حين لم ينفعهم ذلك لأنهم شاهدوا من أمر الله ما لا

---

(١) انظر تفسير أبى السعود ج ٥ ص ٢٦٥ ، ص ٢٦٦ .

(٢) انظر تفسير المراغى ج ١٦ ص ٥٠ .

(٣) تفسير مجمع البيان ج ١٦ ص ٣٨ .

(٤) سورة ق آية ٢٢ .

(٥) انظر زاد الميسر فى علوم التفسير للإمام أبى الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن على محمد الجوزى البغدادى ج ٥ ص ١٦٣ .

يحتاجون معه إلى نظر وفكر فعلموا الهدى وأطـاعوا ، وهذا قول الأكثرين .

وفى الصحيحين أيضا [١] : " عن رسول الله ﷺ أنه قال : " ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله يدعون له الولـداً ثـم يعافيـهم ويرزقهم " وقد قال الله تعالى : ﴿ **وكأين من قرية أمليت لها وهـى ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير** ﴾ [٢]

وقال تعالى : ﴿ **ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار** ﴾ [٣] ولهذا قال هاهنا ﴿ **فـويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم** ﴾ أى يوم القيامة ، وقد جاء فـى الحديث الصحيح المتفق على صحته عن عبادة بـن الصـامت ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ " من شهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وأن الجنة حق والنـار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل " [٤][٥] .

---

(١) صحيح الإمام البخارى ج ٩ كتاب التوحيد باب ٣ ص ١٤١ .مسند أحمد ابـن حنبل ج ٤ ص ٣٩٥ ، ٤٠١ ، ٤٠٥ .

(٢) سورة الحج آية ٤٥ .

(٣) سورة إبراهيم آية ٤٢ .

(٤) انظره فى صحيح الإمام مسلم بشرح الإمام النووى ج ١ كتـاب الإيمـان ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، مسند الإمام أحمد ج ٢ / ٤٢٦ ، ج ٥ / ٢٩٢ ، ٣١٤ .

(٥) انظر تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٢٠ .

فمع وضوح الأمر فى شأن عيسى ــ عليه السلام ــ أنه عبد الله ورسوله وكلمته التى ألقاها ــ كن فيكون ــ إلا أنهم اختلفوا فيه فصاروا أحزابا وفرقا ، فويل لهم بسبب اختلافهم ، وتهديد ووعيد شديد لمن كذب على الله وافترى وزعم أن له ولداً أو أن عيسى ــ عليه السلام ــ إله أو غير ذلك سواء بالإفراط أو المغالاة والله أعلم .

يقول الإمام ابن كثير [(١)] : " وقال المؤمنون هو عبد الله ورسوله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم روح منه ، وهؤلاء الناجون المثابون والمؤيدون المنصورون ، ومن خالفهم فى شئ من هذه القيود فهم الكافرون الضالون الجاهلون ، وقد توعدهم العلى العظيم الحكيم العليم بقوله : ﴿ **فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم** ﴾ .

والثانى : أسمع بحديثهم اليوم ، وأبصر كيف يصنع بهم ﴿ **يوم يأتوننا** ﴾ ، قاله أبو العالية .

قال الكلبى : لا أحد يوم القيامة أسمع منهم وأبصر ، حين يقول الله لعيسى : ﴿ **أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله** ﴾ [(٢)(٣)] .

ويقول الإمام القرطبى : " قال أبو العباس : العرب تقول هذا فى موضع التعجب ... قال : فمعناه أنه عجب نبيه منهم ...

---

(١) انظر قصص الأنبياء لابن كثير ج ٢ ص ٥٧٩ .

(٢) سورة المائدة الآية ١١٦ .

(٣) انظر تفسير البحر المديد ج ٦ ص ٣٣٣ .

وقيل : ﴿ أسمع ﴾ بمعنى الطاعة ؛ أى ما أطاعوهم لله فى ذلك اليوم " (١) .

قوله تعالى : ﴿ **لكن الظالمون اليوم** ﴾ . الاستدلال فى قوله تعالى : ﴿ **لكن الظالمون اليوم** ﴾ راجع إلى ما يفيده التقييد بالظرف فى قوله ﴿ **يوم يأتوننا** ﴾ من ترقب سوء حالهم يوم القيامة الذى يقتضى الظن بأنهم الآن فى سعة من الحال " (٢)

و ﴿ **الظالمين** ﴾ يعنى : المشركين والكفار ﴿ **اليوم** ﴾ يعنى : فى الدنيا .

أى : أن هؤلاء القوم ما أعجب حالهم إنهم لا يسمعون ولا يبصرون فى الدنيا حين يكون السمع والبصر وسيلة للهدى والنجاة . وهم أسمع ما يكون السمع وأبصر ما يكون البصر عندما يكون السمع والبصر وسيلة للخزى والعذاب فى الآخرة .

أوقع الظاهر : أعنى ﴿ **الظالمين** ﴾ موقع الضمير إشعاراً بأن لا ظلم أشد من ظلمهم حيث أغفلوا الاستماع والنظر حين يجدى عليهم ويسعدهم (٣)

قوله : ﴿ **فى ضلال مبين** ﴾ لا يدرك غايته حيث أغفلوا عن الاستماع والنظر بالكلية . فالمبين الظاهر والواضح .

يقول الإمام القرطبى (٤) : " وأى ضلال أبين من أن يعتقد المرء فى شخص مثله حملته الأرحام ، وأكل وشرب ، وأحدث واحتاج ، أنه إلـه ؟ !

---

(١) انظر تفسير الإمام القرطبى ج ١١ ص ١٠٨ ، ص ١٠٩ .

(٢) انظر التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١٠٨ .

(٣) انظر تفسير الكشاف للإمام الزمخشرى ج ٢ ص ٥٠٩ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبى ج ١١ ص ١٠٩ .

ومن هذا وصفه بأنه أصم أعمى ولكنه سيبصر ويسمع فى الآخرة إذا رأى العذاب ، ولكنه لا ينفعه ذلك ؛ قال معناه قتادة وغيره " .

وعبر المولى عز وجل أنهم متلبسون فى الضلال الواضح المبين من شدة سوء حالهم لما كانوا عليه من فرق وأحزاب فى شأن عيسى — عليه السلام — وأمه .

قوله تعالى : ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون ﴾ الاية ٣٩ .

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ وأنذر يا محمد هؤلاء المشركين بالله يوم حسرتهم وندمهم على ما فرطوا فى جنب الله وورثت مساكنهم من الجنة أهل الايمان بالله والطاعة له ، وأدخلوهم مساكن أهل الايمان بالله من النار وايقن الفريقان بالخلود الدائم والحياة التى لا موت بعدها فيا لها حسرة وندامة " (١)

والمعنى : أنذرهم ذلك اليوم الذى تشتد فيه الحسرات ، هذا اليوم الذى لا تنفع فيه الحسرات ، فقد قضى الأمر الذى فيه هلاكهم وهم منغمسون فى الكفر غافلون عما يصنع بهم فى ذلك اليوم .

روى عن عبد الله بن مسعود أنه قال : " قال : ما من أحد يدخل النار إلا وله بيت فى الجنة فيتحسر عليه . وقيل : تقع الحسرة إذا أعطى كتابه بشماله .

﴿ إذ قضى الأمر ﴾ أى فرغ من الحساب ، وأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار .

---

(١) انظر جامع البيان فى تفسير القرآن لابن جرير الطبرى ج ١٦ ص ٦٦ .

وفى صحيح مسلم من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح [1] فيوقف بين الجنة والنار فيقال يا أهل الجنة هل تعرفون هذا فيشرئبون وينظرون ويقولون نعم هذا الموت ـ قال ـ ثم يقال يا أهل النار هل تعرفون هذا فيشرئبون وينظرون ويقولون نعم هذا الموت ـ قال ـ فيؤمر به فيذبح ثم يقال يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت ـ ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ **وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون**﴾ [2].

وقوله تعالى : ﴿ **وأنذرهم** ﴾ يعنى أنذر يا محمد الظالمين أى أن الضمير يعود على الظالمين ، وهم المشركون من أهل مكة وغيرهم من عبدة الأصنام لقوله ﴿ **وهم لا يؤمنون** ﴾ وقوله ﴿ **وإلينا يرجعون** ﴾ .

والحسرة : الندامة الشديدة الداعية إلى التلهف والمراد بيوم الحسرة يوم الحساب وأضيف اليوم إلى الحسرة لكثرة ما يحدث فيه من تحسر المجرمين على ما فرطوا فيه من أسباب النجاة .

---

(١) الأملح : الذى بياضه أكثر من سواده ؛ وقيل النقى البياض . انظر لسان العرب ج ١٣ ص ١٧٠ .

(٢) صحيح الإمام مسلم بشرح الإمام النووى ج ١٧ كتاب الجنة وصفة نعيمها باب جهنم أعاذنا الله منها ص ١٨٤ ، ص ١٨٥ وانظر فى صحيح الإمام البخارى ج ٦ كتاب التفسير ـ تفسير سورة مريم ص ١١٨ انظر تفسير الإمام القرطبى ج ١١ ص ١٠٩ .

يقول الإمام محمد الجوزى صاحب زاد المسير : " وموجبات الحسرة يوم القيامة كثيرة ، فمن ذلك ما روى ... وذكر لنا الحديث السابق ذكره ثم قال :

قال المفسرون : فهذه هى الحسرة إذ ذبح الموت ، فلو مات أحد فرحا مات أهل الجنة ، ولو مات أحد حزنا مات أهل النار ومن موجبات الحسرة : روى عدى بن حاتم عن رسول الله ﷺ أنه قال : " يؤتى يوم القيامة بناس إلى الجنة ، حتى إذا دنوا منها واستنشقوا ريحها ونظروا إلى قصورها ، نودوا أن أصرفوهم عنها ، لا نصيب لهم فيها ، فيرجعون بحسرة ما رجع الأولون بمثلها . فيقولون : ياربنا لو أدخلتنا النار قبل أن ترينا ما رأينا كان أهون علينا ؛ قال : ذلك أردت بكم ، كنتم إذا دخلتم بارزتمونى بالعظائم ، وإذا لقيتم الناس لقيتوهم مخبتين ، تراؤون الناس بخلاف ما تعطون من قلوبكم ، هبتم الناس ولم تهابونى ، وأجللتم الناس ولم تجلونى ، تركتم للناس ولم تتركوا لى ، فاليوم أذيقكم العذاب مع ما حرمتكم من الثواب " . (١)

ومن موجبات الحسرة ما روى عن ابن مسعود قال : " ليس من نفس يوم القيامة إلا وهى تنظر إلى بيت فى الجنة و بيت فى النار ، ثم يقال : يعنى لهؤلاء : لو علمتم ، ولأهل الجنة لولا أن من الله عليكم .

ومن موجبات الحسرة : قطع الرجاء عند إطباق النار على أهلها " (٢)

قوله تعالى : ﴿ **إذا قض الأمر** ﴾ أى : فرغ من يوم الحساب وتميز الفريقان إلى الجنة وإلى النار .

---

(١) الترغيب والترهيب ج ١ ص ٧٢ .

(٢) انظر زاد المسير ج ٥ ص ١٦٤ .

قوله تعالى : ﴿ **وهم فى غفلة** ﴾ أى وهم لا يشعرون عما يراد بهم فى الآخرة .

وقوله : ﴿ **وهم لا يؤمنون** ﴾ بما يكون فى الآخرة لاغترارهم بالحياة الدنيا ونعيمها .

ويقول الإمام أبو السعود : ﴿ **وهم فى غفلة** ﴾ و ﴿ **وهم لا يؤمنون** ﴾ : جملتان حاليتان من الضمير المستتر فى قوله تعالى : ﴿ **فى ضلال مبين** ﴾ أى مستقرون فى ذلك وهم فى (تينك) الحالتين وما بينهما اعتراض ومن مفعول أنذرهم أى أنذرهم غافلين غير مؤمنين فيكون حال ما تضمنه لمعنى التعليل " (١)

قال تعالى: ﴿ **إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون** ﴾ الآية ٤٠ .

بعد أن بين المولى عز وجل أن يوم القيامة هو يوم الحسرات بالنسبة للكافرين يقرر هنا حقيقة لا خلاف فيها وهى أن الأرض ومن عليها ملك لرحمن وأن كل شئ مملوك للخالق الواحد الوارث .

يقول الإمام ابن عاشور : " تذييل لختم القصة على عادة القرآن فى تذييل الأغراض عند الانتقال منها إلى غيرها والكلام موجه إلى المشركين لإبلاغه إليهم ...

وحقيقة الإرث : مصير مال الميت إلى من يبقى بعده .

وهو هنا مجاز فى تمحص التصرف فى الشئ دون مشارك فإن الأرض كانت فى تصرف سكانها من الإنسان والحيوان كل بما يناسبه . فإذا هلك الناس والحيوان فقد صاروا فى باطن الأرض وصارت الأرض فى غير تصرفهم فلم يبق تصرف فيها إلا لخالقها ، وهو تصرف كان فى ظاهر

---

(١) انظر تفسير أبى السعود ج ٥ ص ٢٦٦ .

الأمر مشتركا بمقدار ما خولهم الله التصرف فيها إلى أجل معلوم . فصار الجميع فى محض تصرف الله ومن جملة ذلك تصرفه بالجزاء ...

وأفاد التذييل التعريف بتهديد المشركين بأنهم لا مفر لهم من الكون فى قبضة الرب الواحد الذى أشركوا بعبادته بعض ما على الأرض ، وان آلهتهم ليست بمرجوة لنفعهم إذ ما هى إلا مما يرثه الله . " (١)

فإن قيل : ما الفائدة فى ﴿ **نحن** ﴾ وقد كفت عنها ﴿ **إنا** ﴾ ؟

فالجواب : أنه لما جاز فى قول المعظم : (إنا نفعل) أن يتوهم أن أتباعه فعلوا ، وأبانت ﴿ **نحن** ﴾ بأن الفعل مضاف إليه حقيقة .

فإن قيل : فلم قال : ﴿ **ومن عليها** ﴾ وهو يرث الآدميين وغيرهم ؟.

فالجواب : أن ﴿ **من** ﴾ تختص أهل التمييز ، وغير المميزين يدخلون فى معنى الأرض ويجرون مجراها ــ ذكر الجوابين عن السؤالين ابن الأنبارى ــ " (٢)

أى لا يحزنك أيها الرسول تكذيب المشركين لك فيما أتيتهم به من الحق ، فإن إلينا مرجعهم ومصيرهم ومصير الخلق أجمعين ، ونحن وارثوا الأرض ومن عليها من الناس بعد فنائهم ثم نجازى كل نفس بما عملت حينئذ ، فنجازى المحسن بإحسانه ، والمسئ بإساءته ، لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب " (٣)

---

(١) انظر التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١١٠ ، ص ١١١ .

(٢) انظر تفسير زاد الميسر ج ٥ ص ١٦٥ .

(٣) انظر تفسير الإمام المراغى ج ١٦ ص ٥١ .

القصة الثالثة

قصة إبراهيم عليه السلام

قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا(٤١)إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا(٤٢)يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا(٤٣)يَا أَبَتِ لا تَعْبُدْ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا(٤٤)يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا(٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا(٤٦)قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا(٤٧)وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا(٤٨)فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلا جَعَلْنَا نَبِيًّا(٤٩)وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا(٥٠) ﴾

تحدثنا الآيات عن طرف من قصة إبراهيم ــ عليه السلام ــ وبعدد من أنبياء الله ورسله عليهم السلام .

واستتبع بذكر الأنبياء تتمة للرد على أهل الشرك بأن الملل كلها متفقة على إبطاله . ، وقدم المولى عز وجل قصة إبراهيم الخليل لأنه إمام أهل التوحيد يقول فى ذلك الإمام فخر الدين الرازى ما ملخصه : " أعلم أن الغرض من هذه السورة ، بيان التوحيد والنبوة والحشر ، والمنكرون للتوحيد فريقان : فريق أثبت معبوداً غير الله حياً عاقلاً وهم

النصارى ومن على شاكلتهم ، وفريق أثبت معبوداً من الجماد ليس بحى ولا عاقل ، وهم عبدة الأوثان .

والفريقان وإن اشتركا فى الضلال إلا أن ضلال الفريق الثانى أعظم . ولما بين ـ سبحانه ـ ضلال الفريق الأول ـ وهم النصارى ، أتبعه بذكر الفريق الثانى وهم عبدة الأوثان قوم إبراهيم ـ عليه السلام ـ " (١)

يقول الإمام ابن عاشور موضحا الحكمة التى من أجلها قدمت قصة الخليل إبراهيم على غيرها من القصص : " من أهم ما اشتملت عليه هذه السورة التنويه بالأنبياء والرسل السالفين . وإذ كان ابراهيم ـ عليه السلام ـ أبا الأنبياء وأول من أعلن التوحيد إعلانا باقيا لبنائه له هيكل التوحيد وهو الكعبة . كان ذكر إبراهيم من أغراض السورة .

وذكر عقب قصة عيسى لمناسبة وقوع الرد على المشركين فى آخر القصة ابتداء من قوله تعالى : ﴿ **فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم** ﴾ **إلى قوله** : ﴿ **إنا نحن نرث الأرض ومن عليها** ﴾ .

ولما كان إبراهيم قد جاء بالحنفية وخالفها العرب بالإشراك وهم ورثة إبراهيم كان لتقديم ذكره على البقية الموقع الجليل من البلاغة .

وفى ذلك تسلية للنبى ﷺ على ما لقى من مشركى قومه لمشابهة حالهم بحال قوم إبراهيم . " (٢)

---

(١) انظر تفسير الفخر الرازى ج ٥ ص ٥٤٤ .

(٢) انظر التحرير والتنوير لابن عاشور ج ١٦ ص ١١١ .

قال تعالى : ﴿ واذكر فى الكتب إبراهيم إنه كان صديقـا نبيـا ﴾ الآية ٤١ .

وتبدوا فى هذه الآيات شخصية الخليل إبراهيم .. تبدوا وداعته وحلمه فى ألفاظه وتعبيراته التى يحكى القرآن الكريم ترجمتها بالعربية ، وفى تصرفاته ومواجهته للجهالة من أبيه . كما تتجلى رحمة الله به وتعويضه عن أبيه وأهله المشركين ذرية صالحة تنسل أمة كبيرة ، فيها الأنبياء وفيها الصالحون .

وقد خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ينحرفون عن الصراط الذى سنه لهم أبوهم إبراهيم . هم هؤلاء المشركون .

ويصف الله إبراهيم بأنه كان صديقا نبيا ، وقد جرى خبر سرد إبراهيم ــ عليه السلام ــ على أسلوب سرد قصة مريم ــ عليها السلام ــ وهو قوله تعالى : ﴿ **واذكر فى الكتاب ..** ﴾

وقوله تعالى : ﴿ **واذكر فى الكتاب إبراهيم** ﴾ أى أتل عليهم يا محمد ما جاء ذكره فى القرآن الكريم أو فى هذه السورة من قصة إبراهيم وبلغها إياهم فإنهم ينتمون إليه ــ عليه السلام ــ لأنه أبو الأنبياء لعلهم يتعظون ويقلعون عن كل سيئ وقبيح . كقوله تعالى : ﴿ **واتل عليهم نبأ إبراهيم** ﴾ (١)

﴿ **إبراهيم** ﴾ عليه السلام هو أبو الأنبياء وهو من أولى العزم من الرسل ، وهو الذى جعل الله فى ذريته النبوة والكتاب .

---

(١) سورة الشعراء الآية ٦٩ .

ويقول الإمام الأكبر شيخ الأزهر : " واذكر أيها الرسول الكريم — للناس فى هذا القرآن قصة أبيهم إبراهيم — عليه السلام — لكى يعتبروا ويتعظوا ويقتدوا بهذا النبى الكريم فى قوة إيمانه ، وصفاء يقينه وجميل أخلاقه " (١)

قوله تعالى : ﴿ **إنه كان صديقا نبيا** ﴾ و " الصديق " بتشديد الدال صيغة مبالغة فى الاتصاف ...

وصف إبراهيم بالصديق لفرط صدقه فى امتثال ما يكلفه الله تعالى لا يصده عن ذلك ما قد يكون عذرا للمكلف مثل مبادرته إلى محاولة ذبح ولده حين أمره الله بذلك فى وحى الرؤيا ، فالصديق هنا بمعنى بلوغ نهاية الصفة فى الموصوف بها ، كما فى قوله تأبط شراً :

إنى لمهد من ثنائى فقاصد به لابن عم الصدق شمس بن مالك

وتأكيد هذا الخبر بحرف التوكيد وبإقحام فعل الكون للاهتمام بتحقيقه زيادة فى الثناء عليه . (٢)

و " **الصديق** " مبالغة من الصدق . أى : إنه كان ملازما للصدق فى كل أقواله وأفعاله وأحواله .

قال الإمام ابن عجيبة : " ﴿ **إنه كان صديقاً** ﴾ ملازما للصدق فى كل ما يأتى ويذر أو كثير التصديق ؛ لكثرة ما صدق به من غيوب الله تعالى وآياته وكتبه ورسله ، فالصديق مبالغة فى الصدق ، يقال : كل من صدق بتوحيد الله وأنبيائه وفرائضه ، وعمل بما صدق به فهو صديق ، وبذلك سمى أبو بكر بالصديق .

---

(١) انظر التفسير الوسيط للقرآن الكريم م ٩ ص ٤١ .

(٢) انظر التحرير والتنوير لابن عاشور ج ١٦ ص ١١٢ .

والجملة : استئناف مسوق لتعليل بموجب الأمر ؛ فإن وصفه – عليه السلام – بذلك من دواعي ذكره ، وكان أيضاً ﴿ **نبيا** ﴾ ، أي : كان جامعاً بين الصديقية والنبوة ، إذ كل نبي صديق ، ولا عكس . ولم يقل : نبيا صديق ؛ لئلا يتوهم تخصيص الصديقية بالنبوة " . (١)

والنبي : فعيل بمعنى مفعول ، من أنبأه بالخبر . والمراد هنا أنه منبأ من جانب الله تعالى بالوحي . والأكثر أن يكون النبي مرسلا للتبليغ ، وهو معنى شرعي ، فالنبي فيه حقيقة عرفية فدل ذلك على أن قوله لأبيه ﴿ **يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر** ﴾ إنما كان عن وحي من الله ليبلغ قومه إبطال عبادة الأصنام .

وقرأ الجمهور ﴿ **نبيا** ﴾ – بياء مشددة بتخفيف الهمزة ياء لثقلها ولمناسبة الكسرة – وقرأه نافع وحده (نبيئا) بهمزة آخرة . وبذلك تصير الفاصلة القرآنية على حرف الألف ، ومثل تلك الفاصلة كثير في فواصل القرآن " (٢)

قوله تعالى : ﴿ إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا ﴾ الآية ٤٢ .

يقول المولى عز وجل لنبيه محمد ﷺ أن يخبر قومه بخبر إبراهيم – عليه السلام – وقت أن قال لأبيه آزر متلطفا في الدعوة مستميلا له : يا أبت لماذا تعبد شيئا لا يسمع ولا يبصر لايسمع أي مسموع ولا يبصر أي مبصر ولا يغني عنك شيئا من الإغناء إنه لا

---

(١) انظر تفسير البحر المديد ج ١٦ ص ٣٣٥ . وانظر تفسير أبي السعود ج ٥ ص ٢٦٦ وجامع البيان في تفسير القرآن للإمام الطبري ج ١٦ ص ٦٧ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١١٣ .

ينفعك ولا يضرك فضلا عن أنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا يغنى من أمور الدنيا ولا الآخرة شيئاً .

يقول الإمام الزمخشرى : " انظر حين أراد أن ينصح أباه ويعظه فيما كان متورطا فيه من الخطأ العظيم والارتكاب الشنيع الذى عصا فيه أمر العقلاء وانسلخ عن قضيته التمييز ومن الغباوة التى ليس بعدها غباوة كيف رتب الكلام معه فى أحسن اتساق وساقه أرشق مساق مع استعمال المجاملة واللطف والرفق واللين والأدب الجميل والخلق الحسن منتصحا فى ذلك بنصيحة ربه عز وعلا .

حدثنا أبو هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : " أوحى الله إلى إبراهيم – عليه السلام – إنك خليلى ، حَسن خلقك ولو مع الكفار تدخل مداخل الأبرار ، فإن كلمتى سبقت لمن حسن خلقه أظله تحت عرشى وأسكنه حظيرة القدس وأدنيه من جوارى " (1) وذلك أنه طلب منه أولا العلة فى خطئه طلب منبه على تماديه موقظ لإفراطه وتناهيه ، لأن المعبود لو كان حيا مميزا سميعا بصيرا مقتدار على الثواب والعقاب نافعا ضارا إلا أنه بُعض الخلق ، ولاستخف عقل من أهل غيره للعبادة ووصفه بالربوبية ، ولسجل عليه بالغى المبين والظلم العظيم وإن كان أشرف الخلق وأعلاهم منزلة كالملائكة والنبيين ، – قال الله تعالى : **﴿ ولا يأمركم ان تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾** (2) – وذلك أن العبادة هى غاية التعظيم فلا يحق إلا لمن له غاية الإنعام ؛ وهو الخالق الرازق المحيى المميت المثيب

---

(1) كشف الخفاء ومزيل الألباس عما اشتهر على ألسنة الناس ج ١ ص ٣٠٨ .

(2) سورة آل عمران آية ٨٠ .

المعاقب الذى منه أصول النعم وفروعها ، فإذا وجهت إلى غيره وتعالى علوا كبيرا أن تكون هذه الصفة لغيره لم يكن إلا ظلما وعتـــوا وغيـــا وكفرا وجحودا وخروجا عن الصحيح النير إلى الفاسد المظلـــم ، فمـــا ظنك بمن وجه عبادته إلى جماد ليس به حى ولا شـــعور فـــلا يســـمع ياعابده ذكرك له وثناءك عليه ، ولا يرى هيئات خضوعك وخشـــوعك له ، فضلا أن يغنى عنك بأن تستدفعه بلاء فيدفعه أو تسنح لك حاجـــة فيكفيكها " [1] .

قوله تعالى : ﴿ **إذ قال لأبيه** ﴾ الخ ٠٠ يدل علـــى اشـــتمال مـــن إبراهيم و ﴿ **إذ** ﴾ اسم زمان مجرد عن الظرفية لأن ﴿ **إذ** ﴾ ظـــرف منصرف على التحقيق .

والمعنى : اذكر إبراهيم زمان قوله لأبيه فإن ذلك الوقـــت أجـــدر أوقات إبراهيم بأن يذكر . [2] .

﴿ **لأبيه** ﴾ أى أزر أبو إبراهيم ،

المؤرخون يقولون إن اسم أبى إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ (تارخ) والقرآن أخبرنا أن اسمه (آزر) قال تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيـــه آزر أتتخذ أصناما آلهة إنى آراك وقومك فى ضلال مبين ﴾ [3] .

يقول الإمام ابن كثير [1] : " بعد ما ذكر الآية " هذا يدل علـــى أن اسم أبى إبراهيم آزر وجمهور أهل النسب منهم ابن عباس على أن اسم

---

(١) انظر تفسير الكشاف ج ٢ ص ٥١٠ .

(٢) انظر تفسير التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١١٣ وانظر تفسير أبى السعود ج ٥ ص ٢٦٦ .

(٣) سورة الأنعام الآية ٧٤ .

أبيه تارح وأهل الكتاب يقولون " تارخ " بالخاء المعجمة فقيل إنه لقب بصنم كان يعبده اسمه آزر .

وقال ابن جرير والصواب أن اسمه آزر ولعل له اسمان علمان أو أحدهما لقب والآخر علم .

وهذا الرأى الذى قاله محتمل والله أعلم . "

والواضح أن ابن كثير رجح رأى ابن جرير، وأقول : إن رأى ابن جرير صواب وعند الترجيح لا يمكن أن يكون اسمه الحقيقى تارخ وأن اسم آزر هو اسم صنم فلم يثبت ذلك بأى أدلة وكون القرآن الكريم يخبرنا باسم آزر فعلينا أن نعلم أن اسمه هو الذى سماه به القرآن الكريم وسواء كان اسمه تارخ أو آزر فهذا لا يغير من القصة فى شئ .

وافتتح إبراهيم خطابه أباه بندائه مع أن الحضرة مغنية عن النداء قصداً لإحضار سمعه وذهنه لتلقى ما سيلقيه إليه .

ويقول الإمام شيخ الأزهر : " نادى بهذا الوصف دون أن يذكر[٢] اسمه : زيادة فى احترامه واستمالة قلبه للحق "

ويقول الإمام الزمخشرى : " وصدر كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله يا أبت توسلا إليه واستعطافا[٣] .

قوله : وفى النداء بقوله ﴿ **يا أبت** ﴾ أربع مرات[٤] تكريراً اقتضاه مقام استنزاله إلى قبول الموعظة لأنها مقام إطناب . ونظير ذلك بتكرير

---

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير ج ١ ص ١٣٤ وقصص الأنبياء ج ١ ص ١٢٨ ، ص ١٣٢ .

(٢) التفسير الوسيط م ٩ ص ٤١ .

(٣) الكشاف للزمخشرى ج ٢ ص ٥١١ .

(٤) الآيات رقم ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ من السورة .

لقمان لقوله : ﴿ يابنى ﴾ [١] ثلاث مرات . قال : بخلاف قـول نـوح لابنه ﴿ يابنى اركب معنا ﴾ [٢] مرة واحدة دون تكرير لأن ضيق المقام يقتض الإيجاز وهذا من طريق الإعجاز . [٣] .

قوله تعالى : ﴿ يا أبت ﴾ أى يا أبى فإن التاء عـوض عـن يـاء الإضافة ولذلك لا يجتمعان وقد قيل يا أبتا لكـون الألـف بـدلا مـن الياء . [٤] .

وقال الإمام ابن عاشور : " و ﴿ يا أبت ﴾ : أصله أبى ، حذفـوا باء المتكلم وعوضوا عنها تاء تعويضا على غير قياس ، وهو خـاص بلفظ الأب والأم فى النداء خاصة ، ولعله صيغة باقيـة مـن العربيـة القديمة . ورأى سيبويه أن التاء تصير فى الوقت هاء ، وخالفه الفـراء فقال : ببقائها فى الوقف . والتاء مكسورة فى الغالب لأنها عوض عـن الياء والياء بنت الكسرة ولما كسروها فتحوا الياء وبذلك قرأ الجمهور .

وقرأ ابن عامر ، وأبو جعفر ﴿ يا أبت ﴾ ــ بفتح التاء ــ دون ألف بعدها بناء على أنهم يقولون (يا أبتا) بألف بعد التاء لأن يـاء المتكلم إذا نودى يجوز فتحها وإشباع فتحتها فقرأه علـى اعتبـار حذف الألف تخفيفا وبقاء الفتحة " [٥] .

---

(١) سورة لقمان الآية ١٣ .

(٢) سورة هود آية ٤٢ .

(٣) انظر التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١١٤ .

(٤) انظر تفسير أبى السعود ج ٥ ص ٢٦٦ .

(٥) التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١١٥ وانظر الطبرى ج ١٦ ص ٦٧ ، ص ٦٨ .

ويقول صاحب مجمع البيان : ﴿ يا أبت ﴾ أى يا أبى ودخلت التاء للمبالغة فى تحقيق الإضافة " . [١]

قوله تعالى : **﴿ لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ﴾**

قوله : **﴿ لم تعبد ﴾** الإستفهام هنا مستعمل على حقيقته .

ومكنى به عن نفس العلة المسؤل عنها بقوله : **﴿ لم تعبد ﴾** فهو كناية عن التعجيز عن ابداء المسؤول عنه ، فهو من التورية فى معنيين يحتملهما الإستفهام [٢]

و **﴿ لم تعبد ﴾** أى ثناءك عليه عند عبادتك له وجوارك إليه وخضوعك وخشوعك بين يديه أى أنه لا يسمعك ولا يبصرك فلا فائدة من هذه العبادة أو لا يسمع ولا يبصر على الإطلاق كل المسموعات وكل المبصرات فيدخل فى ذلك دعائك وخشوعك دخولاً أولياً .

ثم سلب من هذا المعبود القدرة على الضر والنفع فقال تعالى :
﴿ ولا يغنى عنك شيئا ﴾ أى لا يقدر على أن يغنى عنك شيئا، ونكر شيئا ليتبين عدم الإغناء فى الكثير والقليل ، لا يكفيك فلا ينفعك ولا يضرك .

يقول الإمام الزمخشرى : " **﴿ ما ﴾** فى ما لا يسمع وما لم يأتك يجوز أن تكون موصولة وموصوفة ، والمفعول فى لا يسمع ولا يبصر منسىّ غير منوى كقولك ليس به استماع ولا إبصار **﴿ شيئا ﴾** يحتمل وجهين : أحدهما أن يكون فى موضع المصدر أى شيئا من الإغناء ، ويجوز أن يقدر نحوه على الفعلين السابقين .

---

(١) مجمع البيان للطبرسى ج ١٦ ص ٤١ .

(٢) التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١١٤ .

والثانى : أن يكون مفعولا به من قولهم أغنى عن وجهك . [1]

يقول الإمام الشيخ سيد قطب : " بهذا اللطف فى الخطاب يتوجه إبراهيم — عليه السلام — إلى أبيه ، يحاول أن يهديه إلى الخير الذى أهداه الله إليه وعلمه إياه ، وهو يتحبب إليه فيخاطبه ﴿ **يا أبت** ﴾ ويسأله : ﴿ **لم تعبد ما لايسمع ولايبصر ولا يغنى عنك شيئا** ﴾ والأصل فى العبادة أن يتوجه بها الإنسان إلى من هو أعلى من الإنسان وأعلم وأقوى . وأن يرفعها إلى مقام أسمى من مقام الإنسان وأسنى . فكيف يتوجه بها إذاً إلى من هو دون الإنسان ، بل إلى ما هو فى مرتبة أدنى من مرتبة الحيوان لا يسمع ولا يبصر ولا يملك ضراً ولا نفعا . إذ كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام كما هو حال قريش الذى يواجههم الإسلام ... وليس هناك غضاضة فى أن يتبع الوالد ولده إذ كان الولد على إتصال بمصدر أعلى فإنما يتبع ذلك المصدر ويسير فى الطريق إلى الهدى [2] .

قال تعالى : ﴿ **يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا** ﴾

وبعد اللمسة الأولى التى بدأ بها إبراهيم دعوته لأبيه تبعها بأنه لا يقول هذا من نفسه ، إنما هو العلم الذى جاءه من الله فهداه . ويأمره باتباعه فى طريق الهدى والحق .

يقول الإمام المراغى : " أى يا أبى إنى وإن كنت من صلبك ، وترانى أصغر منك لأنى ولدك ، فاعلم أنى قد اطلعت من العلم على ما

---

(١) تفسير الإمام الزمخشرى ج ٢ ص ٥١١ .

(٢) تفسير الإمام سيد قطب ج ١٦ ص ٢٣١١ .

لم تعلمه أنت ولا اطلعت عليه ، فاتبعنى أهدك طريقا مستقيما لا زيغ فيه ، يوصلك إلى نيل المطلوب ، وينجيك من كل مرهوب .

وفى قوله : ﴿ إنى قد جاءنى ﴾ إيماء إلى أن هذه المحاورة كانت بعد أن نبئ ، ولم يعين ما جاءه ليشمل كل ما يوصله إلى الجنة ونعيمها ، ويبعد به عن النار وعذابها " (١)

قال الإمام ابن عجيبة : " ثم دعاه إلى اتباعه ؛ لأنه على المنهاج القويم ، مصدراً للدعوة بما مر من الاستعطاف والاستمالة حيث قال : **﴿ يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك ﴾** ، لم يسم أباه بالجهل المفرط ، وإن كان فى أقصاه ، ولا نفسه بالعلم الفائق ، وإن كان فى أعلاه ، بل أبز نفسه فى صورة رفيق له ، أعرف بأحوال ما سلكه من الطريق ، فاستمالة برفق ، حيث قال : **﴿ فاتبعنى أهدك صراطا مستقيما ﴾** أى : مستقيما موصلا إلى أسمى المطالب ، منجيا من الضلال المؤدى إلى مهاوى الردى والمعاطب " (٢)

وأن آزر كان يرى نفسه على علم عظيم لأنه كان كبير ديانة قومه . وأراد إبراهيم علم الوحى والنبوة .

وتفريع أمره بأن يتبعه على الإخبار بما عنده من العلم دليل على أن أحقية العالم بأن يتبع مركوزه فى غزيرة العقول لم يزل البشر يتقصون مظان المَعرفة والعلم لجلب ما ينفع واتقاء ما يضر ، قال تعالى : **﴿ فاسألو أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾** (٣) .

---

(١) انظر تفسير المراغى ج ١٦ ص ٥٦ .

(٢) تفسير البحر المديد ج ١٦ ص ٣٣٥ ، ص ٣٣٦ .

(٣) سورة النحل آية ٤٣ .

وفى قوله : ﴿ **أهدك صراط سويا** ﴾ استعارة مكنية ، شبه إبراهيم بهادى الطريق البصير بالثنايا ، وإثبات الصراط السوى قرينة التشبيه ، وهو أيضا استعارة مصرحة بأن شبه الاعتقاد الموصل إلى الحق والنجاة بالطريق المستقيم المبلغ إلى المقصود " . (١)

قال تعالى : ﴿ **يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا * يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا** ﴾ الآية ٤٤ ، ٤٥ .

وبعد هذا الكشف فى عبادة الأصنام من نكارة وبيان أن إبراهيم يدعوا أباه عن علم مصدره الوحى فهو علم من عند الخالق الواهب للنعم وأن طريقه هو الطريق المستقيم يبين لأبيه أنه يتبع طريق الشيطان وهو يريد أن يهديه إلى طريق الرحمن والشيطان هو الذى يغرى بعبادة الأصنام من دون الله .

ونبى الله إبراهيم يحذر أباه أن يكون تابعا للشيطان فيعاقبه الله فولاية الشيطان نقمة تقوده إلى العذاب الشديد .

يقول الإمام الزمخشرى : " ثم ثلث بتثبيطه ونهيه عما كان عليه بأن الشيطان الذى استعصى على ربك الرحمن الذى جميع ما عندك من النعم من عنده وهو عدول الذى لا يريد بك إلا كل هلاك وخزى ونكال وعدوّ أبيك آدم وأبناء جنسك كلهم ، هو الذى ورطك فى هذه الضلالة وأمرك بها وزينها لك ، فأنت إن حققت النظر عابد الشيطان ، إلا أن إبراهيم عليه السلام لإمعانه فى الإخلاص ولارتقاء همته فى الربانية لم

(١) انظر التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١١٥ ، ص ١١٦ .

يذكر من جنايتى الشيطان إلا التى تختص منهما برب العزة من عصيانه واستكباره ، ولم يلتفت إلى ذكر معاداته لآدم وذريته ، كأن النظر في عظم ما ارتكب من ذلك عمر فكره وأطبق على ذهنه . ثم ربع بتخويفه سوء العاقبة وبما يجرّه ما هو فيه من التبعة والوبال ولم يخل ذلك من حسن الأدب حيث لم يصرح بأن العقاب لا حق له وأن العذاب لاصق به ولكنه قال : أخاف أن يمسك عذاب ، فذكر الخوف والمس ونكر العذاب ، وجعل ولاية الشيطان ودخوله فى جملة أشياعه وأولياءه أكبر من العذاب ، وذلك أن رضوان الله من الثواب نفسه وسماه الله تعالى المشهود له بالفوز العظيم ــ حيث قال : ﴿ **ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم** ﴾ ، فكذلك ولاية الشيطان التى هى معارضة رضوان الله أكبر من العذاب نفسه وأعظم " (١)

قوله تعالى : ﴿ **يا أبت لا تعبد الشيطان** ﴾ إعادة النداء لزيادة تأكيد ما أفاده النداء الأول والثانى .

والمراد بعبادة الشيطان عبادة الأصنام ؛ عبر عنها بعبادة الشيطان إفصاحا عن فسادها وضلالها ، فإن نسبة الضلال والفساد إلى الشيطان مقررة فى نفوس البشر ، ولكن الذين يتبعونه لا يفطنون إلى حالهم ويتبعون وساوسه تحت ستار التمويه مثل قولهم : ﴿ **إنا وجدنا أباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون** ﴾ (٢) ، ففى الكلام إيجاز لأن معناه : لا تعبد الأصنام لأن اتخاذه من تسويل للذين سنوا سنن

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشرى ج ٢ ص ٥١١ .
(٢) سورة الزخرف آية ٢٢ .

عبادتها ، ومن وساوسه للناس الذين أطاعوهم فى عبادتها ، فمن عبد الأصنام فقد عبد الشيطان وكفى بذلك ضلالاً معلوما .

وهذا كقوله تعالى : ﴿ **وإن يدعون إلا شيطانا مريدا** ﴾ (١) .. وفى هذا تبغيض لعبادة الأصنام ، لأن فى قرارة نفوس الناس بغض الشيطان والحذر من كيده " (٢) .

ويقول الإمام المراغى : " لا تطع الشيطان فى عبادة هذه الأصنام ، فإنه هو الداعى إلى عبادتها والموسوس بها .

ونحو الآية قوله : ﴿ **ألم أعهد إليكم يابنى آدم ألا تعبدو الشيطان إنه لكم عدو مبين** ﴾ (٣) **وقوله** : ﴿ **إن يدعون من دونه إلا إناثا وإن يدعون إلا شيطانا مريدا** ﴾ (٤) " (٥) .

قوله تعالى : ﴿ **إن الشيطان كان للرحمن عصيا** ﴾

والمعنى أن الشيطان عاص مستكبر فوقعت الجملة تعليلا للنهى عن عبادة الأصنام .

يقول الإمام ابن عاشور : " وذكر وصف ﴿ **عصيا** ﴾ الذى هو من صيغ المبالغة فى العصيان مع زيادة فعل ﴿ **كان** ﴾ للدلالة على أنه لا يفارق عصيان ربه وأنه متمكن منه ، فلا جرم انه لا يأمر إلا بما ينافى الرحمة ، أى بما يفض إلى النقمة ، ولذلك اختير وصف الرحمن من

---

(١) سورة النساء آية ١١٧ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١١٦ .

(٣) سورة يس آية ٦٠ .

(٤) سورة النساء آية ١١٧ .

(٥) انظر تفسير الإمام المراغى ج ١٦ ص ٥٦ .

بين صفات الله تعالى تنبيها على أن عبادة الأصنام توجب غضب الله فتفض إلى الحرمان من رحمته ، فمن كان هذا حاله فهو جدير بأن لا يتبع " [1] .

وقال الإمام أبو السعود : " والتعرض لعنوان الرحمانية لإظهار كمال شناعة عصيانه " . [2]

وأكد المفسرون أن قوله تعالى : ﴿ **إن الشيطان كان للرحمن عصيا** ﴾ **تعليل لموجب النهى** وتأكيد له ببيان أنه مستعص على ربك ، الذى أنعم عليك بفنون النعم وسينتقم منه فكيف تعبده ؟

وإظهار اسم الشيطان فى مقام الإضمار ، إذ لم يقل : إنه كان للرحمن عصيا . لزيادة التقرير السابق والتنفير من الشيطان ، لأن فى ذكر صريح اسمه تنبيها إلى النفرة منه ولتكون الجملة موعظة قائمة بنفسها . [3]

و ﴿ **عصيا** ﴾ العصى هو " ذو العصيان كما العليم ذو العلم وقد قال قوم من أهل العربية العصى هو العاصى ، والعليم هو العالم والعريف هو العارف واستشهدوا لقولهم ذلك بقول طريف بن تميم العنبرى .

أو كلما وردت عكاظ قبيلة بعثوا إلىّ عريفهم يتوسم ، وقالوا قال عريفهم وهو يريد عارفهم والله أعلم " . [4]

---

(١) انظر تفسير التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١١٧ .

(٢) انظر تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ج ٥ ص ٢٦٦ .

(٣) انظر تفسير ابن عاشور ج ١٦ ص ١١٧ وتفسير البحر المديد ج ٦ ص ٣٣٦ .

(٤) انظر جامع البيان فى تفسير القرآن للإمام الطبرى ج ١٦ ص ٦٨ .

ثم حذر إبراهيم عليه السلام أبوه من سوء عاقبة ما هو فيه من عبادة الأصنام فقال عز من قائل : ﴿ **يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا** ﴾ .

يقول الشيخ : " ختم هذا النداء بما يدل على حبه له ، وشفقته عليه فقال : يا أبت إنى أشفق عليك من أن ينزل بك عذاب من الرحمن بسبب إصرارك على عبادة غيره وبذلك تصبح قرينا للشيطان فى العذاب بالنار ، لأنك انقدت له ، وخالفت طريق الحق . " (١)

قال مقاتل : فى الآخرة ؛ وقال غيره : فى الدنيا ، ﴿ **فتكون للشيطان وليا** ﴾ أى : قريبا فى عذاب الله ، فجرت المقارنة مجرى الموالاة .

وقيل : إنما طمع إبراهيم فى إيمان أبيه ، لأنه حين خرج من النار قال له : نعم الإله إلهك يا إبراهيم ، فحينئذ أقبل يعظه " (٢)

قال الإمام أبوالسعود : الآية " تحذير من سوء عاقبة من كان عليه من عبادة الشيطان وهو ابتلاؤه بما ابتلى به معبوده من العذاب الفظيع وكلمة من متعلقة بمضمر وقع صفة للعذاب مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية وإظهار الرحمن للإشعار بأن وصف الرحمانية لايدفع حلول العذاب كما فى قوله عز وجل : ﴿ **ما غرك بربك الكريم** ﴾ (٣) . " (٤)

---

(١) التفسير الوسيط م ٩ ص ٤٢ .

(٢) انظر زاد المسير فى علم التفسير ج ٥ ص ١٦٦ .

(٣) سورة الإنفطار آية ٦ .

(٤) انظر تفسير أبى السعود ج ٥ ص ٢٦٧ .

﴿ **أخاف** ﴾ بمعنى أعلم . ويجوز أن يكون ﴿ **أخاف** ﴾ على بابها فيكون المعنى : إنى أخاف أن تموت على كفرك فيمسك العذاب .

يقول يا أبت إنى أعلم أنك إن مت على عبادة الشيطان أنه يمسك عذاب من عذاب الله فتكون للشيطان وليا [1] .

يقولا الشيخ ابن عاشور : " والتعبير بالخوف الدال على الظن دون القطع تأدب مع الله بأن لا يثبت أمراً فيما هو من تصرف الله ، وإبقاء للرجاء فى نفس أبيه لينظر فى التخلص من ذلك العذاب بالإقلاع عن عبادة الأوثان .

والولى : الصاحب والتابع ومن حالهما حال واحدة وأمرهما جميع ، فكنى بالولاية عن المقارنة فى المصير " [2]

ويقول الشيخ الطبرسى : " ﴿ **فتكون للشيطان وليا** ﴾ أى فتكون موكولا إلى الشيطان وهو لا يغنى عنك شيئا .. عن الجبائى ، وقيل معناه فتكون لاحقا بالشيطان باللعن والخذلان واللاحق يسمى التالى والذى يتلوا الشئ والذى يليه سواء .. عن أبى مسلم ، وقيل فتكون له قرينا فى النار ، وقيل معناه فيكون الشيطان ولى نصرتك ، ولم يقل فيكون الشيطان وليك لأنه أبلغ فى الفصاحة ، وإنما أراد زجره عن مولاة الشيطان لا تحقيق النصرة يعنى إذا لم يكن لك ألا نصرته فأنت مخزول لا ناصر لك . " [3]

---

(١) انظر تفسير الإمام القرطبى ج ١١ ص ١١١ وتفسير الإمام الطبرى ج ١٦ ص ٦٨ .

(٢) انظر التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١١٨ .

(٣) مجمع البيان فى تفسير القرآن ج ١٦ ص ٤٢ .

كان نبى الله إبراهيم ــ عليه السلام ــ فى غاية الأدب فى دعــــوة أبيه رغم إصراره على عبادة الأصنام والإبتعاد عن طريق الحق .

يقول الإمام ابن عجيبة : " فهذه موعظة الخليـــل لأبيـــه ، وقـــد استعمل معه الأدب من خمسة أوجه :

الأول : ندائه : بيا أبت ، ولم يقل يا آزر ، أو يا أبى .

الثانى : قوله : ﴿ **ما لا يسمع ...** ﴾ الخ ولم يقل : لم تعبد الخشـــب والحجر .

الثالث : قوله : ﴿ **إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك** ﴾ ، ولم يقل لـــه : إنك جاهل ضال .

الرابع : قوله : ﴿ **إنى أخاف** ﴾ حيث عبر له بالخوف ولم يجـــزم لـــه بالعذاب .

الخامس : قوله : ﴿ **أن يمسسك** ﴾ حيث عير بالمس ولم يعبر باللحوق أو النزول . " (١)

قال تعالى : ﴿ **قال أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم لئن لم تنتــه لأرجمنك واهجرنى مليا** ﴾ الآية ٤٦ .

فى الآيات السابقة قدم الإبن المؤمن إبراهيم ــ عليـــه الســـلام ــ لأبيه مجموعة من النصائح الحكيمة ، حيث قدمها برقة وحـــب وأدب ، ولكن لم تقابل هذه النصائح بالإزعان والقبول ، بل قوبلـــت بالفظاظـــة والغلظة والعناد والاستكبار والجهالة شأن القلب الذى أغلقه الكفر عـــن الازعان للإيمان ، قوبلت بالاستنكار والتهديد والوعيد .

---

(١) انظر تفسير البحر المديد ج ١٦ ص ٣٣٦ .

قال الشيخ المراغى : " وقد قابل الأب رفق الإبن بالعنف فلم يقل يابنى كما قال الإبن يا أبت ، وقابل وعظه بالسفاهة إذ هدده بالشتم أو بالضرب بالحجارة " (١)

قوله تعالى : ﴿ **قال** ﴾ " استئناف مبنى على سؤال نشأ من صدر الكلام كأنه قيل : فماذا قال أبوه عندما سمع منه ــ عليه السلام ــ هذه النصائح الواجبة القبول ؟

فقيل : قال : مصراً على عناده ﴿ **أراغب أنت عن آلهتي ..** ﴾ (٢)

قال الإمام ابن عاشور : " والاستفهام للإنكار ، إنكاراً لتجافى إبراهيم عن عبادة الأصنام .

وإضافة الألهة إلى ضمير نفسه إضافة ولاية وانتساب إلى المضاف لقصد تشريف المضاف إليه .

وجملة ﴿ **أراغب أنت** ﴾ جملة اسمية مركبة من مبتدأ وفاعل سد مسد الخبر على اصطلاح النحاة طرد القواعد التركيب اللفظى ، ولكنهم لما اعتبروا الاسم الواقع ثانيا بعد الوصف فاعلا سادا مسد الخبر فقد أثبتوا لذلك الاسم حكم المسند إليه وصار للوصف المبتدأ حكم المسند . فمن أجل ذلك كان المصير إلى مثل هذا النظم فى نظر البلغاء هو مقتضى كون المقام يتطلب جملة اسمية للدلالة على ثبات المسند إليه ، ويتطلب الاهتمام بالوصف دون الاسم لغرض يوجب الاهتمام به ، فيلتجئ البليغ إلى الإتيان بالوصف أولا والإتيان بالاسم ثانيا .

---

(١) انظر تفسير المراغى ج ١٦ ص ٥٧ .

(٢) انظر تفسير الإمام أبى السعود ج ٥ ص ٢٦٨ .

ولما كان الوصف له عملٌ فعله تعين على النحاة اعتبار الوصف مبتدأ لأن للمبتدأ أعرافه فى الأسماء ، واعتباره مع ذلك متطلبا فاعلا ، وجعلوا فاعله سادا مسد الخبر ، فصار للتركيب شبهان . والتحقيق أنه فى قوة خبر مقدم ومبتدأ مؤخر .

ولهذا نظر الزمخشرى فى الكشاف [١] : " إلى هذا المقصد فقال : " قُدم الخبر على المبتدا فى قوله : ﴿ **أراغب أنت عن آلهتى** ﴾ لأنه كان أهم عنده وهو به أعنى ...

فدل النظم فى الآية على أن أبا إبراهيم ينكر على إبراهيم تمكن الرغبة عن آلهتهم من نفسه ، ويهتم بأمر الرغبة عن الآلهة لأنها موضع عجب . " [٢]

قوله تعالى : ﴿ **أراغب** ﴾ أى معرض وزاهد وتارك والمعنى أمعرض ومنصرف وزاهد أنت عنها .

وقال الإمام أبو السعود : " وجه الإنكار إلى نفس الرغبة مما لا يصدر عن العاقل فضلا عن ترغيب الغير منها " . [٣]

قوله تعالى : ﴿ **عن آلهتى يا إبراهيم** ﴾ أى عن عبادة الأصنام وناداه باسمه ولم يقل يا بنى لغلظة قلبه وبعده عن الرفق والأبوة بسبب جهالة الكفر .

---

(١) الكشاف للإمام الزمخشرى ج ٢ ص ٥١١ .

(٢) انظر التحرير والتنوير للإمام ابن عاشور ج ٦ ص ١١٨ ، ص ١١٩ .

(٣) تفسير الإمام أبى السعود ج ٥ ص ٢٦٨ ، البحر المديد ج ١٦ ص ٣٣٧ ، مجمع البيان ج ١٦ ص ٤٢ ، زاد المسير ج ٥ ص ١٦٦ .

والنداء فى قوله : ﴿ **يا إبراهيم** ﴾ تكملة لجملة الإنكار والتعجب ، لأن المتعجب من فعله مع حضوره بندائه تنبيهه على سوء فعله ، كأنه فى غيبة من إدراك فعله ، فالمتكلم ينزله منزلة الغائب فيناديه لإرجاع رشده إليه . فينبغى الوقف على قوله ﴿ **يا إبراهيم** ﴾ " [1]

ثم تبين لنا الآية كيف قابل الأب الكافر كلام ابنه قابله بالتهديد والتحذير عما كان عليه من العظة والتذكير فقال : ﴿ **لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا** ﴾ .

يقول الإمام ابن عاشور : " وجملة ﴿ **لئن لم تنته لأرجمنك** ﴾ مستأنفة . واللام موطئة القسم تأكيدا لكونه راجمه إن لم ينته عن كفره بآلهتهم .

والرجم : الرمى بالحجارة ، وهو كناية مشهورة فى معنى القتل بذلك الرمى .

وإسناد أبى إبراهيم ذلك إلى نفسه يحتمل الحقيقة ؛ إما لأنه كان من عاداتهم أن الوالد يتحكم فى عقوبة ابنه ، وإما لأنه كان حاكما فى قومه .

ويحتمل المجاز العقلى إذ لعله كان كبيرا فى دينهم فيرجم قومه إبراهيم استنادا لحكمه بمروقه عن دينهم " [2]

قوله: ﴿ لأرجمنك ﴾ وفيه قولان :

أحدهما : بالشتم والقول ، قاله ابن عباس ومجاهد .

---

(١) انظر التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١١٩ .

(٢) التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١١٩ ، ١٢٠ .

والثانى : بالحجارة حتى تتباعد عنى ، قاله الحسن . " (١)

وذكر الإمام الطبرسى نفس المعنى فقال : " ﴿ **لأرجمنك** ﴾ بالحجارة .. عن الحسن والجبائى وقيل لأرمينك بالذنب والعيب واشتمنك عن السدى وابن جريج وقيل معناه لأقتلنك . " (٢)

والمعنى : والله لئن لم تنته يا إبراهيم عن سب آلهتنا وعما كنت عليه من النهى عن عبادتها لأرجمنك بالحجارة أو بالسب واللعن باللسان .

قوله تعالى : ﴿ **واهجرنى مليا** ﴾ الهجر : قطع المكالمة وقطع المعاشرة وإنما أمر أبو إبراهيم ابنه بهجرانه ولم يخبره بأنه هو يهجره ليدل على أن هذا الهجران فى معنى الطرد والخلع إشعاراً بتحقيره .

قال الإمام أبو الفرج ابن الجوزى إن قوله تعالى : ﴿ **واهجرنى مليا** ﴾ فيه قولان :

أحدهما : اهجرنى طويلا ، رواه ميمون بن مهران عن ابن عباس وبه قال الحسن ، والفراء والأكثرون . قال ابن قتيبة : اهجرنى حينا طويلا ، ومنه يقال : تمليت حبيبك .

والثانى : اجتنبنى سالما قبل أن تصيبك عقوبتى ، رواه العوفى عن ابن عباس ، وبه قال قتادة ، والضحاك ؛ فعلى هذا يكون من قولهم : فلان ملىٍ بكذا وكذا . إذا كان مضطلعا به ، فالمعنى : اهجرنى وعوضك وافر ، وأنت سليم من أذاى ، قاله ابن جرير ...

---

(١) زاد المسير فى علم التفسير ج ٥ ص ١١٦ .

(٢) تفسير مجمع البيان ج ١٦ ص ٤٢ .

وقوله تعالى : ﴿ مليا ﴾ أى دهراً طويلاً ·· عن الحسن ومجـــاهد وسعيد بن جبير والسدى ، وقيل مليا سويا سليما عن عقوبتى ·· عـــن ابن عباس وقتادة وعطاء والضحاك ، من قولهم فلان ملى بهذا الأمر إذا كان كاملاً فيه مضطلعا به " . (١)

وفى الآية تسلية لرسول الله ﷺ قال الإمام الزمخشرى : " وفـــى هذا سلوان وثلج لصدر رسول الله ﷺ عما كان يلقى من مثل ذلك مـــن كفار قومه . " (٢)

وفى هذه الآية يقول الإمام سيد قطب : " ولكن هذه الدعوة اللطيفـة بأحب الألفاظ وأرقها لا تصل إلى القلب المشرك الجاسى ، فـــإذا أبـــو إبراهيم يقابله بالاستنكار والتهديد والوعيد : قال : **﴿ أراغب أنت عـــن آلهتى يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا ﴾** .

أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم ، وكاره لعبادتها ومعرض عنها ؟ أو بلغ بك الأمر إلى هذا الحد من الجرأة ؟ ! فهذا إنذار لـــك بـــالموت الفظيع إن أنت أصررت على هذا الموقف الشنيع : **﴿ لئـــن لـــم تنتـــه لأرجمنك ﴾** ! فاغرب عن وجهى وابعد عنى طويلا . استبقاء لحيـــاتك إن كنت تريد النجاة :**﴿ واهجرنى مليا ﴾** ··

بهذه الجهالة تلقى الرجل الدعوة إلى الهدى . وبهذه القسوة قـــابل القول المؤدب المهذب . وذلك شأن الإيمان مع الكفر ؛ وشـــأن القلـــب الذى هذبه الإيمان والقلب الذى أفسده الكفر " (٣)

---

(١) انظر زاد المسير فى علم التفسير ج ٥ ص ١٦٦ ، مجمع البيان ج ١٦ ص ٤٣ .

(٢) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٥١١ .

(٣) انظر فى ظلال القرآن ج ١٦ ص ٢٣١٢.

قال تعالى : ﴿ **قال سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا** ﴾ الآية ٤٧ .

لم يغضب سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ بل قابل قساوة أبيه بالحلم والأدب ولم يفقد بره لأبيه فقال : ﴿ **قال سلام عليك** ﴾ أى لاجدال ولا أذى بل الأمان لك .

﴿ **سأستغفر لك ربى** ﴾ سأدعو الله أن يغفر لك فلا يعاقبك ويهديك للإيمان .

﴿ **إنه كان بى حفيا** ﴾ وقد عودنى ربى أن يكرمنى فيجيب دعائى .

قوله تعالى : ﴿ **قال سلام عليك** ﴾ ﴿ **قال** ﴾ أى إبراهيم ـ عليه السلام ـ والسلام : السلامة ، والأمن وهى كلمة تحية وإكرام .

و ﴿ **على** ﴾ للإستعلاء المجازى وهو التمكن .

قال الإمام الطبرسى : " ﴿ **قال** ﴾ إبراهيم ﴿ **سلام عليك** ﴾ سلام توديع وهجر على ألف الوجوه وهو سلام متاركة ومباعدة عنه : عن الجبائى وأبى مسلم ، وقيل هذا سلام إكرام وبر فقابل جفوة أبيه بالبر تأدبة لحق الأبوة أى هجرتك على وجه جميل من غير عقوق . " (١)

قوله تعالى : ﴿ **سأستغفر لك ربى** ﴾ أظهر سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ حرصه على هداه ، وطلب المغفرة من الله لأبيه ، المغفرة من هذا الكفر ، بأن يهديه الله إلى التوحيد .

---

(١) انظر مجمع البيان ج ١٦ ص ٤٣ ، تفسير أبى السعود ج ٥ ص ٢٦٨ ، تفسير التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١٢١ .

يقول الإمام ابن عاشور : " وجملة ﴿ **سأستغفر لك ربى** ﴾ مستأنفة ، وعلامة الاستقبال والفعل المضارع مؤذنان بأنه يكرر الإستغفار فى المستقبل . " (١)

والمراد بالاستغفار فى الآية فيه قولان :

الأول : أستدعيه أن يغفر لك .

والثانى : يوفقك للتوبة .

وفى جواز الاستغفار للكافر قولين :

الأول : جوازه قبل أن يتبين أنه سيموت على الكفر .

الثانى : أنه محظور أى محظور استدعاء المغفرة مع بيان شقائه بالوحى . (٢)

يقول الإمام الزمخشرى : " فإن قلت : كيف جاز له أن يستغفر للكافر وان بعده ذلك ؟ قلت : قالوا أراد اشتراط التوبة عن الكفر كما ترد الأوامر والنواهى الشرعية على الكفار والمراد اشتراط الإيمان ، وكما يؤمر المحدث والفقير بالصلاة والزكاة ويراد اشتراط الوضوء والنصاب ، وقالوا : إنما يستغفر له بقوله : ﴿ **واغفر لأبى إنه كان من الضالين** ﴾ (٣) لأنه وعده أن يؤمن ، واستشهدوا عليه بقوله تعالى : ﴿ **وما كان إستغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه** ﴾ (٤) .

---

(١) انظر التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١٢١ .

(٢) انظر البحر المديد ج ١٦ ص ٣٣٨ ، ومجمع البيان ج ١٦ ص ٤٣ ، زاد المسير ج ٥ ص ١٦٦ .

(٣) سورة الشعراء آية ٨٦ .

(٤) سورة التوبة آية ١١٤ .

ولقائل أن يقول : الذى منع من الاستغفار للكافر إنما هو السمع ، فأما القضية العقلية فلا تأباه ، فيجوز أن يكون الوعد بالاستغفار والوفاء به قبل ورود السمع بناء على قضية العقل ، والذى يدل على صحته قوله تعالى : ﴿ **إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك** ﴾ فلو كان شارطا للإيمان لم يكن مستنكرا ومستثنى عما وجبت فيه الأسوة وأما عن موعدة وعدها إياه فالواعد هو إبراهيم لا آزر : أى ما قال : واغفر لأبى إلا عن قوله ﴿ **لأستغفرن لك** ﴾ وتشهد له قراءة حماد الراوية وعدها أياه **والله أعلم** " (١)

وقد ذكر أحمد بن المنير اعتراضا على الكشاف مؤداه أن رأى الزمخشرى هذا يعد رأيا اعتزاليا فقال : " وهذه لمظ من الاعتزال مستطيرة من شرر شرّ قاعدة التحسين والتقبيح . والحق أن العقل لا مدخل له فى أن يحكم الله تعالى قبل ورود الشرع به ، ثم لم يوف الزمخشرى بها ، فإنه جعل العقل يسوّغ الاستغفار وجعل الشرع مانعا منه ، ولا يتصور هذا على قاعدتهم المهدّمة ، كما لا يتصور ورود الشرع بما يخالف العقل فى الإلهيات ؛ وأما ما يظهر العقل خلافه فلا . (٢)

والواقع أن الإمام أحمد بن المنير اعتبر المسألة مسألة سمعية فقط مع أن معظم المفسرين قالوا يجوز الاستغفار عقلا قبل ورود النهى .

وهاهو نموذج مما قاله المفسرون فقد قال الإمام أبو السعود : ﴿ **سأستغفر لك ربى** ﴾ أى استدعيه أن يغفر لك بأن يوفقك للتوبة ويهديك إلى الإيمان كما يلوح به تعليل قوله تعالى : ﴿ **واغفر لأبى** ﴾

---

(١) انظر الكشاف للإمام الزمخشرى ج ٢ ص ٥١٢ .

(٢) انظر رأى ابن المنير على قول الومخشرى فى الكشاف ج ٢ ص ٥١٢ .

بقوله تعالى : ﴿ **إنه كان من الضالين** ﴾ والاستغفار بهذا المعنى للكافر قبل تبين أنه يموت على الكفر مما لا ريب فى جوازه وإنما المحظور استدعاء المغفرة له مع بقائه على الكفر فإنه مما لا مساغ له عقلا ولا نقلا وأما الاستغفار له بعد موته على الكفر فلا تأباه قضية العقل وإنما الذى يمنعه السمع ألا يرى إلى أنه ﷺ : قال لعمه أبى طالب لا أزال استغفر لك ما لم أنه عنه فنزل قوله تعالى : ﴿ **ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين** ... ﴾ الآية (١) .

والإشتباه فى أن هذا الوعد من إبراهيم – عليه السلام – وكذا قوله : ﴿ **لأستغفرن لك** ﴾ وما ترتب عليها من قوله : ﴿ **واغفر لأبى** ﴾ الآية إنما كان من قبل انقطاع رجائه عن إيمانه لعدم تبين أمره لقوله تعالى : ﴿ **فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه** ﴾ (١)

واستثناؤه عما يؤتسى به فى قوله تعالى : ﴿ **إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك** ﴾ لا يقدح فى جوازه لكن لا لأن ذلك كان قبل ورود النهى أو لموعدة وعدها إياه كما قيل إن النهى إنما ورد فى شأن الاستغفار بعد تبين الأمر وقد كان استغفاره – عليه السلام – قبل التبين فلم يتناوله النهى أصلا وأن الوعد بالمحظور لا يرفع خطره بل لأن المراد بما يؤتسى به ما يجب الائتساء به حتما لورود الوعيد على الإعراض عنه بقوله تعالى : ﴿ **لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد** ﴾ (٢) فاستثناؤه عن ذلك إنما يفيد عدم وجوب استدعاء الإيمان للكافر المرجو

---

(١) سورة التوبة آية ١١٤ .

(٢) سورة الممتحنة آية ٦ .

إيمانه لا سيما وقد انقطع ذلك عند ورود الاستثناء وذلك مما لا يتردد فيه أحد من العقلاء وأما عدم جوازه قبل تبين الأمر فلا دلالة للاستثناء عليه قطعا وتوجيه الاستثناء إلى العدة بالاستغفار لا إلى نفس الاستغفار بقوله ﴿ **واغفر لأبى** ﴾ الآية لأنها كانت هى الحاملة له ـ عليه السلام ـ عليه وتخصيص تلك العدة بالذكر دون ما وقع ههنا لورودها على نهج التأكيد القسمى وإما جُعل الاستغفار دائراً عليها (١)

يقول الإمام ابن كثير : " وقد استغفر إبراهيم ﷺ لأبيه مدة طويلة وبعد أن هاجر إلى الشام وبنى المسجد الحرام وبعد أن ولد له إسماعيل وإسحاق عليهما السلام فى قوله ﴿ **ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب** ﴾ وقد استغفر المسلمون لقرابتهم وأهليهم من المشركين فى ابتداء الإسلام وذلك اقتداء بإبراهيم الخليل فى ذلك حتى أنزل الله تعالى ﴿ **قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله** ﴾ إلى قوله: ﴿ **إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شئ** ﴾ الآية (٢) ، يعنى إلا فى هذا القول فلا تتأسوا به ، ثم بين تعالى أن إبراهيم أقلع عن ذلك ورجع عنه فقال تعالى : ﴿ **ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين** ﴾ **إلى قوله** ﴿ **وما كان استغفار إبراهيم**

---

(١) تفسير أبى السعود ج ٥ ص ٢٦٨ . وانظر نفس المعنى فى البحر المديد ج ١٦ ص ٣٣٨ .

(٢) الآية (٤) من سورة الممتحنة .

لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو الله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم ﴾ (١)

قوله تعالى : **﴿ إنه كان بى حفيا ﴾**

ومعنى **﴿ حفيا ﴾** باراً بى ، كثير الإحسان لى ، يقال فلان حفى بفلان حفاوة ، إذا بالغ فى إكرامه ، واهتم بشأنه " يقال : " (تحَفَّيتُ) بفلان فى المسألة إذا سألت به سؤالا أظهرت فيه المحبة والبر ، ... وقوله تعالى **﴿ إنه كان بى حفيا ﴾** معناه كان بى معنيا ، وقال الفراء : معناه كان بى عالما لطيفا يجيب دعوتى إذا دعوته .

ويقال : تحفَّى فلان معناه أنه أظهر العناية فى سؤاله إياه .

يقال : فلان بى حفِيٌّ إذا كان معنيا " (٢)

وجاء فى زاد المسير : قوله تعالى : **﴿ إنه كان بى حفيا ﴾** فيه ثلاثة أقوال :

أحدهما : لطيفا ، رواه ابن أبى طلحة عن ابن عباس ، وبه قال ابن زيد ، والزجاج .

والثانى : رحيماً ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثالث : باراً عودنى منه الإجابة إذا دعوته ، قاله ابن قتيبة " (٣)

وذكر نفس المعنى الشيخ الطبرسى وقال : " إن الله عودنى إحسانه وكان لى مكرما وقيل كان عالما بى وبما ابتغيه من مجادلتك لعله يهديك " (٤)

---

(١) تفسير الإمام ابن كثير ج ٣ ص ١٢٣ ، ص ١٢٤ .

(٢) انظر لسان العرب ج ٣ مادة حفا ص ٢٥٠ ، ص ٢٥١ .

(٣) زاد المسير فى علم التفسير ج ٥ ص ١٦٦ .

(٤) انظر مجمع البيان ج ١٦ ص ٤٣ .

وجملة ﴿ **إنه كان بى حفيا** ﴾ تعليل لما يتضمنه الوعد بالاستغفار من رجاء المغفرة استجابة لدعوة إبراهيم بأن يوفق الله أبا إبراهيم للتوحيد ونبذ الإشراك " (١)

والمعنى أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ قابل قسوة أبيه وجهالته بالحلم والسلام وهذا شأن الأبناء الأبرار شأن الأنبياء بل طلب الاستغفار له ودعا الله أن يغفر لأبيه فلا يعاقبه بالاستمرار فى الضلال وأن يرحمه ويرزقه الهداية والإسلام . ويذكر إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ أن المولى عز وجل عوده استجابة دعوته كراما منه وفضلا .

قال تعالى : ﴿ **واعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعوا ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا** ﴾ الآية ٤٨ .

وعندما رأى إبراهيم عليه السلام اصرار أبيه على الكفر قرر أن يعتزلهم ويعتزل ما يعبدون من دون الله وأن يخلص العبادة لله وحده .

يقول الإمام المراغى إن إبراهيم ـ عليه السلام ـ قال لأبيه " أتباعد عنك وعن قومك وعما تعبدون من الأوثان والأصنام ، وأفر بدينى واتشاغل بعبادة ربى الذى ينفعنى ويضرنى ، إذ لم تؤثر فيكم نصائحى " (٢)

معنى الاعتزال : يقول ابن منظور " وتعازل القوم : انعزل بعضهم عن بعض . والعزلة : الانعزال نفسه ، يقال : العزلة عبادة . وكنت

---

(١) انظر التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١٢١ ، تفسير الإمام أبو السعود ج ٥ ص ٢٦٨ .

(٢) تفسير الإمام المراغى ج ١٦ ص ٥٨ .

بمعزل عن كذا وكذا أى كنت بموضع عزلة منه واعتزلت القوم أى فارقتهم وتنحيت عنهم " (١)

يقول الإمام ابن كثير فى تفسير لهذه الآية : " اعتزلهم أجتنبهم وأتبرأ منكم ومن آلهتكم التى تعبدونها من دون الله " (٢)

ويقول الإمام أبو السعود إن معناه : " أتباعد عنك وعن قومك " (٣)

لذلك قال الإمام ابن عاشور : " إن صيغة الجمع فى **﴿ أعتزلكم ﴾** المراد بها أبيه وقومه ، تنزيلا لهم منزلة الحضور أو أن منهم من كـــان حاضراً بالفعل فتكون صيغة الجمع على حقيقتها "

رأى إبراهيم أن هجرانه أباه غير مغن ، لأن بقية القـــوم هـــم على رأى أبيه فـــرأى أن يـــهجرهم جميعـــا ، ولذلـــك قـــال لـــه **﴿ وأعتزلكم ﴾** .

وذكر معظم المفسرين أن المراد بالاعتزال هنا المهاجرة إلـــى أرض الشام (٤)

وقد ذكر فى مجمع البيان أن الأرض التى هاجر إليـــها هـــى الأرض المقدسة فقال : " أى فارقهم وهاجرهم إلى الأرض المقدسة (٥)

وللتوفيق بين القولين ، قول من قال إنه هاجر إلى الشـــام وقـــول الإمام الطبرسى القائل إنه هاجر إلـــى الأرض المقدســـة . أن الإمـــام

---

(١) لسان العرب لابن منظور ج ٩ ص ١٩٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٢٤ .

(٣) تفسير أبى السعود ج ٥ ص ٢٦٩ .

(٤) انظر تفسير الكشاف ج ٢ ص ٥١٢ وتفسير أبى السعود ج ٥ ص ٢٦٩ .

(٥) مجمع البيان ج ١٦ ص ٤٣٠ .

الطبرسى أراد أنه هاجر إلى الأرض المقدسة بعد أن هاجر أولا إلى الشام ثم إلى مصر ثم إلى الأرض المقدسة .

وجملة : ﴿ **وأعتزلكم** ﴾ عطف على جملة ﴿ **سأستغفر لك ربى** ﴾ أى يقع الاستغفار فى المستقبل ويقع اعتزالى إياكم الأن ، لأن المضارع غالب فى الحال . أظهر إبراهيم العزم على اعتزالهم وانه لا يتوانى فى ذلك ولا يأسف له إذا كان فى ذات الله تعالى ، وهو المحكى بقوله تعالى : ﴿ **وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين** ﴾ [1] وقد خرج من بلد الكلدان عازما على الالتحاق بالشام حسب أمر الله تعالى ...

قوله تعالى : ﴿ **وما تدعون** ﴾ المراد الأصنام التى كانوا يعبدونها من دون الله .

وعطف على ضمير القول أصنامهم للإشارة إلى عداوته لتلك الأصنام إعلانا بتغيير المنكر .

وعبر عن الأصنام بطريق الموصولية بقوله ﴿ **وما تدعون من دون الله** ﴾ للإيماء إلى وجه بناء الخبر وعلة اعتزاله إياهم وأصنامهم : بأن تلك الأصنام تعبد من دون الله وأن القوم يعبدونها ، فذلك وجه اعتزاله إياهم وأصنامهم " [2]

جاء فى زاد الميسر : " ﴿ **ما تدعون من دون الله** ﴾ يعنى الأصنام .

---

(1) سورة الصافات آية ٩٩ .

(2) انظر التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١٢٢ .

وفى معنى : ﴿ تدعون ﴾ قولان : أحدهما : تعبدون والثانى : أن المعنى : وما تدعون ربا " (١)

وقوله : ﴿ من دون الله ﴾ توضح لنا أن أى معبود سواء كان الأصنام أو غيرها مما يعبد من دون الله فقد اعتزله إبراهيم – عليه السلام – وإنما معظم المفسرين ذكروا أن المراد باللفظ الأصنام اعتباراً بأن إبراهيم وقومه كانوا يعبدون الأصنام .

قوله تعالى : ﴿ وأدعو ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا ﴾

المراد بالدعاء العبادة لأنه منها ومن وسائطها ، منه قوله ﷺ " الدعاء هو العبادة " (٢) ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله ﴾

ويجوز أن يراد بالدعاء الذى حكاه الله فى سورة الشعراء عرّض بشقاوتهم بدعاء آلهتهم فى قوله ﴿ عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقيا ﴾ (٣)

قوله تعالى : ﴿ ربى ﴾ عبر عن الله بوصف الربوبية المضاف إلى ضمير نفسه للإشارة إلى انفراده من بينهم بعبادة الله تعالى فهو ربه وحده من بينهم ، فالإضافة هنا تفيد معنى القصر الإضافى ، مع ما تتضمنه الإضافة من الاعتزاز بربوبية الله إياه والتشريف لنفسه بذلك : (٤)

---

(١) زاد المسير ج ٥ ص ١٦٦ .

(٢) مسند أحمد بن حنبل ج ٤ ص ٢٦٧ ، ٢٧١ ، ٢٧٦ .

(٣) انظر الكشاف للإمام الزمخشرى ج ٢ ص ٥١٢ ، تفسير أبو السعود ج ٥ ص ٢٦٩ .

(٤) انظر التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١٢٣ .

وقوله تعالى : ﴿ عسى ﴾ أرجوا ويدل هذا على تواضعه وعلى أدبه مع خالقه .

وفى تصدير الكلام ب ﴿ عسى ﴾ على وجه الخضوع أو معناه لعل الله يقبل طاعتى وحسن عبادتى ولا ينالنى الشقاء والتعاسة برد دعائى .

يقول الإمام أبو السعود هنا : " وفى تصدير الكلام بعسى من إظهار التواضع ومراعاة حسن الأدب والتنبيه على حقيقة الحق من أن الإجابة والإثابة بطريق التفضل منه عز وجل لا بطريق الوجوب وأن العبرة بالخاتمة وذلك من الغيوب المختصة بالعليم الخبير ما لا يخفى : [١]

يقول الإمام المراغى : " لعلى لا أكون بدعاء ربى المنعم على خائب المسعى ، كما خبتم أنتم وشقيتم بعبادة تلك الأوثان التى لا تجيب دعاءكم ولا تنفعكم ولا تضركم " . [٢]

قيل أراد بهذا الدعاء أن يهب الله تعالى له أهلا وولداً يتقوى بهم حتى لا يستوحش بالاعتزال عن قومه " [٣]

ومعنى ﴿ **شقيا** ﴾ خاءبا ضائع السعى وفيه تعريض لشقاوة أبيه وقومه .

والجملة فى موضع الحال من ضمير ﴿ **وأدعوا** ﴾ [٤]

---

(١) انظر تفسير أبى السعود ج ٥ ص ٢٦٩ .

(٢) تفسير الإمام المراغى ج ١٦ ص ٥٨ .

(٣) تفسير الإمام القرطبى ج ١١ ص ١١٣ .

(٤) انظر التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١٢٣ .

وهكذا اعتزل إبراهيم أباه وقومه وعبادتهم وآلهتهم وهجر أهله ودياره فلم يتركه الله وحيداً . بل وهب له ذرية وعوضه خيراً .

قال تعالى : **﴿ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا * ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا ﴾** الآية ٤٩، ٥٠

لما اعتزل إبراهيم أباه وقومه لم يضره ذلك لا في دين ولا دنيا ، بل نفعه إذ أبدله بهم من هم خير منهم ووهبه بنين وحفدة هم آباء الأنبياء من بنى اسرائيل ولهم الشأن الكبير ، والقدر العظيم ، فقد وهبه إسحاق وولد لإسحاق يعقوب وقاما مقامه بعد موته وورثا منه النبوة .

أما اسماعيل فتولى الله تربيته بعد نقله رضيعا إلى المسجد الحرام فأحيا تلك المشاعر العظام ، ومن ثم أفرده بالذكر بقوله : **﴿ واذكر في الكتاب اسماعيل ﴾** (١) الآية " (٢)

ولعل ترتيب هبتهما على اعتزاله هاهنا لبيان كمال عظم النعمة التى أعطاها الله تعالى إياه ، فى مقابلة من اعتزلهم من الأهل والأقارب ، فإنهما شجرة الأنبياء ، لهما أولاد وأحفاد ، لكل واحد منهم شأن خطير وعدد كثير وكل واحد منهما جعلناه نبيا ورسولا .

وإسحاق هو ابن إبراهيم ، رزقه من سارة ـ وكانت قبله عقيما ـ ويعقوب هو ابن إسحاق : ولكنه يحسب ولداً لإبراهيم لأن إسحاق رزقه

---

(١) سورة مريم جزء من الآية ٥٤ .

(٢) تفسير الإمام المراغى ج ١٦ ص ٥٩ .

فى حياة جده ، فنشأ فى بيته وحجره ، وكأنه ولده المباشـــر ؛ وتعلـم ديانته ولقنها بنيه . وكان نبيا كأبيه " [١]

وعلم من الآية السابقة أن الله وهب لإبراهيم – عليه السلام – ذرية طيبة يأنس بها فكانت تعويضا له عن مفارقة القوم ومكرمة له عند ربـه بإزالة وحشته .

يقول الإمام ابن عاشور : " وليس مجازاة الله إبراهيـم مقصـورة على أن وهبه إسحاق ويعقوب ، إذ ليـس فـى الكـلام مـا يقتضـى الانحصار ، فإنه قد وهبه إسماعيل أيضا ، وظهرت موهبته إيـاه قبـل ظهور موهبة إسحاق ، وكل ذلك بعد أن اعتزل قومه .

وإنما اقتصر على ذكر إسحاق ويعقوب دون ذكر إســماعيل فلـم يقل : وهبنا له إسماعيل وإسحاق ويعقوب ، لأن إبراهيم لمـا اعـتزل قومه خرج بزوجه سارة قريبته ، فهى قد اعتزلت قومها أيضاً إرضـاء لربها ولزوجها ، فذكر الله الموهبة الشاملة لإبراهيم ولزوجه ، وهى أن وهب لهما إسحاق ومن بعده يعقوب ؛ ولأن هذه الموهبة لما كانت كِفـاء لإبراهيم على مفارقته أباه وقومه كانت موهبة مـن يعاشـر إبراهيـم ويؤنسه وهما إسحاق ويعقوب . أما إسماعيل فقد أراد الله أن يكون بعيداً عن إبراهيم فى مكة ليكون جار بيت الله . وإنه لجوار أعظم من جـوار إسحاق ويعقوب أباهما .

وقد خص إسماعيل بالذكر استقلالا عقب ذلك . ومثله قوله تعالى : **﴿ واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴾** [٢] **ثـم قـال ﴿ واذكـر**

---

(١) تفسير فى ظلال القرآن للإمام سيد قطب ج ١٦ ص ٢٣١٢ .

(٢) سورة ص آية ٤٥ .

إسماعيل ﴾ [1] ، وقد قال : **﴿ وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين رب هب لى من الصالحين فبشرناه بغلام حليم ﴾** [2] إلى أن قال : **﴿ وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين ﴾** [3] فذكر هنالك إسماعيل عقب قوله : **﴿ إنى ذاهب إلى ربى سيهدين ﴾** إذ هو المراد بالغلام الحليم " [4]

قوله تعالى : **﴿ وهبنا له ﴾** أى أنسنا وحشته بولد ، وقال معظم المفسرين : وهبنا له المال والولد والعلم والعمل .

قوله تعالى : **﴿ من رحمتنا ﴾** هى النبوة عن الحسن . وعن الكلبى المال والولد ، وتكون عامة فى كل خير دينى ودنيوى أوتوه " [5]

وقال الإمام المراغي : " النسل الطاهر ، والذرية المباركة وإجابة الدعاء ، واللطف فى القضاء ، والبركة فى المال والأولاد إلى نحو ذلك من خيرى الدنيا والآخرة " [6]

قوله تعالى : **﴿ وجعلنا لهم لسان صدق عليا ﴾** أى ذكراً حسناً فى الناس مرتفعاً ، ووضع اللسان مكان القول ، لأن القول يكون باللسان .

---

(١) سورة ص جزء من آية ٤٨ .

(٢) سورة الصافات الآية ٩٩ .

(٣) سورة الصافات آية ١٠١ .

(٤) انظر التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١٢٤ .

(٥) انظر تفسير الكشاف للإمام الزمخشرى ج ٢ ص ٥١٢ .

(٦) وتفسير المراغى ج ١٦ ص ٥٩ .

يقول الإمام القرطبى : أثنينا عليهم ثناء حسنا ؛ لأن جميع الملل تحسن الثناء عليهم واللسان يذكر ويؤنث وعبر باللسان عما يوجد باللسان كما عبر باليد عما يطلق باليد وهى العطية .

ولسان العرب لغتهم وكلامهم ، وأعطى ذلك ذريته فأعلى ذكرهم وأثنى عليهم كما أعلى ذكره وأثنى عليه ومحامدهم المذكورة فى جميع الأزمان والملل والأديان صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين والآية تدل على أنهم أحقاء لما يثنون عليهم " (١)

وقد رتب جزاء الله إبراهيم على نبذه أهل الشرك ترتيبا بديعا إذ جوزى بنعمة الدنيا وهى العقب الشريف ، ونعمة الآخرة وهى الرحمة . وبأثر تينك النعمتين وهو لسان الصدق ، إذ لا يذكر به إلا من حصل على النعمتين " (٢)

وقد اجتمعت لإبراهيم خلال لم تجتمع لسواه :

١ــ **إنه اعتزل قومه حبا فى الله** ، فآتاه الله من هم خير منهم ، فوهب له إسماعيل وإسحاق ويعقوب .

٢ــ **إنه تبرأ من أبيه حين تبين منه أنه عدو الله** ، لا جرم سماه الله أبا المسلمين بقوله : ﴿ **ملة أبيكم إبراهيم** ﴾ (٣)

٣ــ **إنه تل ولده للجبين** ، ليذبحه إطاعة لأمر الله ففداه الله بذبح عظيم .

---

(١) انظر زاد الميسر ج ٥ ص ١٦٧ والإمام القرطبى ج ١١ ص ١١٣ ، الكشاف للإمام الزمخشرى ج ٢ ص ٥١٢ وتفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٢٤ ، تفسير المراغى ج ١٦ ص ٥٩ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١٢٦ .

(٣) سورة الحج آية ٧٨ .

٤ـ **إنه أسلم نفسه للنار** ابتغاء رضوان الله فكانت عليه برداً وسلاما .

٥ـ **إنه أشفق على هذه الأمة فقال : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم ﴾** (١) فأشركه الله فى الدعاء وفى الصلوات الخمس ـ وصل على محمد وعلى آل محمد كما صليت وباركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم .

٦ ـ **إنه عادى كل الخلق فى الله فقال : ﴿ فإنهم عدو لى إلا رب العالمين ﴾** (٢) فاتخذه الله خليلا كما أخبر بذلك الكتاب : **﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلا ﴾** (٣)

٧ ـ **إن الله مدحه بقوله : ﴿ وإبراهيم الذى وفى ﴾** (٤) لا جرم جعل موطئ قدميه مباركا كما قال : **﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾** (٥)

وختمت قصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ بالرحمة لأنها السمة الظاهرة فى السورة ففضل الله ورحمته واضحة على سيدنا زكريا ـ عليه السلام ـ ورحمته واضحة فى قصة مريم ـ عليها السلام ـ ورحمته لإبراهيم واضحة وجلية من أول حياته من إلقائه فى النار إلى هبة الله له الذرية الصالحة الصادقة المسموعة الكلمة المنظور لها بالتبجيل والطاعة والاحترام .

---

(١) سورة البقرة آية ١٢٩ .

(٢) سورة الشعراء آية ٧٧ .

(٣) سورة النساء آية ١٥٥ .

(٤) سورة النجم آية ٣٧ .

(٥) سورة البقرة آية ١٢٥ .

القصة الرابعة

قصة موسى عليه السلام

قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا(٥١)وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا(٥٢)وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا(٥٣) ﴾

ويستمر السياق مع ذرية إبراهيم ــ عليه السلام ــ ويبدأ هنا بفرع إسحاق فيذكر موسى وهارون عليهما السلام .

وقدم ذكر موسى ــ عليه السلام ــ على ذكر إسماعيل ــ عليه السلام ــ رغم أن إسماعيل هو الولد الأكبر لإبراهيم خليل الله .

لئلا ينفصل عن ذكر يعقوب ــ المذكور فى الآية السابقة وهى قوله تعالى : ﴿ **فلما اعتزلهم وما يعبدون من دوت الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا** ﴾ (١) لأنه من نسله .

قوله تعالى : ﴿ **واذكر فى الكتاب موسى** ﴾ أى وتل أيها النبى الكريم على قومك ما اتصف به موسى نبى الله من صفات الكمال التى ذكرتها الآيات لتبين علوّ قدره وعظيم منزلته وشأنه وتلك هى :

١ــ ﴿ **إنه كان مخلصا** ﴾ والمعنى أن موسى ــ عليه السلام ــ وهو كليم الله قد اصطفاه المولى عز وجل وأبعده عن الرجس والذنوب كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ **إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى** ﴾ (٢)

---

(١) سورة مريم الآية ٤٩ .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٤٤ .

ولفظ ﴿ **مخلصا** ﴾ فيه قرائتين بالكسر والفتح فالقراءة الأولى بكسر اللام من الإخلاص فى العبادة يقول ابن منظور : " وقرئ مُخْلِصا ، والمخلص : الذى أخلصه الله جعله مختارا خالصا من الدنس " (١) وهى بصيغة اسم الفاعل .

يقول الإمام الطبرى : " قراءة كسر اللام : (من المخلص) بمعنى أنه كان يخلص العبادة ويفرده بالألوهية من غير أن يجعل له فيها شريكا " (٢)

وأخلص العبادة عن الشرك والرياء أو أخلص نفسه وأسلم وجهه لله .

والقراءة الثانية بالفتح وهى بصيغة اسم المفعول بمعنى أنه كان مصطفى كما قال تعالى : ﴿ **إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى** ﴾ (٣) أى الذي أخلصه الله .

بمعنى أن موسى كان الله قد أخلصه واصطفاه لرسالته وجعله نبيا مرسلا .

قال أبو جعفر : " والصواب من القول عندى أنه كان ﷺ مخلصا عبادة الله مخلصا للرسالة والنبوة فيأتيهما قرأ القارئ فمصيب الصواب " . (٤)

---

(١) لسان العرب ج ٤ ص ١٧٣ مادة (خلص) .

(٢) انظر تفسير الإمام الطبرى ج ٨ ص ٧١ .

(٣) سورة الأعراف الآية ١٤٤ .

(٤) تفسيرا لإمام الطبرى ج ٨ ص ٧١ ، وانظر تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٢٤ ، وتفسير الزمخشرى ج٢ ص ٥١٣ ، وزاد المسير ج ٥ ص ١٦٧ ، ومجمع البيان ج ١٦ ص ٤٥ ، وتفسير المراغى ج ١٦ ص ٦٠ .

وخلاصة القول أن الإخلاص فى الأمر : هو الإتيان به من غير تقصير ولا تفريط والمراد به هنا . الإخلاص فى الرسالة وحسن العبادة .

" وخص موسى بعنوان (المخلص) على الوجهين لأن ذلك ميزته ، فإنه أخلص فى الدعوة إلى الله فاستخف بأعظم جبار وهو فرعون ، وجادله مجادلة الأكفاء ، كما حكى الله عنه فى قوله تعالى [1] : **﴿ قال ألم نربك فينا وليد ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين ﴾** إلى قوله **﴿ قال أوَ لو جئتك بشئ مبين ﴾** وكذلك ما حكاه الله عنه بقوله **﴿ قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين ﴾** [2] فكان الإخلاص فى أداء أمانه الله تعالى ميزته .

ولأن الله اصطفاه لكلامه مباشرة قبل أن يرسل إليه الملك بالوحى ، فكان مخلصا بذلك ، أى مصطفى ، لأن ذلك مزيته قال تعالى : **﴿ واصطنعتك لنفسى ﴾** [3] " [4]

بينت الآية الكريمة ثانى وصف لموسى كليم الله فقال عز وجل : **﴿ وكان رسولاً نبيا ﴾** .

جاء فى زاد الميسر [1] : " إنما أعاد **﴿ كان ﴾** لتفخيم النبى المذكور " .

---

(١) سورة الشعراء من الآية ١٨ : ٣٠ .

(٢) سورة القصص آية ١٧ .

(٣) سورة طه جزء من الآية ٤١ .

(٤) تفسير التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١٢٧ .

وكان موسى ــ عليه السلام ــ رسولاً إلى فرعون وقومه .

والرسول : الذى معه كتاب من الأنبياء .

والنبى : الذى ينبئ عن الله عز وجل وإن لم يكن معه كتاب كيوشع " (٢)

جمع الله لموسى ــ عليه السلام ــ بين وصف النبوة والرسالة لأنه كان من المرسلين الكبار أولى العزم الخمسة وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه على سائر الأنبياء أجمعين " . (٣)

وقدم ﴿ **رسولا** ﴾ على ﴿ **نبيا** ﴾ فى الآية لأن الله تعالى أرسله إلى الخلق فأنبأهم عنه ولذلك قدم رسولاً معَ كونه أخص وأعلى .

يقول الإمام ابن عاشور : " والجمع بين وصف موسى لأنه رسول ونبى . وعطف ﴿ **نبيا** ﴾ على ﴿ **رسولا** ﴾ مع أن الرسول هو المرسل بوحى من الله ليبلغ إلى الناس فلا يكون الرسول إلا نبيا ، وأما النبئ فهو المنبأ بوحى من الله وإن لم يؤمر بتبليغه ، فإذا لم يؤمر بالتبليغ فهو نبى وليس رسولا ، فالجمع بينهما هنا لتأكيد الوصف ، إشارة إلى أن رسالته بلغت مبلغا قويا ، فقوله ﴿ **نبيا** ﴾ تأكيد لوصف ﴿ **رسولا** ﴾ (٤)

قوله تعالى : ﴿ **وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا** ﴾ ذكر المولى عز وجل فى قوله تعالى ﴿ **وناديناه من جانب الطور الأيمن** ﴾ ثالث وصف لموسى كليم الله وهو تكليم المولى عز وجل من

---

(١) تفسير زاد الميسر ج ٥ ص ١٦٧ .

(٢) انظر تفسير الإمام الزمخشرى ج ٢ ص ٥٤٣ .

(٣) انظر تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٢٤ .

(٤) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ج ١٦ ص ١٢٧ .

الجانب الأيمن من الطور حين قدم موسى – عليه السلام – من مدين متوجها إلى مصر .

وجملة ﴿ وناديناه ﴾ معطوفة على قوله تعالى : ﴿ إنه كان مخلصا ﴾ فهى جملة مستأنفة أيضا .

ومعنى النداء : الكلام الدال على طلب الإقبال ، وأصله : جهر الصوت لإسماع البعيد ، فأطلق على طلب إقبال أحد مجازاً مرسلاً .

والنداء هو الكلام الموجه من المولى عز وجل إلى موسى – عليه السلام – بأن تمثل له الكلام من جهة اليمين .

﴿ **جانب** ﴾ ناحية ، و ﴿ **الطور** ﴾ الجبل الواقع بين بلاد الشام ومصر ، يقال له طور سيناء .

" **ووصفه ب** ﴿ **الأيمن** ﴾ لأنه الذى على يمين مشرق الشمس " (١)

يقول الإمام الطبرى : " ويعنى بالأيمن يمين موسى لأن الجبل لا يمين له ولا شمال وإنما ذلك كما يقال قام عن يمين القبلة وعن شمالها " (٢)

وهنا نجد أن الإمام ابن عاشور ذكر أن جبل الطور واقع بين بلاد الشام ومصر وذكر الإمام أبو السعود أن جبل الطور واقع بين بلاد مدين ومصر فقال : " الطور جبل بين مصر ومدين " (٣)

وفى الحقيقة أن جبل الطور معروف ومشهور وهو جبل طور سيناء وقد ذكره القرآن حين أقسم به المولى عز وجل فى قوله ﴿ **وطور سنين** ﴾ (٤) ومدين اسم قرية شعيب .

---

(١) انظر التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١٦٧ .

(٢) انظر تفسير الإمام الطبرى ج ٨ ص ٧١ ، تفسير الإمام أبو السعود ج ٥ ص ٢٧٠

(٣) تفسير الإمام أبو السعود ج ٥ ص ٢٧٠ .

(٤) سورة التين آية ٢ .

" وكان أهل مدين قوما عربا يسكنون مدينتهم التى هى قرية من أرض معان من أطراف الشام مما يلى ناحية الحجاز تقريبا من بحيرة قوم لوط ، وكانوا بعدهم بمدة قريبة ومدين قبيلة عرفت بهم القبيلة وهم من بنى مدين بن مديان بن إبراهيم الخليل وشعيب نبيهم " (١)

ومن قول ابن كثير السابق يتضح لنا الأمر وهو لا يوجد تعارض بين من قال أن (الطور) جبل بين الشام ومصر وبين من قال أنها جبل بين مدين ومصر لأن مدين قريبة في أطراف الشام فمن قال بالشام ذكر على العموم ومن قال مدين فقد خصص . والله أعلم .

قوله تعالى : **﴿ وقربناه نجيا ﴾**

هذا رابع وصف لموسى ــ عليه السلام ــ **يعلمنا** المولى عز وجل أنه قرب موسى تقريب تشريف وإجلال وقد مثل حاله ــ عليه السلام ــ بحال من قربه الملك لمناجاته ، واصطفاه لمصاحبته ورفع الوسائط بينه وبينه .

وقصارى ذلك ــ أنه تجاوز العالم المادى ، وانغمس فى العالم الروحى ، فقرب من ربه وارتقت نفسه حتى بلغن أقصى مناها ، واستعدت للاطلاع على عالم الملكوت ، ورؤية ما غاب من عالم المادة . (٢)

جاء فى زاد المسير قول ابن الأنبارى : " معناه : مناجيا ، فعبر " فعيل " عن مُفاعل ، كما قالوا : فلان خليطى وعشيرى : يعنون : مخالطى ومعاشرى " (٣)

---

(١) انظر البداية والنهاية ج ١ ص ١٧٢ .

(٢) انظر تفسير الإمام المراغى ج ١٦ ص ٦١ وتفسير أبى السعود ج ٥ ص ٢٧٠ .

(٣) زاد المسير ج ٥ ص ١٦٧ .

ومعنى : ﴿ **قربناه** ﴾ أى جعلناه قريبا ، وهو الدنو وهو ضـــد البعد (١)

" وهنا القرب المجازى وهو الوحى . فقوله ﴿ **نجيا** ﴾ حال من ضمير ﴿ **موسى** ﴾ وهى حال مؤكدة لمعنى التقريب .

.... والمناجاة هى المحادثة السرية شبه الكلام الذى لم يكلّـم بمثله أحدا ولا اطلع عليه أحدا ، بالمناجاة " (٢)

ويوضح لنا الإمام الطبرسى معنـــى هــذا التقريــب فيقــول : " ومعنى هذا التقريب أنه اسمعه كلامه ، وقيل قربه حتـــى ســمع حرير القلم الذى كتبت به التوراة ــ ومثله قاله صاحب زاد المسـير وذكر فى تفسير أبى السعود وتفسير الطبرى . (٣)

وقيل : قربناه أى ورفعنا منزلته وأعلينا محله ، حتـــى صــار محله منا فى الكرامة والمنزلة محل من قربه مــولاه فـــى مجلــس كرامته ، فهو تقريب كرامة واصطفاء لا تقريب مسافة وإدنــاء ، إذ هو سبحانه لا يوصف بالحلول ... فيقرب من بعد أو يبعـــد مــن قرب ، أو يكون أحد أقرب إليه من غيره " (٤)

ثم يأتى الوصف الخامس لموسى ــ عليه السلام ــ فقال تعالى :

﴿ **ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا** ﴾ .

---

(١) انظر لسان العرب ج ٤ ص ٨٢ .

(٢) انظر التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١٢٨ .

(٣) زاد المسير ج ٥ ص ١٦٧ ، أبو السعود ج ٥ ص ٢٧٠ ، الطبرى ج ٨ ص ٧٢ .

(٤) تفسيير مجمع البيان ج ١٦ ص ٤٥ .، وتفسير البحر المديد ج ١٦ ص ٣٤١ .

وهذه الآية إجابة من المولى عز وجل تفضلا وتكريما لدعاء موسى ــ عليه السلام ــ حين دعاه بقوله : ﴿ **واجعلى وزيراً من أهلى * هارون أخى أشدد به من أزرى وأشركه فى أمرى** ﴾ (١)

والمعنى أن المولى عز وجل وهب لموسى ــ عليه السلام ــ نعمة منه وفضلا أخاه هارون ليسانده ويعاونه ويكون عضده فى الحياة الدنيا لنشر دعوته .

يقول الإمام ابن عاشور : " ومعنى هبة أخيه له : أن الله عززه به وأعانه به إذ جعله نبيا وأمره ان يرافقه فى الدعوة ، لأن فى لسان موسى حبسة ، وكان هارون فصيح اللسان ، فكان يتكلم عن موسى بما يريد إبلاغه ، وكان يستخلفه فى مهمات الأمة .

وإنما جعل تلك الهبة من رحمة الله لأن الله رحم موسى إذ يسَّر له أخا فصيح اللسان ، وأكمله بالإنباء حتى يعلم مراد موسى مما يبلغه عن الله تعالى ولم يوصف هارون بأنه رسول إذ لم يرسله الله تعالى وإنما جعله مبلغا عن موسى . وأما قوله تعالى : ﴿ **فقولا إنا رسول ربك** ﴾ (٢) فهو من التغليب . " (٣)

" يقول بعض السلف ما شفع أحد شفاعة فى الدنيا أعظم من شفاعة موسى فى هارون أن يكون نبيا ...

---

(١) سورة طه آية ٢ ، ٣ .

(٢) سورة طه الآية ٤٧ .

(٣) انظر التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١٢٨ ، ص ١٢٩ .

وكان هارون أكبر من موسى ولكن أراد وهب له نبوته " [1]

لذلك الهبة وقعت على وجه المعاضدة والمؤازرة لأن هارون ـــ عليه السلام ـــ كان عضد موسى ـــ عليه السلام ـــ وكان يـــؤازره فى تبليغ رسالة ربه .

و ﴿ **نبيا** ﴾ حال من هارون أى حال كونه نبيا من أنبياء الله .

وهذا جانب من قصة نبى الله موسى ـــ عليه السلام ـــ بما حوته من الرحمة والرأفة .

أوقفتنا عليه الآيات الكريمة ليتعلم الإنسان مـــا اتصـــف بـــه موسى ـــ كليم الله ـــ من صفات الجلال والكمال ليظهر للإنســـان قدره وعظيم شأنه . والله أعلم .

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم ج ٣ ص ١٢٥ .

القصة الخامسة

قصة نبى الله إسماعيل من خلال السورة

قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولا نَبِيًّا(٥٤)وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا(٥٥) ﴾

يعود السياق إلى الفرع الآخر من ذرية إبراهيم ــ عليه السلام ــ فيذكر إسماعيل أبا العرب وبنوه .

واسماعيل : هو إسماعيل بن خليل الرحمن إبراهيم ــ عليه السلام ــ ، وقد أثنى عليه ربه بما هو أهله ووصفه بصفات هى معجزة البشر ومنتهى السموّ والفضل فى هذه الدنيا .

وقد ذكر الإمام القرطبى : " قوله تعالى : ﴿ **واذكر فى الكتاب اسماعيل** ﴾ اختلف فيه ؛ فقيل : هو إسماعيل بن حزقيل ، بعثه الله إلى قومه فسلخوا جلدة رأسه ، فخيره الله تعالى فيما شاء من عذابهم ، فاستعفاه ورضى بثوابه ، وفوض أمرهم إليه فى عفوه وعقوبته .

والجمهور أنه إسماعيل الذبيح أبو العرب ابن إبراهيم " (١)

يقول الإمام أبو السعود : " فصل ذكره ــ يعنى اسماعيل ــ عن ذكر أبيه وأخيه لإبراز كمال الاعتناء بأمره بإيراده مستقلا . " (٢)

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبى ج ١١ ص ١١٤ .

(٢) انظر إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ج ٥ ص ٢٧٠ .

وفى الآية يأمر المولى عز وجل نبيه محمداً ﷺ أن يخبر قومه بما نزل فى القرآن الكريم أو فى مجموعة الآيات التى نحن بصـــدد تفسيرها جانباً من قصة إسماعيل فإنه كان لا يكذب أبداً وكـــان لا يخلف الوعد وكان رسولا نبياً وكان يأمر أهله وقومه بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وكان عند ربه محموداً غير مقصر فى عمله .

قوله تعالى : **﴿ إنه كان صادق الوعد ﴾**

هذه أول صفة وصـــف الله بـــها ســيدنا إســماعيل ليعلمــها الناس ويقتدون به وهى صفـــة الصـــدق ، الصـــدق فـــى الوعـــد وهذه الصفة من الصفات التى حث عليـــها المولـــى عـــز وجـــل فى جميع الأديـــان .

وشدد المولى عز وجل على من يخون الوعد فقال : **﴿ يا أيـــها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون* كبر مقتا عند الله أن تقولون ما لا تفعلون ﴾** (١)

وقال رسول الله ﷺ : " آية المنافق ثلاث : إذا حدث كـــذب ، وإذا وعد أخلف . وإذا أؤتمن خان " (٢).

يقول الإمام أبو السعود (٣) : " قوله تعالى : **﴿ إنه كان صـــادق الوعد ﴾** تعليل لموجب الأمر .

---

(١) سورة الصف الآيتان ٢ ، ٣ .

(٢) صحيح البخارى ج ١ كتاب الإيمان باب علامة المنافق ص ١٥ .

(٣) تفسير أبو السعود ج ٥ ص ٢٧٢ .

والمفسرون يقولون (١) : " إن معنى صادق الوعد بالنسبة إلى اسماعيل — عليه السلام — إما أن تكون راجعة إلى صبره على الذبح عندما قال لأبيه ﴿ **ستجدنى إن شاء الله من الصابرين** ﴾ (٢) .

وإما أن تكون بمعنى ما ورد من آثار تحكى لنا تمسكه بالوعد وحرصه عليه منها .

قال ابن جرير حدثنى يونس أنبأنا ابن وهب أخبرنى عمرو بن الحارث أن سهل بن عقيل حدثه أن إسماعيل النبى — عليه السلام — وعد رجلا مكانا أن يأتيه فيه فجاء ونسىَ الرجل فظل به إسماعيل وبات حتى جاء الرجل من الغد فقال ما برحت من هنا ؟ قال لا قال إنى نسيت قال لم أكن لأبرح حتى تأتينى فلذلك ﴿ **كان صادق الوعد** ﴾ .

وقال سفيان الثورى بلغنى أنه أقام فى ذلك المكان ينتظره حولا حتى جاءه .

وقال ابن شوذب بلغنى أنه اتخذ ذلك المكان مسكنا .

وقد استبعد الإمام الزمخشرى القول القائل بإنتظاره سنة .

وقد فعل مثل هذا نبينا محمد ﷺ وهو المثل الأعلى قبل بعثته وذلك فى مبايعة وتجارته عن عبد الله بن أبى الحماء قال : بايعت النبى ﷺ ببيع قبل أن يبعث ، وبقيت له بقية فوعدته أن آتيه بها فى مكانه فنسيت ثم ذكرت بعد ثلاث ، فجئت فغذا هو فى مكانه ، فقال : " يافتى ، لقد شققت علىَّ ، أنا هاهنا منذ ثلاث أنتظرك " (٣)

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٣٥ وتفسير الكشاف ج ٢ ص ٥١٣ وتفسير القرطبى ج ١١ ص ١١٤ والبحر المديد ج ٦ ص ٣٤٢ .

(٢) سورة الصافات الآية ١٠٢ .

(٣) أخرجه أبو داود فى الأدب باب فى العِدة .

وقد رجح الإمام القرطبى [1] : " أن إسماعيل ـ عليه السلام ـ لم يعد شيئا إلا وفى به . وقال : وهذا قول صحيح وهو الذى يقتضيه ظاهر الآية . والله أعلم .

والقول واضح وظاهر وحمل الآية على العموم أفضل لأن الموقف موقف مدح ، والمدح يقتضى تعميم الصدق فى كل أحواله لتكون صفة ملازمة له .

ومن المعلوم أن صفة الصدق محمودة لذلك اتصف بها النبيون والصالحون ، وصفة خلف الوعد والكذب مذمومة ومبغوضة ويجب على المؤمنين البعد عنها .

وقد خص المولى عز وجل ـ إسماعيل عليه السلام ـ **بصفة الصدق فى الوعد** رغم أن جميع الأنبياء والمرسلين والصالحين اتصفوا بها تشريفا له ولأنها كانت من الصفات الظاهرة فيه .

جاء فى زاد المسير : " أن إسماعيل عانى فى الوفاء بالوعد ما لم يعانيه غيره من الأنبياء ، فأثنى عليه بذلك " [2]

وقال الإمام الزمخشرى : " ذكر اسماعيل ـ عليه السلام ـ بصدق الوعد وإن كان ذلك موجودا فى غيره من الأنبياء تشريفا له وإكراما كالتلقيب بنحو الحليم والأواه والصديق ، ولأنه المشهور المتواصف من خصاله . " [3]

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ج ١١ ص ١١٤ .

(٢) زاد المسير ج ٥ ص ١٦٨ .

(٣) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٥١٣ .

ثم ذكر المولى عز وجل الصفة الثانية التى وصف بها نبيه اسماعيل ــ عليه السلام ــ فقال : ﴿ **وكان رسولاً نبيا** ﴾ .

فقد أرسل اسماعيل ــ عليه السلام ــ **إلى قبيلة جرهم** وكانت رسالته بشريعة أبيه وقبيلة جرهم من عرب اليمن الذين نزلوا على أمة هاجر بوادى مكة حين أسكنها هى وابنها بذلك الوادى ، فسكنوا هناك حتى كبر إسماعيل وتزوج من جرهم " (١)

قال ابن كثير : " وقوله : ﴿ **وكان رسولا ونبيا** ﴾ فى هذا دلالة على شرف إسماعيل على أخيه إسحاق لأنه إنما وصف بالنبوة فقط وإسماعيل وصف بالنبوة والرسالة ، وقد ثبت فى صحيح مسلم (٢) أن رسول الله ﷺ قال : " إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، ...... " فدل على صحة ما قلناه . "

يقول الإمام أبو السعود (٣) : " ﴿ **وكان رسولا ونبيا** ﴾ فيه دلالة على أن الرسول لا يجب أن يكون صاحب شريعة فإن أولاد إبراهيم ــ عليه السلام ــ كانوا على شريعته .

فكان إسماعيل عليه السلام نبيا لقبيلة جرهم وكانوا يعبدون الله على دين إبراهيم ، على الحنفية السمحاء ، وكانوا أولاده على شريعته حتى أدخلت الأصنام مكة واشركوها ــ والعياذ بالله ــ مع الله .

واستمرت تعبد حتى بعث محمد ﷺ بشريعته الكاملة وأزال الأصنام .

---

(١) انظر تفسير الإمام القرطبى ج ١١ ص ١١٦ والبحر المديد ج ١٦ ص ٣٤٣ والجمل على الجلالين ج ٣ ص ٥٧ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٣٥ .والحديث فى مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ١٠٧ .

(٣) تفسير أبو السعود ج ٥ ص ٢٧٠ .

ثم يخبرنا عز وجل بالصفة الثالثة التى اتصـــف بـــها اسماعيل ـــ عليه السلام ــ فقال : **﴿ وكان يـــأمر أهلـــه بـــالصلاة والزكاة ﴾** والأهل قد تطلق ويراد بها الزوجة والأولاد وقد تطلق ويراد بها الأهل والعشيرة والقوم .

وهنا يراد بها كل هذا لأن الإنسان مسئول أولاً عن أهله الأقربيـــن وهم زوجته وأولاده قال تعالى : **﴿ وأنذر عشـــيرتك الأقربيـــن ﴾** (١) وعليه أيضا أن ينصح الآخرين وخاصة أنه رسول ونبى من عند الله .

فلا يمنع المعنى أن الأهل تشمل كل من كان يعيش فى القبيلة مـــن زوجة وأولاد وعشيره .

يقول الإمام ابن عجيبة (٢) : " قدم الأهل اشتغالا بـــالأهم وهـــو أن يقبل بالتكميل على نفسه ، ومن هو أقرب الناس إليـــه قـــال تعـــالى : **﴿ وأمر أهلك بالصلاة ﴾** (٣) ، **و ﴿ قو أنفسكم وأهليكم نـــاراً ﴾** (٤) ، وقصد إلى تكميل الكل بتكميلهم ؛ لأنهم قدوة يؤتس بهم .

وقيل : أهله : أمته ؛ لأن الأنبياء عليهم السلام أباء الأمم .

وقوله : **﴿ بالصلاة والزكاة ﴾**

قال الإمام الطبرسى فى مجمع البيان (٥) : " المراد ب **﴿ الصلاة ﴾** صلاة الليل وب **﴿ الزكاة ﴾** صدقة النهار .

---

(١) سورة الشعراء الآية ٢١٤ .

(٢) تفسير البحر المديد ج ١٦ ص ٣٤٣ .

(٣) سورة طه آية ١٠٢ .

(٤) سورة التحريم آية ٦ .

(٥) مجمع البيان ج ١٦ ص ٤٦ .

وهذا دليل على أن الصلاة والزكاة كانت من شريعته .

وبعد أن ذكر الصفات الثلاث لنبيه إسماعيل ـ عليه السلام ـ ذكر أن اتصافه بهذه الأوصاف كانت السبب فى رضوان الله عنه . **فقال : ﴿ وكان عند ربه مرضيا ﴾ .**

يقول الإمام ابن عاشور : " ورض الله عنه : إنعامه عليه نعماً كثيرة . إذ باركه ونمى نسله وجعل أشرف الأنبياء من ذريته . وجعل الشريعة العظمى على لسان رسول من ذريته . " (١)

---

(١) انظر التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١٣٠ .

القصة السادسة

قصة نبى الله إدريس - عليه السلام - من خلال السورة

قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا(٥٦)وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا(٥٧) ﴾

يأمر المولى عز وجل نبيه ﷺ أن يخبر الناس بقصة نبيه إدريس ــ عليه السلام ــ ووصفه هنا بثلاث صفات :

١ــ ﴿ **كان صديقا** ﴾ أى ملازما للصدق فى كل شئ .

٢ــ ﴿ **نبيا** ﴾ أى شرف النبوة .

٣ ــ ﴿ **ورفعناه مكانا عليا** ﴾ أى مكانة مرتفعة .

قد تكون شرف النبوة ، وقد تكون بمكانته فى الجنة .

يقول الإمام الألوسى (١) : " وإدريس هو نبى قبل نوح وبينهما ألف سنة وهو أخنوخ ابن يرد ٠٠٠٠ بن شيث بن آدم . وهو أول من نظر فى النجوم وفى الحساب ، وأول رسول بعد آدم . "

وقال الإمام الطبرسى (٢) : " قيل إنه سمى إدريس لكثرة درسه الكتب وهو أول من خط بالقلم وكان خياطا وأول من خاط الثياب ، وقيل إن الله تعالى علمه النجوم والحساب وعلم الهيأة وكان ذلك معجزة له . "

---

(١) تفسير الإمام الألوسى ج ١٦ ص ١٠٥ .

(٢) مجمع البيان ج ١٦ ص ٤٧ ، تفسير الإمام المراغى ج ١٦ ص ٦٣ .

قوله تعالى : ﴿ **إنه كان صديقا نبيا** ﴾ ﴿ **صديقا نبيا** ﴾ خبران لكان ؛ والثانى مخصص للأول ؛ إذ ليس كل صديق نبى .[1]

ولفظى ﴿ **صديقا نبيا** ﴾ ذكرا قبل ذلك بالتفصيل .

أما قوله تعالى : ﴿ **ورفعناه مكانا عليا** ﴾ قال الإمام المراغى :" أى أعلينا قدره ورفعنا ذكره فى الملأ ؛ ونحو هذا قوله لنبيه محمد ﷺ : ﴿ **ورفعنا لك ذكرك** ﴾ [2] "[3]

وذكر فى زاد الميسر [4] : " فى قوله تعالى : ﴿ **ورفعناه مكانا عليا** ﴾ فيه أربعة أقوال :

أحدهما : أنه فى السماء الرابعة ، روى البخارى ومسلم فى الصحيحين عن حديث مالك بن صعصعة عن رسول الله ﷺ فى حديث المعراج : أنه رأى إدريس فى السماء الرابعة ، وبهذا قال أبو سعيد الخدرى ، ومجاهد وأبو العالية .

والثانى : أنه فى السماء السادسة ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ؛ وبه قال الضحاك .

---

(١) انظر تفسير أبى السعود ج ٥ ص ٢٧٠ .

(٢) سورة الشرح الآية٤

(٣) تفسير الإمام المراغى ج ١٦ ص ٦٣ .

(٤) زاد الميسر ج ٥ ص ١٦٨ .

والثالث : أنه فى الجنة ، قاله زيد بن أسلم ، وهـــذا يرجـــع إلـــى الأول ، لأنه قد روى أن الجنة فى الســـماء الرابعـــة .

والرابع : أنه فى السماء السابعة ، حكاه أبـــو ســـليمان الدمشـــقى .

وقيل : إنه شرف النبوة وقيل علـــو الرتبـــة بـــالذكر الجميـــل فى الدنيا كما قال فى حق نبينا ﴿ **ورفعنـــا لـــك ذكـــرك** ﴾ وقيـــل الجنة وقيل السماء الرابعـــة " (١) .

وقد اختار الإمام ابن عجيبة أن المراد بقوله ﴿ **ورفعناه مكانـــا عليا** ﴾ هو السماء الرابعة .

وجاء فى تفسير التحرير والتنوير أن الرفع هنـــا قـــد يكـــون رفع مجازى : أى رفع المنزلة لما أوتيه مـــن العلـــم الـــذى فـــاق به على كل من سلفه ونقل هذا عـــن الحســـن ، وقـــال بـــه أبـــو مسلم الأصفـــهانى .

وقال جماعة : هو رفع حقيقى إلى السماء .

ورفض الاستشهاد بحديث الإسراء الموجـــود فـــى البخـــارى وقال : " وأما حديث الإسراء فلا حجـــة فيـــه لـــهذا القـــول لأنـــه ذكر فيه عدة أنبياء غيره وجدوا فـــى الســـماوات . (٢)

ومن المعلوم بالدليل القطعـــى وهـــو القـــرآن الكريـــم أن الـــذى رفع إلى السماء هو **عيسى بن مريم** قـــال تعـــالى : ﴿ **وَقَوْلِـــهِمْ إِنَّـــا**

---

(١) انظر تفسير أبو السعود ج ٥ ص ٢٧١ وتفسير البحر المديد ج ١٦ ص ٣٤٤ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١٣١ .

قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ .(١)

ولم تخبرنا السنة الشريفة عن رفع إدريس ــ عليه السلام ــ وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد حدثتنا عن جانب من قصة زكريا ويحيى وعيسى ومريم وإبراهيم وموسى وإسماعيل وإدريس عليهم جميعاً السلام .

---

(١) سورة النساء الآية ١٥٧ ، ١٥٨ .

بعض مناقب وصفات المرسلين من خلال السورة الكريمة

قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا(٥٨) ﴾

بعد أن ذكر المولى عز وجل بعض المرسلين أخذ يعدد مناقبهم ويذكر صفاتهم أو بالأحرى صفات أخرى غير التى ذكرها لكل نبى ورسول على حده .

يذكر بعض ما جازاهم به من النعم نعمة الهداية ونعمة الاصطفاء ونسبة الخشوع والخضوع لآيات الله . فهم الأخيار المصطفون من ذرية آدم ونوح وإبراهيم وإسرائيل عليهم جميعا الصلاة والسلام .

قوله تعالى : ﴿ **أولئك** ﴾ إشارة إلى المذكورين فى السورة من لدن زكريا أى من قوله تعالى : ﴿ **ذكر رحمة ربك عبده زكريا** ﴾ إلى إدريس عليه السلام .

وما فيه من معنى البعد للإشارة بعلو رتبتهم وبعد منزلتهم فى الفضل . (١)

وذكر الإمام ابن كثير أن اسم الإشارة ﴿ **أولئك** ﴾ لا داعى لقصره على المذكورين فى السورة فقط بل يشمل كل الأنبياء والرسل فقال :

---

(١) انظر تفسير الإمام أبو السعود ج ٥ ص ٢٧١ ، تفسير الإمام الزمخشوى ج٢ ص ٥١٤ ، وتفسير الإمام النيسابورى ج ١٦ ص ٦٦ ، تفسير الإمام المراغى ج ١٦ ص ٦٤ .

" **وليس المراد المذكورين فى هذه السورة فقط بل جنس الأنبياء عليهم السلام استطرد من ذكر الأشخاص إلى الجنس .**" (١)

" والإتيان به دون الضمير للتنبيه على أن المشار إليهم جديرون بما يذكر بعد اسم الإشارة لأجل ما ذكر مع المشار إليهم من الأوصاف أى كانوا أحرياء بنعمة الله عليهم وكونهم فى عداد المهديين المجتبين وخليقين بمحبتهم لله تعالى وتعظيمهم إياه . " (٢)

والجملة استئناف ابتدائى .

قوله تعالى : ﴿ **الذين أنعم الله عليهم** ﴾

صفة ل ﴿ **أولئك** ﴾ أى أنعم عليهم بفنون النعم الدينية والدنيوية حسبما أشير إليه مجملا .

والإنعام يكون " بالنبوة وقيل بالثواب وبسائر النعم الدينية والدنيوية " (٣)

" والمذكور بعد اسم الإشارة هو مضمون قوله ﴿ **أنعم الله عليهم** ﴾ وقوله ﴿ **وممن هدينا واجتبينا** ﴾ ، فإن ذلك أحسن جزاء على ما قدموه من الأعمال ، ومن أعطوه من مزايا النبوة والصديقية ونحوهما .

وتلك وإن كانت نعما وهداية واجتباء فقد زادت هذه الآية بإسناد تلك العطايا إلى الله تعالى تشريفا لها ، فكان ذلك التشريف هو الجزاء عليها إذ لا أزيد من المجازى عليه إلا تشريفه . " (٤)

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٢٦ .

(٢) انظر التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١٣٢ .

(٣) انظر مجمع البيان ج ١٦ ص ٤٨ .

(٤) تفسير التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١٣٣ .

قوله تعالى : ﴿ **من النبيين** ﴾ أى هؤلاء النبيون الذيـن قـص الله أنباءهم عليك أيها الرسول هم من الذين أنعم الله عليهم وخصهم بـالقرب من الله وعظيم المنزلة وهداهم واصطفاهم .

يقول الإمام النيسابورى [1] : " ﴿ **من** ﴾ فى قوله تعالى ﴿ **مـن النبيين** ﴾ لبيان الموصول لأن جميع الأنبياء منعم عليهم .

وقوله تعالى : ﴿ **من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذريـة إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا** ﴾ .

﴿ **من** ﴾ فى : ﴿ **من ذرية** ﴾ بدل منه بإعادة الجار ويجـوز أن تكون من فيه للتبعيض لأن المنعم عليهم أعم من الأنبياء وأخص مـن الذرية وكذلك تبعيضية فى قوله تعالى : ﴿ **وممن حملنـا** ﴾ وكذلـك ﴿ **ومن ذرية إبراهيم** ﴾ وكذلك فى قوله ﴿ **وممن هدينـا** ﴾ والـواو عاطفة .

وقوله تعالى : ﴿ **من ذرية آدم** ﴾ أى من نسل أبو البشر الأول .

﴿ **وممن حملنا مع نوح** ﴾ أى ومن ذرية من حملنا مع نوح أبـو البشر الثانى فى الفلك كإبراهيم خليل الرحمن .

﴿ **ومن ذرية إبراهيم** ﴾ وهم إسحاق ويعقوب وإسماعيل .

﴿ **وإسرائيل** ﴾ أى ومن ذرية إسرائيل أى يعقوب ــ عليه السـلام ــ ، **وهم موسى وهارون وزكريا وعيسى وأمه مريم** ــ والآية فيها دليـل على أن أولاد البنات من الذرية ــ .

---

(١) انظر تفسير الإمام النيسابورى ج ١٦ ص ٦٧ ، وتفسير أبى السعود ج ٥ ص ٢٧١ ، تفسير الزمخشرى ج ٢ ص ٥١٤ .

وقوله تعالى : ﴿ وممن هدينا واجتبينا ﴾ أى ومـــن جملـــة مـــن هديناهم للحق وللطريق السوى واجتبيناهم للنبوة والكرامة وأخلصنــــاهم لعبادتى [١] .

يقول الإمام النيسابورى : " وفى هذا الترتيب تنبيه على أن هــؤلاء الأنبياء اجتمع لهم مع كمال الأحساب شرف الأنساب ، وأن جميع ذلـــك بواسطة هداية الله وبمزية اجتبائه واصطفائه . " [٢]

قوله تعالى : ﴿ إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **إذا تتلى** ﴾ إذا كان اسم الموصول ﴿ **الذين** ﴾ خبر ﴿ **لأولئك** ﴾ كأن قوله ﴿ **إذا تتلى** ﴾ كلاما مستانفا مسوقا لبيان خشيتهم من الله تعالى وإخباتهم له مع مالهم من علو الرتبة وسمو الطبقـــة فـــى شرف النسب وكمال النفس والزلفى من الله عز وجل .

وإذا كان اسم الموصول ﴿ **الذين** ﴾ صفة كان قوله تعـــالى : ﴿ **إذا تتلى** ﴾ خبراً . وقرئ : ﴿ **يتلى** ﴾ بالتحتانية أى بالتذكير لأن تـــأنيث ﴿ **آيات** ﴾ غير حقيقى [٣]

قوله تعالى : ﴿ **آيات الرحمن** ﴾ والمراد بالآيات قـــال أبو علـــم : أراد بالآيات التى فيها ذكر العذاب ، وقال غــــيره : إطـــلاق الآيـــات

---

(١) انظر مجمع البيان ج ١٦ ص ٤٨ ، تفسير القرطبى ج ١١ ص ١٢٠ ، تفسير النيسابورى ج ١٦ ص ٦٧ ، تفسير أبى السعود ج ٥ ص ٢٧١ ، والكشـــاف ج ٢ ص ٥١٤ .

(٢) انظر تفسير الإمام النيسابورى ج ١٦ ص ٦٧ .

(٣) انظر تفسير الإمام أبو السعود ج ٥ ص ٢٧١ وتفسير الإمام الزمخشــوى ج ٢ ص ٥١٤ .

واستدل بقول رسول الله ﷺ " اتلوا القرآن وابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا " (١) وقالوا إن الحديث يدل على العموم ، لأن كل آية إذا فكر فيها المفكر صح أن يسجد عندها ويبكى .

قال الأصم : " المراد بآيات الرحمن الكتب المتضمنة لتوحيده وحججه ، وأنهم كانوا يسجدون عند تلاوتها ، ويبكون عند ذكرها .

والمروى عن ابن عباس أن المراد القرآن خاصة ، وأنهم كانوا يسجدون ويبكون عند تلاوته " (٢)

ويذكر الإمام النيسابورى أن لفظ الآيات المذكور لعل المراد منه ما خصهم به الله من الكتب المنزلة ، لأن القرآن الكريم حينئذ لم يكن منزلا (٣)

والأفضل أن نجعل آيات الله عامة تشمل جميع الآيات المنزلة فى الكتب السابقة والمنزلة فى القرآن الكريم بدليل أن رسول الله ﷺ كان يبكى عند قراءة آيات الله . وكذلك الصحابة رضوان الله عليهم مثل أبو بكر الصديق فكان بكّاياً عند قراءة القرآن **والله اعلم** .

قوله تعالى : ﴿ خروا سجدا وبكيا ﴾

معنى خروا : أى سقطوا يقول الزجاج : " الإنسان فى حال خروره لا يكون ساجداً ، فالمراد خروا متهيئين للسجود ، عن رسول الله ﷺ "اقرأوا القرآن بحزن فإنه نزل بحزن " (٤) وعن ابن عباس " إذا قرأتم سجدة

---

(١) الحديث أخرجه بنحوه ابن ماجه فى (إقامة الصلاة باب فى حسن الصوت بالقرآن) من حديث سعد بن أبى وقاص ج ١ ص ٤٢٠ .

(٢) انظر تفسير الإمام القرطبى ج ١١ ص ١٢٠ .

(٣) انظر تفسير الإمام النيسابورى ج ١٦ ص ٦٧ .

(٤) أخرجه ابن ماجه فى سننه كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب فى حسن الصوت بالقرآن ج ١ ص ٤٢٤ حديث رقم ١٣٣٧ .

سبحان ، فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا ، فإن لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه . " (١)

ومعنى بكيا : يقول الإمام أبو السعود : " البكى جمع باك كالسجد جمع ساجد وأصله بكوى فاجتمعت الواو والباء وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو باء وأدغمت الباء فى الباء وحركت الكاف بالكسر المجانس للياء " (٢)

وقد سجد النبى ﷺ عند هذه الآية وسن ذلك لأمته .

يقول الإمام ابن كثير : " قوله تعالى : ﴿ **إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا** ﴾ أى : إذا سمعوا كلام الله المتضمن حججه ودلائله وبراهينه سجدوا لربهم خضوعا واستكانة وشكراً على ما هم فيه من نعم ..
فلهذا أجمع العلماء على شرعية السجود ههنا اقتداء بهم واتباعا لمنوالهم " (٣)

وقوله تعالى : ﴿ **سجداً وبكيا** ﴾ حالان وهما جمع ساجد وباك .

والمعنى : أنهم سقطوا على جباههم ساجدين وباكين خوفا وطمعا وتعظيما لله الرحمن الرحيم .

وجمع سبحانه وتعالى بين السجود والبكاء بالنسبة لهم للإشعار بأنهم مع تعظيمهم الشديد لمقام ربهم ، فهم أصحاب قلوب رقيقة ، وعواطف جياشة بالخوف من الله .

---

(١) انظر تفسير الإمام النيسابورى ج ١٦ ص ٦٧ .

(٢) انظر تفسير أبو السعود ج ٥ ص ٢٧١ .

(٣) انظر تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٢٧ .

وقد وردت آيات كثيرة تدل على أن مـــن صفــات المؤمنيــن الخالص الإيمان أنهم يتأثرون بالقرآن الكريـــم عنــد ســماعهم أو قراءتهم له .

منها قوله عز وجل ﴿ **وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول تــرى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آمنــا فاكتبنا مع الشاهدين** ﴾ [١] **وقوله تعالى :** ﴿ **ويخــرون للأذقــان يبكون ويزيدهم خشوعا** ﴾ [٢] .

قال العلماء : " ينبغي لمن قرأ سجدة أن يدعوا فيها بمــا يليــق بآياتها ، فإن قرأ سورة السجدة ﴿ **الم تنزيل** ﴾ قال : اللهم اجعلنــى من الساجدين لوجهك ، المسبحين بحمدك ، وأعوذ بك أن اكون مــن المستكبرين عن أمرك .

وإن قرأ سجدة ﴿ **سبحان** ﴾ قال : اللهم اجعلنى مـــن البــاكين إليك ، الخاشعين لك . وإن قرأ هذه قال : اللهم اجعلنى من عبــادك المنعم عليهم ، المهديين الساجدين لـــك ، البــاكين عنــد تــلاوة آياتك " [٣]

---

(١) سورة المائدة الآية ٨٣ .

(٢) سورة الإسراء الآية ١٠٩ .

(٣) انظر تفسير الإمام القرطبى ج ١١ ص ١٢١ وتفسير الإمام النيسابورى ج ١٦ ص ٦٧ .

قال تعالى : ﴿ **فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا (٥٩) إلا من تاب وآمن وعمل صالحا فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا (٦٠)** ﴾ .

مدحت الآيات السابقة الأنبياء وهم حزب الله السعداء بجنته القائمون لحدود الله التاركون لنواهيه . أردف بذكر من خلفهم من نسل وذرية ولكنهم أضاعوا الحقوق وانتهكوا الحرمات ونسوا أوامر الله . ثم بين ما حاق بهم من عقاب واستثنى من تاب وأصلح فى عمله .

قوله : ﴿ **فخلف** ﴾ الخلف بسكون اللام عقب السوء وبفتح اللام — عقب الخير . كما قالوا وعد فى ضمان الخير ووعيد فى ضمان الشر .

ومعنى ﴿ **فخلف من بعدهم خلفا** ﴾ أى جاء من بعدهم طبقات وقرون عديدة وقع منهم الخلف .

يقول الإمام المراغى [1] : " كاليهود والنصارى .

وعن ابن عباس رضى الله عنه : هم اليهود تركوا الصلاة المفروضة وشربوا الخمر واستحلوا نكاح الأخت من الأب .

وعن إبراهيم النخعى ومجاهد رضى الله عنهما : أضاعوها بالتأخير ، وينصر الأول قوله : ﴿ **إلا من تاب وآمن** ﴾ يعنى الكفار .

وعن على رضى الله عنه فى قوله : ﴿ **واتبعوا الشهوات** ﴾ من بنى الشديد وركب المنظور وليس المشهور .

وعن قتادة رضى الله عنه : هو فى هذه الأمة .

---

(١) انظر تفسير الإمام المراغى ج ١٦ ص ٦٧ .

وقال الزجاج : هو على حذف المضاف أى جـزاء غـى كقولـه ﴿ **يلق أثاما** ﴾ (١) أى مجازاة أثام .

وقيل ﴿ **غيا** ﴾ عن طريق الجنة . ، وقيل هو واد فى جهنم تستعيذ من أوديتها . " (٢)

عن أبى سعيد الخدرى قال : سمعت رسول الله ﷺ وتلا هـذه الآية قال : " يكون خلف من بعد ستين سنة أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً ، ثم يكون خلف يقرَءون القرآن لا يعدو تراقيهم ، ويقرأ القرآن ثلاثة : مؤمن ، ومنافق ، وفاجر " . (٣)

وعن عقبة ابن عامر قال : سـمعت رسـول الله ﷺ قـال : " سيهلك من أمتى أهل الكتاب وأهل اللبن قلت يارسول الله ما أهـل الكتاب ؟ قال : قوم يتعلمون الكتاب يجادلون به الذيـن آمنـوا . قلت وما أهل اللبن ؟ قال : قوم يتبعون الشـهوات ، ويضيعـون الصلوات " . (٤)

يقول الإمام الأكبر شيخ الأزهر فى قوله تعالى : ﴿ **فخلـف مـن بعدهم خلف** ﴾ المراد بهذا اللفظ فى الأية يقصد ﴿ **خلف** ﴾ " اليـهود والنصارى وغيرهم من المشركين الذين جاءوا بعد أنبيائـهم ، ولكنـهم

---

(١) سورة الفرقان الآية ٦٨ .

(٢) انظر تفسير الإمـام الكشـاف ج ٢ ص ٥١٤ ، ص ٥١٥ وتفسـير الإمـام النيسابورى ج ١٦ ص ٦٧ ، ٦٨ .

(٣) مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ٣٤٥ ، ٣٨٣ .

(٤) اخرجه الإمام احمد فى مسنده ج ٤ ص ١٥٥ .

خالفوا شريعتهم ، وأهملوا ما أمرهم به وما نهوهم عنه ... والمعنى : فخلف من بعد أولئك الأخيار الذين أنعم الله عليهم ، فخلف سوء وشر . ومن الأدلة على سوئهم وفجورهم أنهم ﴿ **أضاعوا الصلاة** ﴾ " (١)

يقول الإمام ابن كثير : " وإذا أضاعوها فهم لما سواها من الواجبات أضيع لأنها عماد الدين وقوامه وخير أعمال العباد ، وأقبلوا على شهوات الدنيا وملاذها ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها فهؤلاء سيلقون غيا أى خسارة يوم القيامة " (٢)

قرأ بن مسعود والحسن والضحاك رضى الله عنهم ﴿ **الصلوات** ﴾ بالجمع .

والمراد بإضاعة الصلاة قولان : ـ

أحدهما : تركها بالكلية .

والثانى : تأخير وقتها أى إضاعة مواقيتها ولو تركها الإنسان لأصبح كافراً . وهو قول ابن مسعود (٣) عندما سئل عن كثرة ذكر الله للصلاة فى القرآن الكريم : ﴿ **الذين هم عن صلاتهم ساهون** ﴾ (٤) و ﴿ **على صلاتهم دائمون** ﴾ (٥) و ﴿ **على صلاتهم يحافظون** ﴾ (٦) .

---

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم للإمام الأكبر د / محمد سيد طنطاوى م ٩ ص ٥١ .

(٢) تفسير الإمام ابن كثير ج ٣ ص ١٢٧ .

(٣) انظر تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٢٧.

(٤) سورة الماعون آية ٥ .

(٥) سورة المعارج آية ٢٣ .

(٦) سورة الأنعام آية ٩٢ .

فقال ابن مسعود على مواقيتها . قالوا ما كنا نرى ذلك إلا على الترك قال ذلك الكفر .

ولا خلاف بين العلماء أن إضاعة الصلاة من الكبائر التى يوبق بها صاحبها .عن أنس بن حكيم الضبى أنه أتى المدينة فلقى أبا هريرة فقال له : يا فتى ألا أحدثك حديث لعل الله تعالى أن ينفعك به ؛ بلى قال : " إن أول ما يحاسب به الناس يوم القيامة من أعمالهم الصلاة فيقول الله تبارك وتعالى لملائكته وهو أعلم انظروا فى صلاة عبدى أتمها أم نقصها فإن كانت تامة كتبت له تامة وإن كان انتقص منها شيئا قال انظروا هل لعبدى من تطوع فإن كان له تطوع قال أكملوا لعبدى فريضته من تطوعه ثم يؤخذ الأعمال على ذلك " . (١)

قوله تعالى : ﴿ **واتبعوا الشهوات** ﴾ الشهوات : عبارة عما يوافق الإنسان ويشتهيه ويلائمه ولا يتقيه . وفى الصحيح " حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات " (٢)

فكان عاقبة أعمالهم وسوء مآلهم أنهم ﴿ **يلقون غيا** ﴾ أى يلقون خيبة وشراً نتيجة أعمالهم .

وجاء فى زاد الميسر : فى الغى ستة أقوال :

أحدهما : أنه واد فى جهنم رواه ابن عباس عن رسول الله ﷺ وبه قال كعب .

والثانى : أنه نهر فى جهنم ، قاله ابن مسعود .

---

(١) أبو داود كتاب الصلاة قول النبى ﷺ كل الصلاة لا يتمه صاحبها من تطوعه ج ١ ص ٢٢٧ ط دار الفكر .

(٢) مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ٢٦٠ عن أبى هريرة .

والثالث : أنه الخسران ، رواه ابن أبى طلحة عن ابن عباس .

والرابع : أنه العذاب ، قاله مجاهد .

والخامس: أنه الشر ، قاله ابن زيد ، وابن السائب .

والسادس : أن المعنى : فسوف يلقون مجازاة الغى كقوله : ﴿ **يلق أثاما** ﴾ (١) أى مجازاة الأثام قاله الزجاج (٢) وحرف ﴿ **سوف** ﴾ دال على أن لقاءهم الغى متكرر فى أزمنة المستقبل مبالغة فى وعيدهم وتحذيراً لهم من الاصرار على ذلك .

يفتح المولى عز وجل باب التوبة على مصراعيه وهى رحمة من رحمات الله عز وجل التى وسعت كل شئ .

يقول عز من قائل : ﴿ **إلا من تاب وآمن وعمل صالحا فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا** ﴾ الآية ٦٠

فتوضح الآية الكريمة أن الذين تابوا أقلعوا عن ذنوبهم وآمنوا بالله وأطاعوه يدخلهم المولى عز وجل الجنة تفضلا منه ورحمة والتوبة تجب ما قبلها وقد أخبرنا رسول الله ﷺ : " التائب من الذنب كمن لا ذنب له " (٣)

قوله تعالى : ﴿ **إلا من تاب** ﴾ أى ندم على ما سلف .

---

(١) سورة الفرقان الآية ٦٨ .

(٢) انظر زاد الميسر ج ٥ ص ١٧١ .

(٣) ابن ماجه كتاب الزهد باب ذكر التوبة ج ٢ ص ١٤١٩ ، ١٤٢٠ حديث رقم ٤٢٥٠ ط دار الحديث بالقاهرة .

يقول صاحب زاد المسير [١] : " أن : ﴿ **تاب** ﴾ فيه قولان :

أحداهما : تاب من الشرك وآمن بمحمد ، قاله مقاتل .

الثانى : تاب من التقصير فى الصلاة ، وآمن من اليهود والنصارى .

وقال الإمام النيسابورى : " قوله تعالى : ﴿ **إلا مـن تـاب ..** ﴾ تدل على أن تارك الصلاة كافر ، وإلا لن يحتج إلى تجديـد الإيمـان . والجواب أنه إذا كان المذكورين هم الكفرة أو اليهود كما رويناه عن ابن عباس سقط الاستدلال " [٢]

وقال أيضا الإمام أبوالسعود : " الآية فى حق الكفرة " [٣]

قوله تعالى : ﴿ **آمن وعمل صالحا** ﴾ أى آمن فـى مسـتقبل عمره من الواجبات والمندوبات .

قوله تعالى : ﴿ **فأولئك** ﴾ أى المنعوتين بالتوبة والإيمان والعمـل الصالح .

قوله تعالى : ﴿ **يدخلون الجنة** ﴾ فى يدخلون قرائتين ، " مـن قرأ ﴿ **يدخلون** ﴾ بضم الياء وفتح الخاء أراد أن الله سبحانه يدخلهم الجنة بأن يأمرهم بدخولها ، وهذا يطابق قوله ولا يظلمون ، ومـن قرأ ﴿ **يدخلون** ﴾ أراد بـهم يدخلونـها بـأمر الله ، والمعنييـن واحد " [٤] ودخولهم الجنة بفضله تعالى ورحمته .

---

(١) انظر زاد المسير ج ٥ ص ١٧١ وانظر أيضا القرطبى ج١١ص١٢٦.

(٢) انظر تفسير الإمام النيسابورى ج ١٦ ص ٦٨ .

(٣) تفسير الإمام أبو السعود ج ٥ ص ٢٧٢ .

(٤) انظر مجمع البيان ج ١٦ ص ٤٩ ، تفسير أبو السعود ج ٥ ص ٢٧٢ .

والمعنى : أنهم يدخلون الجنة بموجب الوعـــد المحتــوم ، أى يدخلهم الله الجنة .

قوله تعالى : ﴿ **ولا يظلمون شيئا** ﴾ " الظلم هنا بمعنى النقـص والإجحاف والمطل ، كقوله ﴿ **كلتا الجنتين أتت أكلها ولـــم تظلـم منه شيئا** ﴾ (١)

وذكر ﴿ **شيئا** ﴾ فى سياق النفى يفيد نفى كل فرد مـــن أفــراد النقص والإجحاف والإبطاء ، فيعلم إنتفاء النقص القـــوى بـــالفجوة دفعا لما عسى أن يخالج نفوسهم من الإتكار بعد الإيمان بظـــن أن سبق الكفر يحط من حسن مصيرهم . (٢)

يقول الإمام النيسابورى (٣) : " يحتمل أن ينضـــب ﴿ **شـيئا** ﴾ علـــى المصدر : أى شيئا من الظلم .

والمعنى : أن المولى عز وجل يخبرنا أن هؤلاء لا ينقصـــون من أعمالهم الصالحة شيئا ، أى أنهم يحصلون على أجور أعمالـــهم كاملة إذا صححوا المعاملة مع ربهم .

---

(١) سورة الكهف الآية ٣٢ .

(٢) انظر التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١٣٦ .

(٣) انظر تفسير الإمام النيسابورى ج ١٦ ص ٦٨ .

قال تعالى : ﴿ **جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا(٦١)لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلا سَلامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا(٦٢)تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا(٦٣)** ﴾

بعد ما ذكر المولى عز وجل أن التائب من الذنب العائد إلى الله يدخل الجنة بدأ **يصف الجنة بعدة أوصاف** كلها غاية فى تعظيم أمرها وشرف قدرها . وهى :

١ـ ﴿ جنات عدن التى وعد الرحمن عباده بالغيب إنه كان وعده مأتيا ﴾

قوله تعالى : ﴿ **جنات عدن** ﴾ جنات : جمع جنة ، وعدن : المكان الذى أقام به ، أى دار خلد وإقامة .

وقرأت ﴿ **جناتُ** ﴾ برفع التاء وعلى الجمع ، وقرأت ﴿ **جنةُ** ﴾ برفع التاء وعلى التوحيد ، وقرأت ﴿ **جنةَ** ﴾ بفتح التاء وعلى التوحيد .

و ﴿ **جنات عدن** ﴾ منصوبة على البدل من قوله : ﴿ **الجنة** ﴾ وهو بدل مطابق لأنه يشمل على جنات كثيرة ووحد ﴿ **جنات** ﴾ فى الآية السابقة وجمع هنا فكأنه جنة تشتمل على جنات ، وقيل لأن لكل واحد من المؤمنين جنة ، تجمعها الجنة العظمى . (١)

وقوله تعالى : ﴿ **التى وعد الرحمن عباده بالغيب** ﴾ أى وعدهم بها ولم يروها فهى غائبة عنهم .

---

(١) انظر زاد المسير ج ٥ ص ١٧٢ ، مجمع البيان ج ١٦ ص ٥٠ والتحرير والتنوير ج ١٦ ص ١٣٦ .

والمراد بالعباد فى قوله ﴿ **عباده** ﴾ المؤمنون كما قال : ﴿ **فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى** ﴾ [١] وقيل إنه يتناول المؤمن والكافر ولكن بشرط رجوع الكافر عن كفره [٢]

ووصفها ب ﴿ **التى وعد الرحمن** ﴾ لزيادة تشريفها وتحسينها قوله تعالى : ﴿ **بالغيب** ﴾ الغيب مصدر غاب فكل ما غاب عن المشاهدة فهو غيب ، فى موضع الحال أى كائنه بالغيب .

ويقول الإمام ابن عجيبة : " الباء فى ﴿ **بالغيب** ﴾ للظرفية أى وعدهم إياها فى الأزمنة الغائبة عنهم ، أى فى الأزل إذ خلقها لهم . " [٣]

ويقول الإمام النيسابورى [٤] : أو الباء للسببية أى وعدها عباده بسبب تصديق الغيب والإيمان به خلاف حال المنافقين وإيمانهم بالغيب ذلك لقوة إيمانهم وشدة إيقانهم .

قوله تعالى : ﴿ **إنه كان وعده مأتيا** ﴾

﴿ **وعده** ﴾ فى هذا الوضع موعوده وهو الجنة مأتيا .بأتية أو لباؤه وأهل طاعتهم الذين يدخلهموها الله .

وقال بعض نحوى الكوفة خرج الخبر على أن الوعد هو المأتى ومعناه أنه هو الذى يأتى ولم يقل وكان وعده أتيا لأن كل ما أتاك فأنت تأتيه " [٥]

---

(١) سورة الفجر آية ٣٠ .

(٢) انظر مجمع البيان ج ١٦ ص ٥١ .

(٣) تفسير البحر المديد ج ١٦ ص ٣٤٨ .

(٤) تفسير الإمام النيسابورى ج ١٦ ص ٦٨ .

(٥) انظر تفسير الإمام الطبرى ج ٨ ص ٧٦ .

قوله تعالى : ﴿ **إنه كان وعده مأتيا** ﴾ تأكيد لحصول ذلك وثبوته واستقراره فإن الله لا يخلف الميعاد ولا يبدله .

﴿ **مأتيا** ﴾ أى العباد صائرون إليه وسيأتونه ومنهم من قال ﴿ **مأتيا** ﴾ بمعنى آتيا لأن كل ما آتاك فقد أتيته كما تقول العرب أتت علىّ خمسون سنة وأتيت على خمسين سنة كلاهما بمعنى واحد . " (١)

والمعنى : أن هذه الجنات جنات إقامة دائمة وخلود واستقرار لا كجنات الدنيا ، لأن فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، جنات وعد الله بها المتقين وهى غائبة عنهم لم يشاهدوها ، ووعد الله لا يخلف وإنه آت لا محالة .

٢ ـ ﴿ لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما ﴾

والمعنى : أن أصحاب الجنة لا يسمعون فيها فضول الكلام وما لا طائل تحته بل يسمعون ما يسلمهم ويسلم أمرهم .

واللغو فى اللغة (٢) من " لغا " أى تكلم ، وقيل : عدل عن الصواب ، وقيل : خاب والأصل الأول . فاللغو هو الفاسد المصرَّح .

يقول الإمام الطبرسي (٣) : " معنى اللغو الهزل وما يلغى من الكلام مثل الفحش والأباطيل .

وجاء فى زاد المسير (٤) أن قوله تعالى : ﴿ **لا يسمعون فيها لغواً** ﴾ فيه قولان :

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٢٩ .
(٢) انظر لسان العرب ج ١٢ ص ٣٠٠ .
(٣) مجمع البيان ج١٢ ص ٥٢ .
(٤) انظر زاد المسير ج ٥ ص ١٧٢ .

أحدهما : أنه التخالف عند شرب الخمر ، قاله مقاتل .

والثانى : ما يلغى من الكلام ويؤثم فيه ، قاله الزجاج .

وقال ابن الأنبارى : " اللغو فى العربية : الفاسد المطَّرح .

والآية فيها تنبيه ظاهر على وجوب تجنب اللغو واتقائه حيث نزه الله عنه الدار التى لا تكليف فيها ، وما أحسن قوله سبحانه : **﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراما ﴾** (1) ــ **﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين ﴾** (2) ــ نعوذ بالله من اللهو والجهل والخوض فيما لا يعنينا " (3)

يقول رسول الله ﷺ : " من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه " (4) .

ومعنى السلام : أى سلام الملائكة عليهم ، وسلام بعضهم على بعض .

والسلام اسم جامع لكل خير لأنه يتضمن السلامة أى يسمعون ما يسلمهم (5)

والسلام ليس من اللغو ولكنهم استثنوه منه على أساس أن العرب تستثنى الشئ بعد الشئ وليس منه ، وذلك أنها تضمر فيه ، فالمعنى : إلا أنهم يسمعون فيها سلاما .

---

(1) سورة الفرقان جزء من الآية ٧٢ .

(2) سورة القصص الآية ٥٥ .

(3) انظر تفسير الإمام الزمخشرى ج ٢ ص ٥١٥ .

(4) وابن ماجه ــ كتاب الفتن باب كف اللسان فى الفتنة ج ٢ ص ١٣١٦ .حديث رقم ٣٩٧٦ .

(5) انظر مجمع البيان ج ١٦ ص ٥٢ ، زاد المسير ج ٥ ص ١٧٤ ، .

وقال ابن الأنبارى : استثنى السلام من غير جنسه ، وفى ذلك توكيد للمعنى المقصود ، لأنهم إذا لم يسمعوا من اللغو إلا السلام ، فليس يسمعون لغوا البتة . (١)

وعن الاستثناء فى الآية يقول معظم المفسرين (٢) عنه : " قوله ﴿ **إلا سلاما** ﴾ استثناء متقطع . والسلام إما بمعناه المعروف . أى : لكن يسمعون تسليم الملائكة عليهم ، أو تسليم بعضهم على بعض ، أو بمعنى الكلام السالم من العيب والنقص . أي : لكن يسمعون كلاما سالما من العيب والنقص ويجوز أن يكون استثناء متصلا ، وهو تأكيد المدح بما يشبه الذم ، كما فى قول الشاعر :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

وهو يفيد نفى سماع اللغو بالطريق البرهانى الأقوى .

والإتصال على هذا على طريق الغرض والتقدير ، لولا ذلك لم يقع موقعه من الحسن والمبالغة .

ويذكر الإمام أبو السعود (٣) : " إن الاستثناء هنا إما أن يكون استثناء منقطعاً وإما على أن معناه الدعاء بالسلامة وهم أغنياء عنه من باب اللغو ظاهراً وإنما فائدته الإكرام .

---

(١) انظر زاد المسير ج ٥ ص ١٧٢ .

(٢) انظر تفسير الإمام الألوسى ج ١٦ ص ١١١ ، الكشاف للزمخشرى ج ٢ ص ٥١٥ وانظر تفسير الإمام الطبرى ج ٨ ص ٧٧ .

(٣) تفسير أبو السعود ج ٥ ص ٢٧٣ .

ويقول الإمام المراغى [1] : " لا يسمع المتقون فيها فضول القول وما لا طائل تحته ، ولكن يسمعون تسليم الملائكة عليهم بما يشعرهم بالأمان والاطمئنان ، وهما منتهى السعادة والدنيا لا طمأنينة فيها ولا استقرار ، فلا سعادة فيها ولا نعيم ، ومن ثم طلب إلينا أن ندعو فى الصلاة بالأمان .

ونقول : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

ولا شك أن تكرار هذه العبارة فى الصلوات يحدث فى النفس أثرا إذا أدركت مغزاها ، ويشعر بأن الله لم يخلق العالم إلا لغاية واحدة وهى الطمانينة ، ولا تكون إلا إذا أمن المرء الفقر والمرض والشيخوخة ، واتى لنا بذلك فى الدنيا ؟ وإنما تكون الطمأنينة لعباده المتقين فى الآخرة وهذا المعنى هو الذى تترجم عنه الجملة ﴿ **السلام عليكم** ﴾ أى أن الأمان سيحققه الله لكم ، بأن يأمن بعضكم بعضا فى الدنيا وفى الاخرة بالخروج من جميع المآزق .

وهذا الدعاء أمنية من أمانى النفوس ، لا تتحقق إلا إذا أمن الإنسان العذاب والعقاب ، وانتهى الحساب وارتفع السوء كالمرض والموت والفقر والذل يوم القيامة .

٣ ـ ﴿ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا ﴾

أى ولهم ما يشتهون من المطاعم والمشارب فى قدر وقت البكرة ووقت العش من نهار أيام الدنيا : أى أن الذى بين غدائهم وعشائهم فى الجنة قدر ما بين غداء أحدنا فى الدنيا وعشائه .

---

(١) تفسير الإمام المراغى ج ١٦ ص ٦٩ .

قال المفسرون : " ليس فى الجنة شمس ولا قمر فيكون لهم بكرة وعشيا والمراد أنهم يؤتون برزقهم على ما يعرفونه من مقدار الغداء والعشاء وقيل كانت العرب إذا أصاب أحدهم الغداء والعشاء أعجبت به ، وكانت تكره الوجبة وهى الأكلة الواحدة فى اليوم ، فأخبر الله تعالى أن لهم فى الجنة رزقهم بكرة وعشيا على قدر ذلك الوقت وليس نهاراً ثم ليلاً وإنما هو ضوء ونور عن قتادة . وقيل إنهم يعرفون مقدار الليل بإرخاء الحجب وإغلاق الأبواب ، ومقدار النهار برفع الحجب وفتح الأبواب " (١)

وبعد أن ذكر المولى عز وجل بعض صفات الجنة وأنها تخالف جنات الدنيا ، **ذكر الدواعى التى توجب استحقاقها** فقال : ﴿ **تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا** ﴾ الآية ٦٣ .

﴿ **تلك** ﴾ اسم الإشارة يعود على ما تقدم من قوله : ﴿ **فأولئك يدخلون الجنة ..** ﴾ . أى هى تلك الجنة العظيمة الشأن ، التى يجعلها الله ميراثا للمتقين من عباد الله الذين يجتنبون النار ويقدمون على الخيرات ويعبدون الله فى السراء والضراء فى السر والعلن .

يقول الإمام ابن عاشور (٢) : " وحقيقة الإرث : انتقال مال القريب إلى قريبه بعد موته لأنه أولى الناس بماله فهو انتقال مقيد بحالة . واستعير هنا للعطية المدخرة لمعطاها تشبيها بمال المورث الذى يصير إلى وارثه آخر الأمر .

---

(١) انظر تفسير الإمام الطبرى ج ٨ ص ٧٧ ومجمع البيان ج ١٦ ص ٥٢ ، زاد المسير ج ٥ ص ١٧٢ .

(٢) انظر التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١٣٨ .

وقال الإمام الطبرسى [1] : " وإنما قال نورث مع أنه ليس بتمليك نقل من غيرهم إليهم ، لأن شبه بالميراث من جهة أنه تمليك بحال استؤنفت عن حال قد انقضت من أمر الدنيا كما ينقض حال الميت من أمر الدنيا . عن الجبائى .

وقيل إنه تعالى أورثهم من الجنة المساكن والمنازل التى كانت لأهل النار لو أطاعوا الله تعالى وأضاف العباد إلى نفسه لأنه أراد المؤمنين . "

يقول الإمام أبو السعود [2] : " وما فى اسم الإشارة من معنى البعد ؛ للإيذان ببعد منزلتها وعلو رتبتها ، أى : تلك الجنة التى وضعت بتلك الأوصاف العظيمة هى ﴿ **التى نورث** ﴾ أى : نورثها .

قال القاضى : فى الآية دلالة على أن الجنة يختص بدخولها من كان متقيا غير مرتكب للكبائر .

وأجيب بمنع الاختصاص ، وبأنه يصدق على صاحب الكبيرة أنه اتقى الكفر . " [3]

---

(١) انظر مجمع البيان ج ١٦ ص ٥٢ . الكشاف ج ٣ ص ٢٨ .

(٢) تفسير أبو السعود ج ٥ ص ٢٧٣ .

(٣) انظر تفسير النيسابورى ج ١٦ ص ٦٩ .

قال تعالى: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إلا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا(٦٤)رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا(٦٥) ﴾

وجه المناسبة لما قبله :

أن المولى عز وجل لما ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام تثبيتا لرسوله محمد ﷺ ، وما نشأ بعدهم من الخلف وذكر جزاء الفريقين ، وكان جبريل عليه السلام هو ملك الوحى الذى يتنزل عليهم ذكر هنا أن نزول الوحى ليس بإختياره وأن تأخره على النبى محمد ﷺ بأمر من الله ولحكمة أرادها الله .

إذ زعم المشركون أن الله ودّعه وقلاه ، والمر ليس كذلك ثم تتحدث الآيات عن ربوبيته تعالى المطلقة للكون كله ، وان إرادته وحده هى النافذة ، والصبر على تكاليفها ونفى الشينة والتطهر .

وفى سبب نزول قوله تعالى : **﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك .. ﴾** ثلاثة أقوال :

أحدهما : أن رسول الله ﷺ قال : " يا جبريل ما يمنعك أن تزورنا " [1] ، فنزلت هذه الآية رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس .

والثانى : أن الملك أبطأ على رسول الله ﷺ ثم أتاه ، فقال : لعلى أبطأت ، قال : " قد فعلت " ، قال : وما لى لا أفعل ،

(١) أخرجه الإمام البخارى فى كتاب التفسير – تفسير سورة مريم ج ٩ ص ١٦٦ دار الشعب .

وأنتم لا تتسوَّكون ، ولا تقصُّون أظفاركم ، ولا تنقُّون براجمكم ، فنزلت الآية . قاله مجاهد .

قال ابن الأنبارى : البراجم عند العرب : العضوض التى فى ظهور الأصابع ، تبدوا إذا جمعت ، وتغمض إذا بُسطت . والرواجب : ما بين البراجم ، بين كل برجمتين راجبة .

والثالث : أن جبريل احتبس عن النبى ﷺ حين سأله قومه عن قصة أصحاب الكهف ، وذى القرنين ، والروح ، فلم يدر ما يجيبهم ، ورجا أن يأتيه جبريل بجواب ، فأبطأ عليه ، فشق على رسول الله ﷺ مشقة شديدة ، فلما نزل جبريل قال له : " أبطأت علىَّ حتى ساء ظنى ، واشتقت إليك " فقال جبريل : إنى كنت أشوق ، ولكنى عبد مأمور ، إذا بعثت نزلت ، وإذا حبست احتبست ، فنزلت هذه الآية ، قاله عكرمة ، وقتادة ، والضحاك . " (١)

وقال الإمام ابن عاشور : " موقع هذه الآية هنا غريب .

فقال جمهور المفسرين : إن سبب نزولها أن جبريل ـ عليه السلام ـ أبطأ أياما عن النزول إلى النبى ﷺ وأن النبى ود أن تكون زيارة جبريل له أكثر مما هو يزوره فقال لجبريل : " ألا تزورنا أكثر مما تزورنا ، فنزلت ﴿ **وما نتنزل إلا بأمر ربك** ﴾ إلى آخر الآية ، أى إلى قوله ﴿ **نسيا** ﴾ ، رواه البخارى والترمذى عن ابن عباس . وظاهره أنه

---

(١) انظر زاد المسير ج ٥ ص ١٧٣ ، تفسير الإمام المراغى ج ١٦ ص ٧١ ، وتفسير الإمام الطبرى ج ٨ ص ٧٧ ، ص ٧٨ ، أسباب النزول للواحدى ص ٢٢٦ ، ص ٢٢٧ .

رواية وهو أصح ما روى فى سبب نزولها وأليقه بموقعها هنا . ولا يلتفت إلى غيره من الأقوال فى سبب نزولها . " (١)

وقال الإمام الألوسى : " ولا يأبى ما تقدم فى سبب النزول ما أخرجه أحمد ، والبخارى والترمذى ، والنسائى ، وجماعة ، فى سببه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ لجبريل : ما يمنعك أن تزورنا فأكثر مما تزورنا ؟ فنزلت ﴿ **وما نتنزل إلا بأمر ربك** ٠٠ ﴾ لجواز أن يكون ﷺ قال ذلك فى محاورته السابقة ــ أيضا ــ واقتصر فى كل رواية على شئ مما وقع فى المحاورة ٠٠٠ " (٢)

وفى سبب احتباس جبريل عن رسول الله ﷺ قولان :

أحدهما : لامتناع أصحابه عن كمال النظافة .

والثانى : لأنهم سألوه عن قصة أصحاب الكهف ، فقال : " وغداً أخبركم " ، ولم يقل : إن شاء الله .

وفى مقدار احتباسه عنه خمسة أقوال : ـ

أحدهما : خمسة عشر يوما . قاله ابن عباس .

الثانى : أربعون يوما ، قاله عكرمة ، ومقاتل .

والثالث : اثنتا عشرة ليلة ، قاله مجاهد .

والرابع : ثلاثة أيام ، حكاه مقاتل .

والخامس : خمسة وعشرون يوما ، حكاه الثعلبى . " (٣)

---

(١) انظر تفسير التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١٣٩ .

(٢) انظر تفسير الإمام الألوسى ج ١٦ ص ١١٤ .

(٣) انظر زاد الميسر ج ٥ ص ١٧٤ .

وقوله تعالى : ﴿ وما نتنزل ﴾ عليك يامحمد ﴿ إلا بأمر ربك ﴾ ، أى وما تنزل الملائكة بالوحى على الرسل وقتا بعد وقت إلا بأمر الله على ما تقتضيه حكمته ، وتدعوا إليه مصلحة عباده ، ويكون فيه الخير لهم فى دينهم ودنياهم .

والتنزيل : النزول على مهل . فإنه مطاوع نزل ـ بالتشديد يقال : نزلته فتنزل ، إذا حدث النزول على مهل وتدرج .

وقد يطلق بمعنى النزول مطلقاً إلا أن المناسب هنا النزول على مهل .

والتنزيل : هو النزول بالشئ ، يقال : نزل الملك بكذا وتنزل ، ولا يقال : نزل الله بكذا ولاتنزل .

و ﴿ **نتنزل** ﴾ مرادف تنزل ، وأصل التنزّل : تكلف التنزيل فأطلق ذلك على نزول الملائكة من السماء إلى الأرض لأنه نزول نادر وخروج عن عالمهم فكأنه متكلف ، قال تعالى : ﴿ **تنزل الملائكة والروح فيها** ﴾ (١) .

والمفسرون على أن قوله : ﴿ **وما نتنزل إلا بأمر ربك** ﴾ قول جبريل .

وحكى الماوردى : أنه قول أهل الجنة إذا دخلوها ، فالمعنى : ما تنزل هذه الجنان إلا بأمر الله . وقيل : ما ننزل موضعا من الجنة إلا بأمر الله . " (٢)

وذكر نفس المعنى الإمام القرطبى وقال : " إذا كان إخبار من أهل الجنة أنهم يقولون عند دخولها : وما نتنزل هذه الجنان إلا بأمر ربك .

(١) سورة القدر جزء من الآية ٤ .وانظر التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١٤٠ .

(٢) انظر تفسير زاد المسير ج ٥ ص ١٧٤ .

وعلى هذا تكون الآية متصلة بما قبل . وعلى ما ذكرنا من الأقوال . [1] قيل تكون متصلة بما قبلها ، والقرآن سور ، ثم السور تشتمل على جمل ، وقد تنفصل جملة عن جملة .

﴿ **وما نتنزل** ﴾ أي قال الله تعالى : قل يا جبريل ﴿ **وما نتنزل إلا بأمر ربك** ﴾ وهذا يحتمل وجهين : أحدهما : إنا إذا أمرنا نزلنا عليك . **الثاني** : إذا أمرك ربك نزلنا عليك ، فيكون الأمر على الوجه الأول متوجها إلى النزول ، وعلى الوجه الثاني متوجها إلى التنزيل . " [2]

يقول الإمام ابن عاشور : " ولا شك أن النبي ﷺ قال ذلك لجبريل ــ عليه السلام ــ عند انتهاء قصص الأنبياء في هذه السورة فأثبتت الآية في الموضع الذي بلغ إليه نزول القرآن والضمير لجبريل والملائكة ، أعلم الله نبيه على لسان جبريل أن نزول الملائكة لا يقع إلا عن أمر الله تعالى وليس لهم اختيار في النزول ولقاء الرسل ، قال تعالى : ﴿ **لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون** ﴾ [3] . " [4]

قوله تعالى : ﴿ **له** ﴾ أي : الله ، واللام في ﴿ **له** ﴾ للملك ، وهو ملك التصرف .

---

(١) الروايات التي تذكر لنا تأخر نزول جبريل على رسول الله ﷺ .

(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي ج ١١ ص ١٢٩ .

(٣) سورة الأنبياء الآية ٢٧ .

(٤) انظر التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١٣٩ ، ١٤٠ .

﴿ **ما بين أيدينا** ﴾ أى علم ما بين أيدينا أى ما قدمنا من الزمـــان المستقبل ﴿ **وما خلفنا** ﴾ : أى من الزمان الماضى ﴿ **وما بين ذلـــك** ﴾ : هو الزمان الحاضر .

ويقول معظم المفسرين إن فى قوله ﴿ **ما بين أيدينا وما خلفنـــا** ﴾ قولان :

أحدهما : ما بين أيدينا : الأخره ، وما خلفنا : الدنيا .

والثانى : ما بين أيدينا : ما مضى من الدنيا ، وما خلفنا من الآخـــرة ،

فهو عكس ما بين أيدينا قبل أن نخلق ، وما خلفنا بعد الفناء ,

وفى قوله تعالى : ﴿ **وما بين ذلك** ﴾ ثلاثة أقوال :

أحدها : ما بين الدنيا والآخرة .

والثانى : ما بين النفختين .

والثالث : حين كوينا .

والإشارة إلى شيئين :

أحدهما : ﴿ ما بين أيدينا ﴾ .

والثانى : ﴿ **ما خلفنا** ﴾ لأن العرب ترفع ذلك على الإثنين والجمع .

وأضاف الإمام القرطبى : " ﴿ **وما بين أيدينا** ﴾ أى ما بين السماء والأرض ، ﴿ **له ما بين أيدينا** ﴾ يريد الدنيا إلى الأرض .﴿ **ومـــا خلفنا** ﴾ يريد السماوات ، ﴿ **وما بين ذلك** ﴾ يريد الهواء وقيـــل مـــا مضى مكن أعمارنا وما غبر منها ، والحال التى نحن فيها . " (١)

---

(١) انظر زاد المسير ج ٥ ص ١٧٤ ، تفسير الإمـــام القرطبـــى ج ١١ ص ١٢٩ . ، وتفسير الإمام النيسابورى ج ١٦ ص ٧٠ .

وقوله تعالى :   تعليل من الملك أى أنه تعالى هو المدبر لنـــا فـــى جميع الأزمنة مستقبلها وماضيها وحاضرها ,

وقصارى ذلك أن أمرنا موكول إلى الله تعالى يتصرف فينا بحســب مشيئته وإرادته لا اعتراض لأحد عليه ، فلا ننتقل من مكان إلى مكان ، ولا ننزل فى زمان دون زمان إلا بإذنه عز وجل . " (١)

ثم أكد المولى عز وجل كمال علمه فى جميع الأزمـــان الحـــاضرة والماضية والمستقبلة بإثبات قدرته وعلمه فقال عز من قائل : ﴿ **ومـــا كان ربك نسيا** ﴾ أى وما كان المولى عز وجل ناسيا تاركا لك يــامحمد فهو لا يغيب عنه مثقال حبة فى السماوات ولا فى الأرض .

يقول الإمام القرطبى : " إذا شاء أن يرسل إليك أرســل . وقيــل : المعنى لم ينسك وإن تأخر عنك الوحى . وقيل المعنى : أنه عالم بجميع الأشياء متقدمها ومتأخرها ولا ينسى شيئا منها . " (٢)

فتبين الآية الكريمة مدى إحاطة علم الله بملكه ، وأنه عز وجــل لا يطرأ عليه غفلة ولا نسيان حتى يغفل عنك وينساك ويتأخر عنـــك بوحيه ، وإنما كان تأخير الوحى لحكمة علمها جل شأنه ولم يكن تركــه تعالى إهمالا وتوديعا كما زعمت الكفرة .

و ﴿ **نسيا** ﴾ صيغة مبالغة من نسى ، أى كثير النسيان وفى إعــادة اسم الرَب المضاف إلى ضميره ﷺ من تشريفه والإشعار بعلية الحكـــم ما لا يخفى .

---

(١) انظر تفسير الإمام المراغى ص ٧١ .

(٢) انظر تفسير الجامع لأحكام القرآن ج ١١ ص ١٣٠ .

أخرج أبن المنذر وابن حاتم وابن مردوية والطبرانى فى جماعة آخرين عن أبى الدرداء مرفوعا قال : " ما أحل الله فى كتابه فهو حلال ، وما حرمه فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عافية ، فاقبلوا من الله عافيته ، فإن الله لم يكن لينسى شيئا ثم تلا : ﴿ **وما كان ربك نسيا** ﴾ [١].

ثم أقام الدليل على ما تقدم بقوله : ﴿ **رب السماوات والأرض وما بينهما** ﴾ فلا ربوبية لغيره ولا شريك معه فى هذا الكون الكبير فهو رب السماوات والأرض وما بينهما ، خالقهما ومالكهما ومالك كل شئ .

يقول الإمام أبو السعود : " ﴿ **رب السماوات والأرض وما بينهما** ﴾ بيان لاستحالة النسيان عليه تعالى فإن من بيده ملكوت السماوات والأرض وما بينهما كيف يتصور أن يحوم حول ساحة سبحاته الغفلة والنسيان وهو خبر مبتدأ محذوف أو بدل من ربك . " [٢]

ويقول الإمام الطبرى [٣] : " يقول تعالى ذكره لم يكن ربك يا محمد رب السماوات والأرض وما بينهما نسيا لأنه لو كان نسيا لم يستقم ذلك ولهلك لولا حفظه إياه فالرب مرفوع ردا على قول ربك "

ويقول الإمام ابن عاشور : قوله تعالى : ﴿ **رب السماوات والأرض ..... سميا** ﴾ " جملة مستانفة من كلام الله تعالى كما يقتضيه قوله ﴿ **فاعبده** ﴾ إلى آخره ذيل به الكلام الذى لقنه جبريل

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٣١ .

(٢) انظر تفسير الإمام أبو السعود ج ٥ ص ٢٧٢ . وانظر تفسير الكشاف ج ٢ ص ١١٦ .

(٣) تفسير الأمام الطبرى ج ١٦ ص ٧٩ .

المتضمن : أن الملائكة لا يتصرفون إلا عن إذن ربهم وأن أحوالهم كلها فى قبضته بما يفيد عموم تصرفه تعالى فى سائر الكائنات ، ثم فرع عليه أمر الرسول ــ عليه السلام ــ بعبادته ، فقد انتقل الخطاب إليه . . .

والسماوات : العوالم العلوية . والأرض : العالم السفلى ، وما بينهما : الأجواء والأفاق . وتلك الثلاثة تعم سائر الكائنات . " (١)

قوله تعالى : ﴿ **فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً** ﴾ قال علي ابن أبى طلحة عن ابن عباس هل تعلم للرب مثلا أو شبيها . وكذلك قال مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وابن حريج وغيرهم ، وقال عكرمة عن ابن عباس ليس أحد يسمى الرحمن غيره تبارك وتعالى وتقدس اسمه " (٢)

وهنا الآية الكريمة تبين ما ينبغى أن يفعل بعد أن عرف ملكية المولى عز وجل للكون بأسره فيخاطب رسوله الكريم ويأمره بالعبادة والصبر عليها . أى و " بعد أن علمت أنه الرب المسيطر على ما فى السماوات والأرض وما بينهما القابض على أعنتها ، فاعبده ودم على مشاق العبادة وشدائدها ، وإياك أن يصدُّك عنها ما يحدث من إبطاء الوحى وتقوُّل المشركين الخرّاصين عن سببه " (٣)

والعبادة فى الإسلام ليست مجرد الشعائر ، إنما هى كل نشاط وكل نية ، خالصة لله وهى الطاعة والخضوع للمالك المنعم .

---

(١) التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١٤١ ، ص ١٤٢ .

(٢) تفسير الإمام ابن كثير ج ٣ ص ١٣١ .

(٣) انظر تفسير الإمام المراغى ج ١٦ ص ٧٢.

وتفريع الأمر بعبادته على ذلك ظـــاهر المناســبة ويحصـــل منـــه التخلص إلى التنويه بالتوحيد وتفظيع الإشـــراك .والاصطبــار : شـــدة الصبر على الأمر الشاق ، لأن صيغة الافتعال ترد لإفادة قوة العقـــل . وكان الشأن أن يعدى الاصطبار بحرف (علـــى) كمـــا قـــال تعـــالى ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾ (١) ولكنه عدى هنـــا بـــاللام لتضمينه معنى الثبات ، أى أثبت للعبادة ، لأن العبادة مراتب كثيرة مـــن مجاهدة النفس . وقد يغلب بعضها بعض النفوس فتستطيع الصبر علـــى بعض العبادات دون بعض كما قال النبى ﷺ فى صلاة العشاء : " هـــى أثقل صلاة على المنافقين " (٢)

فلذلك لما أمر الله رسوله بالصبر على العبادة كلها وفيها أصنـــــاف جمة تحتاج إلى ثبات العزيمة ، نزل القائم بالعبادة منزلة المغالب لنفســه فعدى الفعل باللام كما يقال : أثبت لعُداتك . " (٣)

يقول الإمام القرطبى " ﴿ فـــاعبده ﴾ أى وحّـــده لذلـــك . وفـــى هذا دلالة على أن اكتسابات الخلق مفعولـــة لله تعـــالى ؛ كمـــا يقـــول أهل الحق ، وهو القول الحـــق ؛ لأن الـــرب فـــى هـــذا الموضـــع لا يمكن حمله على معنى من معانيه إلا على المـــالك ، وإذا ثبـــت أنـــه مالك ما بين السماوات والأرض دخل فـــى ذلـــك اكتســـاب الخلـــق ،

---

(١) سورة طه الآية ١٣٢ .

(٢) انظر صحيح الإمام البخارى ج ١ كتاب مواقيت الصلاة بـــاب ذكـــر العشـــاء والعتمـــة ص ١٤٧ ، مســـند احمـــد ج ٢ ص ٤٢٤ ، ٤٧٢ ، ٥٣١ ، ج ٥ ص ١٤٠ ، ١٤١ .

(٣) التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١٤٢ ، ص ١٤٣ .

ووجبت عبادته ؛ لما ثبت أنـــه المـــالك علـــى الإطـــلاق ، وحقيقـــة العبادة الطاعة بغاية الخضوع ولا يســـتحقها أحـــد ســـوى المـــالك المعبـــود .

قولـــه : ﴿ **واصطـــبر لعبادتـــه** ﴾ أي لطاعتـــه ولا تحـــزن لتأخير الوحى عنك ، بل اشتغل بما أمـــرت بـــه .

وأصل اصطبر اصتبر ، فثقـــل الجمـــع بيـــن التـــاء والصـــاد لاختلافهما فأبدل من التـــاء طـــاء ؛ كمـــا تقـــول مـــن الصـــوم : اصطـــلم . " [1]

قوله تعالى : ﴿ **هل تعلم له سميا** ﴾ الاستفهام هنا المراد بـــه الإنكار والنفى والخطاب هنا أيضا لرسول الله ﷺ . والســـمى هـــو النظير والشبيه والمولى عز وجل ﴿ **ليس كمثله شئ وهو الســـميع البصير** ﴾ [2]فلا يستحق أحد العبادة معه أو الطاعـــة فـــهو وحـــده المستحق للعبادة والطاعة .

يقول الإمام القرطبى : " قال ابن عباس : يريد هل تعلم له ولـــدا أو نظيرا أو مثيلا ؛ أو شبيها يستحق مثل اسمه الذى هو الرحمن .

وقال مجاهد : مأخوذ من المساماة وروى اسرائيل عن ســـماك عن عكرمة عن ابن عباس قال : هل تعلم أحدا سمى الرحمن . قال النحاس : وهذا أجل إسناد علمته روى فى هذا الحرف ، وهو قـــول صحيح ؛ لا يقال الرحمن إلا الله ....

---

(١) انظر تفسير الإمام القرطبى ج ١١ ص ١٣٠ ؟

(٢) سورة الشورى الآية ١١ .

روى ابن أبى نجيح عن مجاهد ﴿ هل تعلم له سميا ﴾ قال : مثلا ابن المسيب : عدلا قتادة والكلبى : هل تعلم أحداً يسمى الله تعالى غـير الله ، أو يقال له الله . وهل بمعنى لا ؛ أى لا تعلم . والله تعالى أعلم . " [1]

والتسمية تقتضى التسـوية بيـن المتشـابهين ، ولا مثـل لـه والمشركين مع علوهم فى المكابرة لم يسموا أى صنم بالجلالة ولـم يتجاسروا على ذلك .

يقول الإمام ابن عاشور : " والسمى هنا الأحسن أن يكون بمعنـى المسامى ، أى المماثل فى شئونه كلها .

فعن ابن عباس أنه فسره بالنظير ، مأخوذ من المساماة فهو فعيـل بمعنى فاعل ، لكنه أخذ من المزيد .

وقيل السمى : المماثل فى الاسم ، كقوله فى ذكر يحيى **﴿ لم نجعل له من قبل سميا ﴾** [2] والمعنى : لا تعلم له مماثلا فى اسـمه **﴿ الله ﴾** فإن المشركين لم يسموا شيئا من أصنامهم **﴿ الله ﴾** باللام وإنما يقولون للواحد منها إله فانتفاء تسمية غيره من الموجودات المعظمة باسمه كناية عن اعتراف الناس بأن لا مماثل له فى صفة الخالقية لأن المشركين لـم يجترئوا على أن يدعوا لآلهتهم الخالقية .

قال تعالى : **﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولـون الله ﴾** [3] وبذلك يتم كون الجملة تعليلا للأمر بإفراده بالعبادة على هـذا الوجه أيضا .

---

(۱) انظر الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبى ج ۱۱ ص ۱۳۰ .

(۲) سورة مريم آية ۷ .

(۳) سورة لقمان الآية ۲٥ .

وكنى **بانتفاء العلم بسميه** عن انتفاء وجود سمى له ، لأن العلم يستلزم وجود المعلوم ، وإذا انتفى مماثله انتفى من يستحق العبـــادة غيره . (١)

ومن هنا نقول إن المولى عز وجل ليس له مماثل فى كـــل شئ فى علمه وحكمه واسمه وقدرته وعفوه وخلقه وكرمه وجـــوده وإحسانه ورب الكون عاليه وسافله رب السماوات والأرض ومـــا يكون بينهما ، رب جميع الكائنات لذا فهو المستحق للعبادة وحـــده ومن ثم يجب تعظيمه والإعتراف بربوبيتـــه والخضـــوع لســـلطانه واللجوء إليه . والله أعلم

---

(١) انظر تفسير التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١٤٣ ، ١٤٤ .

قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا(٦٦)أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا(٦٧)فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا(٦٨)ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا(٦٩)ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا(٧٠)وَإِنْ مِنْكُمْ إِلا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا(٧١)ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا(٧٢) ﴾

بعد أن أمر سبحانه بالعبادة والمصابرة عليها على ما فيها من مشاق وشدائد ــ أبان فائدة ذلك وهى أنها تنجيهم يوم الحشر يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، وهو يوم لا ريب فيه ولا وجه لإنكاره فإن إعادة الإنسان أهون من بدئه ، ثم ذكر ما يلقاه الكافرون يومئذ من الذل والهوان ، ثم أردف ذلك ببيان أن جميع الخلائق ترد على النار ولا ينجو منها إلا من اتقى ربه وأخلص فى عمله . " [١]

يقول الإمام ابن عاشور فى علاقة هذه الآيات لما قبلها : " لما تضمن قوله ﴿ **فاعبده واصطبر لعبادته** ﴾ إبطال عقيدة الإشراك به ناسب الانتقال إلى إبطال أثر من آثار الشرك . وهو نفى المشركين وقوع البعث بعد الموت حتى يتم انتقاض أصلى الكفر .

فالواو عاطفة قصة على قصة ، والإتيان بفعل ﴿ **يقول** ﴾ مضارعا لاستحضار حالة هذا القول للتعجب من قائله تعجيب إنكار . " [٢]

---

(١) انظر تفسير الإمام المراغى ج ١٦ ص ٧٣ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١٤٤ .

ويقول الإمام الواحدى فى سبب نزول قوله تعالى : ﴿ ويقول الإنسان ﴾ الآية " قال الكلبى نزلت فى أبى بن خلف حين أخذ عظاما بالية يفتها بيده ويقول زعم لكم محمد أنا نبعث بعدما نموت " (١)

ومن العلماء من يرى أنها نزلت فى الوليد بن المغيرة ، أو فى العاص بن وائل ، أو فى أبى جهل .

وعلى كل واحد من هذه الأقوال تكون (أل) فى ﴿ الإنسان ﴾ للعهد ، والمراد بها أحد هؤلاء الأشخاص ، ويكون لفظ الإنسان من قبيل العام الذى أريد به الخصوص .

ومن الأساليب العربية المعروفة ، إسناد الفعل إلى المجموع مع أن فاعله بعضهم لا جميعهم كما يقال : بنوا فلان قتلوا فلانا مع أن القاتل واحد منهم ، ومن هذا القبيل قول سيوف بنى عبس " وقد ضربوا به نبت بيدى ورقاء من رأس خالد " فقد لأسند الضرب إلى بنى عبس مع أنه صرح بأن الضارب هو ورقاء الذى كان السيف بيده .

وقيل : المراد بالإنسان هنا : جماعة معينون وهم الكفرة المنكرون للبعث أو المراد : جنس الكافر المنكر للبعث " (٢)

والمعنى : يقول الكافر الذى لا يصدّق بالبعث بعد الموت متعجبا مستبعداً : أأخرج حيا مرة أخرى فأبعث بعد الموت والبلى ؟ وأسند القول إلى الكفرة جميعا وإن لم يقل هذه المقالة إلا بعضهم ، من حيث رضاهم عن هذا المقال وسكوتهم عن إنكاره كما سلف لك من قبل .

---

(١) أسباب النزول للواحدى ص ٢٢٧ .

(٢) وتفسير الإمام القرطبى ج ١١ ص ١٣١ والتفسير الوسيط م ٩ ص ٥٦ .

واللام فى ﴿ لسوف أخرج حيا ﴾ كأنه قيل له : إذا مـــا مــت لسوف تبعث حيا فقال : ﴿ أئذا ما مت لسوف أخرج حيا ﴾ قـــال ذلك منكرا فجاءت اللام فى الجواب كما كانت فى القـــول الأول ، ولو كان مبتدئا لم تدخل اللام ؛ لأنها للتأكيد والإيجاب وهو منكــر للبعث .

وقرأ ابن زكوان ﴿ إذا ما مت ﴾ على الخبر . والباقون بالاستفهام على أصولهم فى الهمز . وقرأ الحسن وأبو حيوة : **﴿ لسوف أخـــرج حيا ﴾** ؛ قاله استهزاء لأنهم لا يصدقون بالبعث . " [1] .

وقوله تعالى : **﴿ لسوف أخرج حيا ﴾** إن قيل : ظـــاهره ظـــاهر سؤال ، فأين جوابه ؟ فعنه ثلاثة أجوبة ذكرها ابن الأنبارى :

أحدها : أن ظاهر الكلام استفهام ، ومعناه معنى جحد وإنكار تلخيصه : لست مبعوثا بعد الموت .

والثانى : أنه لما استفهم بهذا الكلام عن البعث ، أجابه الله عــز وجــل بقوله : **﴿ أو لا يذكر الإنسان ﴾** ، فهو مشتمل على معنـــى : نعم ، وأنت مبعوث .

والثالث : أن جواب سؤال هذا الكافر فى يسن عند قوله عـــز وجـــل : **﴿ وضرب لنا مثلا ﴾** [2] ، ولا ينكر بعد الجواب ، لأن القرآن كله بمنزلة الرسالة الواحدة ، والسورتان مكيتان . " [3]

---

(١) انظر تفسير الإمام القرطبى ج ١١ ص ١٣١ .

(٢) سورة يس الآية ٧٨ .

(٣) تفسير زاد المسير ج ٥ ص ١٧٦ .

قوله تعالى : ﴿ **أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا** ﴾ الآية ٦٧ .

والمعنى : أى أو لا يتذكر هذا الجاحد حال ابتداء خلقه فيستدل بالابتداء على الإعادة ، وقيل إن الإنسان هنا مفرد فى اللفظ مجموع فى المعنى يريد جميع منكرى البعث .

﴿ **ولم يك شيئا** ﴾ معناه ولم يك شيئا كائنا أو مذكورا .

والاستفهام للتوبيخ والتقريع . والواو للعطف على مقدر .

والآية الكريمة ترد على كل جاحد للبعث بدليل منطقى برهانى يهدى القلوب إلى الحق ، ويقنع العقول بأن البعث حق وصدق ومما لا شك فيه أن إعادة الخلق أيسر من الخلق من العدم .

وفى معنى هذه الآية الكريمة جاءت آيات أخرى كثيرة منها قوله تعالى ﴿ **ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون** ﴾ (١) .

وفى الحديث القدسى : يقول الله تعالى : كذبنى ابن آدم ولم يكن له أن يكذبنى ، وآذانى ابن آدم ولم يكن له أن يؤذينى ، أما تكذيبه إياى فقوله لم يعيدنى كما بدأنى ، وليس أول الخلق بأهون علىّ من آخره ، وأما أذاه إياى فقوله : إن لى ولدا وأنا الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد " . (٢)

سؤال : قيل كيف تدل النشأة الأولى على النشأة الثانية ؟ والواحد منا يقدر على أفعاله كالحركات والسكنات والأصوات وغيرها ولا يقدر على إعادتها ؟ .

---

(١) سورة الواقعة الآية ٦٢ .

(٢) انظره فى صحيح الإمام البخارى ج ٦ كتاب التفسير ، تفسير سورة البقرة ص ٢٤ ، احمد فى مسنده ج ٢ ص ٣١٧ ، ص ٣٥٠ .

والجواب : من وجوه :

أحدها : أنه سبحانه خلق الأجسام والحياة فيها والبقاء جائز عليها ، فيجب أن يقدر على إعادتها بخلاف أفعالنا فإنها لا تبقى ولا يصح الاعادة عليها .

والثانى : أن الابتداء أصعب من الإعادة ، فإذا كان قادرا على الابتداء فلأن يكون قادراً على الإعادة أولى .

والثالث : أنه سبحانه استدل بخلق الأجسام على أنه قادر لذاته اذ القادر بقدرة لا يصح منه فعل الأجسام ، وإذا كان قادراً لذاته ويقدر على إيجاد ما يصح وجوده وقت أن قدر على إعادته . " [1]

ولما قرر القضية وأقام عليها الدليل أردفها بالتهديد من وجوه فقال :

١ ـ ﴿ **فوربك لنحشرنهم والشياطين** ﴾ الفاء تفريع على جملة ﴿ **أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل** ﴾ ، باعتبار ما تضمنته من التهديد . وواو القسم لتحقيق الوعيد .

والقسم بالرب مضافا إلى ضمير المخاطب وهو النبى ﷺ إدماج لتشريف قدره .

وضمير ﴿ **لنحشرنهم** ﴾ عائد إلى الإنسان والمراد به الجنس المفيد للاستغراق العرفى . أى لنحشرن المشركين .

وعطف الشياطين على ضمير المشركين لقصد تحقيرهم بأنهم يحشرون مع أحقر جنس وأفسده ، وللإشارة إلى أن الشياطين هم سبب

---

(١) انظر تفسير مجمع البيان ج ١٦ ص ٥٧ .

ضلالهم الموجب لهم هذه الحالة ، فحشرهم مع الشياطين إنذار لهم بـأن مصيرهم هو مصير الشياطين وهو محقق عند الناس كلهم . فلذلك عطف عليه جملة ﴿ **ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا** ﴾ والضمير للجمع .

وأقسم الرب بذاته الكريمة أنه حاشرهم جميعا وشياطينهم الذين كانوا يعبدونهم من دون الله .

وفى قسمه على جمعهم وسوقهم إلى المحشر دون القسم على بعثهم تنبيه إلى أن ذلك غنى عن الإثبات بعد أن أقام البرهان على إمكانه ، وإنما الذى يحتاج إلى ذلك ما بعده من الشدائد والأهوال .

٢ ـ ﴿ **ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا** ﴾ الآية ٦٨ .

أى ثم لنحضرنهم بعد طول الوقوف حول جهنم من خارجها ـ جاثين على ركبهم إهانة لهم ، أو لعجزهم عن القيام لما حل بهم من المكاره والأهوال .وهذا إعداد آخر للتقريب من العذاب فهو إنذار على إنذار وتدرج فى إلقاء الرعب فى قلوبهم .

فحرف ﴿ **ثم** ﴾ للترتيب الرتبى لا للمهلة إذ ليست المهلة مقصودة وإنما المقصود أنهم ينقلون من حالة عذاب إلى أشد .

و ﴿ **جثيا** ﴾ حال من ضمير ﴿ **لنحضرنهم** ﴾ ، والجُثى : جمع جاث ووزنه فُعول مثل : قاعد وقعود وجالس وجلوس ، وهو وزن سماعى فى جمع فاعل ، فأصل جثى جثوو ـ بواوين ـ لأن فعله واوى ، يقال : جثا يجثو إذا برك على ركبتيه وهى هيئة الخاضع الذليل ، فلما اجتمع فى جثوو واوان استقلا بعد ضمة الثاء فصير إلى تخفيفه بإزالة سبب الثقل السابق وهو الضمة فعوضت بكسر الثاء ، فلما كسرت الثاء تعين قلب الواو الموالية لها ياء للمناسبة فاجتمع الواو

والياء وسبق أحدهما بالسكون فقلبت الواو الأخرى ياء وأدغمتا فصار جثى .

وقرأ حمزة ، والكسائى ، وحفص ، وخلف ـ بكسر الجيم ـ وهو كسر إتباع لحركة الثاء .

وهذا الجثو هو غير جثو الناس فى الحشر المحكى بقوله تعالى : ﴿ وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها ﴾ (١)

فإن ذلك جثو خضوع لله ، وهذا الجثو حول جهنم جثو مذلة . " (٢)

أى لنحضرنهم بعد طول الوقوف حول جهنم من خارجها راكعين على ركبهم إهانة لهم ، أو لعجزهم عن القيام لما حل بهم من المكاره والأهوال .

٣ ـ ﴿ ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتياً ﴾ الآية ٦٩ .

أى لتأخذن من كل جماعة منهم من هو أشد على الرحمن الذى غمرهم بإحسانه ـ تكبرا ومجاوزة للحدود التى سنها لخلقه .

وقصارى ذلك ـ أن الله تعالى يحضرهم أولا حول جهنم ثم يميز بعضهم عن بعض ، فمن كان أشدهم تمردا فى كفره ، خص بعذاب أعظم ، فعذاب الضال المضل فوق عذاب من يضل بالتبع لغيره .

جاء فى زاد المسير : " قوله تعالى : **﴿ لننزعن من كل شيعة ﴾** أى : لنأخذن من كل فرقة وأمة وأهل دين **﴿ أيهم أشد على الرحمن**

---

(١) سورة الجاثية آية ٢٨ .

(٢) انظر التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١٤٧ .

عتيا ﴾ أى أعظمهم له معصية ، والمعنى : أنه يبدأ بتعذيب الأعتى فالأعتى ، وبالأكابر جرما ، والرؤوس القادة فى الشر .

قال الزجاج : وفى رفع ﴿ **أيهم** ﴾ ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه على الاستئناف ، ولم تعمل : ﴿ **لننزعن** ﴾ شيئا وهذا قول يونس .

والثانى : أنه على معنى الذى يقال لهم : أيهم أشد على الرحمن عتيا ؟ قال الخليل ، واختاره الزجاج ، وقال : التأويل : لننزعن الذى من أجل عتوه يقال : أى هؤلاء أشد عتيا . ...

والثالث : أن ﴿ **أيهم** ﴾ مبنية على الضم ، لأنها خالفت أخواتها فالمعنى : أيهم هو أفضل .وبيان خلافها لأخواتها أنك تقول : اضرب أيهم افضل . ولا يحسن : اضرب من أفضل ، حتى نقول : من هو أفضل ، ولا يحسن : كل ما أطيب ، حتى نقول : ما هو أطيب ، ولا خذ ما أفضل ، حتى تقول : الذى هو أفضل ، فلما خالفت ﴿ **ما** ﴾ و ﴿ **من** ﴾ و ﴿ **الذى** ﴾ بنيت على الضم ، قاله سيبوبة . " (١)

والنزع العزل والإخراج . يقال : نزع السلطان عامله ، إذا عزله وأخرجه من عمله ، والشيعة فى الأصل : الجماعة من الناس يتعاونون فيما بينهم على أمر من الأمور ، يقال : تشايع القوم ، إذا تعاونوا فيما بينهم .

و ﴿ **عتيا** ﴾ أى : خروجا عن الطاعة والاستجابة للأمر ، يقال : عتا فلان يعتو عتوا ــ من باب قعد ــ فهو عات إذا استكبر وجاوز حدوده فى العصيان والطغيان .

---

(١) انظر زاد المسير ج ٥ ص ١٧٧ .

قال الجمل ما ملخصه : " وأظهر الأعاريب فى قوله : ﴿ أيهم أشد ﴾ أن ﴿ أى ﴾ موصوله بمعنى الذى . وأن حركتها حركة بناء ــ أى هى مبنية على الضم ــ وأشد خبر مبتدأ مضمر .

والجملة صلة لأى . وأيهم وصلتها فى محل نصب مفعولا به لننزعن وعتيا تمييزاً محول عن المبتدأ المحذوف الذى هو أشد ، أى : جراءته على الرحمن أشد من جراءة غيره " (١) .

قال تعالى : ﴿ **ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا** ﴾ الآية ٧٠ .

أى نحن العالمون بظواهر أعمالهم وبواطنها ، وبما اجترحوا من السيئات ، وبما دسوا به أنفسهم من الموبقات ، من هم أولى بجهنم دخولا واحتراقا ، فتبدأ بهم أولا ثم بمن يليهم .

وخلاصة هذا ــ إنهم جميعا يستحقون العذاب ، لكنا ندخلهم فى جهنم بحسب عتيهم وتجبرهم فى كفرهم . " (٢)

والآية هنا تبين مدى شمول علم الله ــ تعالى ــ بأحوال هؤلاء الجاحدين ، وبأحوال غيرهم .

و ﴿ **صليا** ﴾ مصدر صلى النار ــ كرض ــ يصلاها صليا ــ بكسر الصاد وضمها ــ إذا ذاق حرها ، واكتوى بها . " (٣)

والمولى عز وجل أعلم بمن هو أولى بصليها وأحق بدخولها ، وهم المتنازعون الذين هم أشدهم عتواً ، أو رؤوسهم ، فإن عذابهم مضاف لضلالهم وإضلالهم .

---

(١) انظر حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٧٣ .

(٢) انظر تفسير المراغى ج ١٦ ص ٧٥ .

(٣) تفسير الإمام القرطبى ج ١١ ص ١٣٥ .

ثم خاطب المولى عز وجل الناس جميعا مبينا لهم أن الجميع سيرد جهنم فقال :

﴿ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ﴾ الآية ٧١ .

يقول الإمام الطبرى : " وإن منكم أيها الناس إلا وارد جهنم كان على ربك يامحمد ايرادهموها قضاء مقضيا قد قضى ذلك وأوجبه فى أم الكتاب " (١)

وفى الكلام إضمار تقديره : وما منكم أحد إلا وهو واردها .

وفيمن عُنى بهذا الخطاب قولان :

أحدهما : أنه عام فى حق المؤمن والكافر ، هذا قول الأكثرين .

وثانيهما : ما روى عن ابن عباس أنه قال : هذه الآية للكفار .

وأكثر الروايات عنه كالقول الأول .

قال ابن الأنبارى : ووجه هذا أنه لما قال : **﴿ لنحضرنهم ﴾** **وقال : ﴿ أيهم أشد على الرحمن عتيا ﴾** كان التقدير ، وإن منهم ، فأبدلت الكاف من الهاء ، كما فعل فى قوله : **﴿ إن هذا كان لكم جزاء ﴾** (٢) المعنى : كان لهم ، لأنه مردود على قوله : **﴿ وسقاهم ربهم ﴾** (٣) . " (٤)

يقول الإمام النيسابورى : " **﴿ وإن منكم ﴾** الخطاب للناس من غير التفات أو للإنسان المذكور ، فيكون التفاتا " وذلك لإظهار مزيد

---

(١) تفسير الإمام الطبرى ج ١٦ ص ٨١ .

(٢) سورة الإنسان الآية ٢٢ .

(٣) سورة الإنسان الآية ٢١ .

(٤) تفسير زاد المسير ج ٥ ص ١٧٧ .

الاعتناء بمضمون الكلام " [1] وعلى التقديرين فإن أريد الجنس كله لم يكن فى قوله ﴿ **ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا** ﴾ إشكال ؛ ولكنه يشكل بأن المؤمنين كيف يردون النار .

وأجيب بما روى عن جابر بن عبد الله سأل رسول ﷺ عن ذلك فقال : " إذا دخل الجنة قال بعضهم لبعض : أليس وعدنا ربنا أن نرد النار فيقال لهم : قد وردتموها وهى خامدة " [2] .

وعنه أيضا ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال : " الورود الدخول ، لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمنين برداً وسلاما كما كانت على إبراهيم حتى إن للناس ضجيجا من بردها " [3] .

وأما قوله ﴿ **أولئك عنها مبعدون** ﴾ فالمراد عن عذابها وعن ابن عباس برودتها كأنها إهالة .

ومنهم من لم يفسر الورود هنا بالدخول لأن ابن عباس قال : قد يرد الشئ الشئ ولم يدخله ، كقوله تعالى : ﴿ **ولما ورد ماء مدين** ﴾ [4] ومعلوم أن موسى لم يدخل الماء ولكنه قرب منه ، ويقال : وردت القافلة البلد : إذا قربت منه ، فالمراد بالورود جثوّهم حولها .

---

(١) تفسير أبو السعود ج ٥ ص ٢٧٦ .

(٢) صحيح الإمام مسلم بشرح النووى ج ١٧ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، احمد فى مسنده ج ١ ص ٢٧ و ج ٣ ص ١٠٤ ، ص ١٨٢ .

(٣) اخرجه احمد فى المسند ج ٣ ص ٣٢٩ والحاكم فى المستدرك الأهوال ج ٤ ص ٥٨٧ ، والبيهقى فى الشعب ج ١ ص ٣٣٦ من حديث جابر بن عبد الله والحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبى ، وقال الهيثمى فى المجمع ج ٧ ص ٥٥ رواه احمد ورجاله ثقات .

(٤) سورة القصص الآية ٢٣ .

وعن **ابن مسعود والحسن وقتادة** : هو الجواز على الصراط ، لأن الصراط ممدود عليها ، وعن مجاهد هو مس الحمى جسده فى الدنيا .

قال ﷺ : " الحمى من فيح جهنم " وفى رواية " الحمى حظ كل مؤمن من النار " (١)

وإن أريد بالناس أو بالإنسان الكفرة فلا إشكال فى ورودهم النار ، ولكنه لا يطابقه قوله ﴿ **ثم ننجى الذين اتقوا** ﴾ .

ووجه بأنه أراد أن المتقين يساقون إلى الجنة عقيب ورود الكفار ، لا أنهم يوردونها ثم يتخلصون .

ـ **فإن سأل سائل** : كيف يندفع عنهم ضرر النار عند من فسر الورود بالدخول ؟

زعم بعضهم أن البقعة المسماة بجهنم لا يمتنع أن يكون فى خلالها مواضع خالية عن النار أشباه الطرق إلى دركات جهنم والمؤمنون يردون تلك المواضع . والأصح أنه سبحانه يزيل عنه طبيعة الإحراق بالنسبة إلى المؤمنين وهو على كل شئ قدير ولهذا لا تضر النار الملائكة الموكلين بالعذاب .

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه ـ كتاب بدأ الخلق باب صفة النار وأنها مخلوقة غساقا يقال غسقت عنه وغسقت الجرح عن أبى جمرة الضبعى قال كنت أجالس ابن عباس بمكة فأخذتنى الحمى فقال أجردوها عنك بماء زمزم فإن رسول الله ﷺ قال : " فأبيدوها بالماء أو قال بماء زمزم شك همام ج ٤ ص ١٤٦ ط الشعب .

والرواية الأخرى انظر مجمع الزوائد وكشف الخفاء ومزيل الإلباس .

ـ **فإن سأل سائل** : ما الفائدة فى إيراد المؤمنين النار إذا لم يعذبوا بها ؟

فيه وجوه .

منها : أن يزدادوا سرورا إذا رأوا الخلاص منها . ومنها افتضاح الكافرين إذا طلع المؤمنون عليهم . ومنها أن المؤمنين يوبخون الكفار ويسخرون منهم كما سخروا فى الدنيا ومنها أن يزيد التذاذهم بالجنة ، فبضدَها تتبين الأشياء .

هل ثبت فى الأخبار كيفية دخول النار ثم خروج المتقين منها ؟

قد ثبت أن المحاسبة تكون فى الأرض أو فى موضعها لقوله ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض ﴾ (١) وجهنم قريبة من الأرض والجنة فى السماء ، فالاجتماع يكون فى موضع الحساب ثم يدخلون من ذلك الموضع إلى جهنم ، ثم يرفع الله أهل الجنة ويبقى أهل النار فيها .

قلت : هذا على رأى الفلاسفة الإسلاميين ظاهر ، فالمحاسبة تكون فى الأرض ، ومرور الكل يكون على كرة النار ، ثم يرفع أهل الكمال إلى السماء ويبقى الكفرة فى النار ، ويؤيده قوله ﴿ كان ﴾ أى الورود " (٢)

وقد رجح الإمام الطبرى أن الورود للجميع فقال : " وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب قول من قال يردها الجميع ثم يصدر

---

(١) سورة إبراهيم جزء من الآية ٤٨ .

(٢) تفسير الإمام النيسابورى ج ١٦ ص ٧٦ ، ص ٧٧ .

عنها المؤمنون فينجيهم الله ويهوى فيها الكفار ، وورودهمومها هو ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ من مرورهم على الصراط المنصوب على متن جهنم . فناج مسلم ومكروس فيها " (١)

وخلاصة الكلام أن فى الورود خمسة أقوال :

الأول : أنه الدخول .

والثانى : أن الورود هو الممر عليها قال ابن مسعود : يرد الناس النار ثم يصدون عنها بأعمالهم فأولهم كلمح البرق ، ثم كالريح ثم كحُضر الغرس ، ثم كشد الرحل ، ثم كمشبيه

وفى صحيح مسلم : " ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة فيقولون اللهم سلم سلم ؛ ، قيل : يارسول الله وما الجسر ؟ قال : " دحض فيه مزلة فيه خطاطيف وكلاليب وحسك تكون بنجد فيها شويكة يقال لها السعدان فيمر المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب فناج مسلم ومخدوش مرسل ومكدوس فى نار جهنم ،، " (٢) .

والثالث : أن ورودها : حضورها .

والرابع : أن ورود المسلمين : المرور على الجسر ، وورود المشركين : دخولها .

والخامس : أن ورود المؤمن إليها : ما يصيبه من الحمى .

---

(١) تفسير الإمام الطبرى ج ١٦ ص ٨١ .

(٢) وقد ذكر الإمام القرطبى ما ذكر فى صحيح مسلم ج ١١ ص ١٣٧ وانظر الحديث فى صحيح مسلم بشرح النووى ج ٣ كتاب الإيمان باب رؤية الله سبحانه وتعالى فى الآخرة ص ٢٩ ، ص ٣٠ .

ورجح الإمام القرطبى أن المراد بالورود الدخول فقال : " وظاهر الورود الدخول ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام : " فتمسه النار " لأن المسيس حقيقة فى اللغة المماسة ، إلا أنها تكون برداً وسلاماً على المؤمنين ، وينجون منها سالمين .

قال خالد بن معدان : إذا دخل أهل الجنة الجنة قالوا ألم يقل ربنا : إنا نرد النار ؟ فيقال : لقد وردتموها فألفيتموها رمادا .

قلت : وهذا القول يجمع شتات الأقوال ؛ فإن من وردها ولم تؤذه بلهبها وحرها فقد أبعد عنها ونجى منها . نجانا الله تعالى منها بفضله وكرمه ، وجعلنا ممن وردها فدخلها سالما ، وخرج منها غانما . " (١)

فإن قيل : فهل يدخل الأنبياء النار ؟

قلنا لا نطلق هذا ، ولكن نقول : إن الخلق جميعا يردونها كما دل عليه حديث جابر أول الباب ؛ فالعصاة يدخلونها بجرائمهم ، والأولياء والسعداء لشفاعتهم فبين الدخولين بون .

وقال ابن الأنبارى محتجا لمصحف عثمان وقراءة العامة : جائز فى اللغة أن يرجع من خطاب الغيبة إلى لفظ المواجهة بالخطاب ؛ كما قال : ﴿ **وسقاهم ربهم شرابا طهورا * إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا** ﴾ (٢) فأبدل الكاف من الهاء . " (٣)

---

(١) انظر تفسير الإمام القرطبى ج ١١ ص ١٣٩ .

(٢) سورة الإنسان جزء من الآية ٢١ .

(٣) انظر تفسير الإمام الطبرى ج ١٦ ص ٧٥ وتفسير الإمام القرطبى ج ١١ ص ١٣٩ وتفسير الإمام النيسابورى ج ١٦ ص ٧٧ .

قوله تعالى : ﴿ **كان على ربك** ﴾ **يعنى** الورود ﴿ **حتما** ﴾ والحتم : ايجاب القضاء ، والقطع بالأمر . والمقضى : الذى قضاه الله تعالى ، والمعنى : إنه حتم ذلك وقضاه على الخلق . " [1]

قوله تعالى : ﴿ **ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا** ﴾ الآية ٧٢ .

أى : ثم بعد دخول الناس جميعا النار ، ننجى الذين اتقوا ، فنخرجهم منها دون أن يذوقوا حرها ونترك الظالمين فى النار خالدين مخلدين فيها . راكعين على ركبهم عاجزين عن الحركة من شدة ما يصيبهم من هولها وسعيرها .

يقول الإمام أبو السعود : " ﴿ **ثم ننجى الذين اتقوا** ﴾ الكفر والمعاص مما كانوا عليه من حال الجثو على الركب على الوجه الذى سلف فيساقون إلى الجنة وقرئ ننجي بالتخفيف وينجى على البناء للمفعول وقرئ ثمة ننجى بفتح التاء أى هناك ننجيهم ﴿ **ونذر الظالمين** ﴾ بالكفر والمعاص ﴿ **فيها جثيا** ﴾ منهاراً بهم كما كانوا قبل فيه دليل على أن المراد بالورود الجثو حواليها وأن المؤمنين يفارقون الفجرة بعد تجاثيهم حولها ويلقى الفجرة فيها على هيآتهم . " [2]

يقول الإمام الطبرى : " يقول تعالى ذكره ثم ننجي من النار بعد ورود جميعهم اياها الذين اتقوا فخافوه بأداء فرائضه واجتناب

---

(١) انظر زاد المسير ج ٥ ص ١٧٩ .

(٢) تفسير أبو السعود ج ٥ ص ٢٧٦ .

معاصيه ونذر الظالمين فيها جثيا يقول جل ثناؤه وندع الذين ظلموا أنفسهم فعبدوا غير الله وعصوا ربهم وخالفوا أمره ونهيه فى النار جثيا يقول بروكا على ركبهم " (١)

وهذه الآية يحتج بها القائلون حول جميع الخلق ، لأن النجاة : تخليص الواقع فى الشئ ، ويؤكده قوله تعالى : ﴿ **ونذر الظالمين فيها** ﴾ ولم يقل : وندخلهم ؛ وإنما يقال : نذر وترك لمن قد حصل فى مكانه . ومن قال : إن الورود للكفار خاصة ، قال : معنى هذا الكلام : نخرج المتقين من جملة من يدخل النار . والمراد بالمتقين الذين اتقوا الشرك ، وبالظالمين الكفار . " (٢)

---

(١) تفسير الإمام الطبرى ج ١٦ ص ٨٦ ، ص ٨٧ .

(٢) انظر زاد المسير ج ٥ ص ١٧٩ .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا(٧٣)وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا(٧٤) ﴾

بعد أن أقام سبحانه الحجية على مشركى قريش المنكرين للبعث بعد الفناء ، وللعودة إلى حياة أخرى ــ أتبعه بذكر شبهة أخرى قالوها وعارضوا بها حجة الله التى يشهد بصحتها كل منصف ، ويعتقدها من له أدنى مُسْكة من عقل .

تلك أنهم قالوا : لو كنتم على الحق وكنا على الباطل لكان حالكم فى الدنيا أحسن وأطيب من حالنا ، من قبل أن الحكيم لا يجدر به أن يوقع المخلصين من أوليائه فى الذل والمهانة ، وأعداءه فى العز والراحة ، لكنها نجد الأمر على العكس من هذا فإن نحن الذين يمتعون برفاهية العيش والرخاء والنعيم وأنتم فى ضنك وفقر وخوف وذل ، فهذا دليل على أنا على الحق وأنتم على الباطل .

وقد رد عليهم مقالتهم بأن الكافرين قبلكم وكانوا أحسن منكم حالا ، وأكثر مالا ، قد أبادهم الله وأهلكهم بعذاب الاستئصال فدل هذا على أن نعم الدنيا لا يرشد إلى محبة الله لمن أوتوه ، ولا إلى أنهم مصطفون له من بين خلقه .

روى أن قائل هذه المقالة النصر بن الحرث ومن على شاكلته من قريش للمؤمنين من أصحاب النبى ﷺ وكانوا فى خشونة من العيش وفى رثاثة من الثياب ، وهم كانوا يرجلون شعورهم ويلبسون فاخر الثياب .

ثم أمر الله رسوله ﷺ أن يجيب هـؤلاء المفتخرين بحظوظهم الدنيوية ببيان مآل الفريقين يوم القيامة ، وأن ما كان للمشركين فى الدنيا من المال وسعة الرزق فإنما ذلك استدراج وإمهال من الله لهم ، ثم يلقون النكال والوبال فى جهنم وبئس القرار . " (١)

يقول الإمام أبو السعود : " الآية التى آخرها حكاية لما قالوا عند سماع الآيات الناعية عليهم فظاعة حالهم ووخامة مآلهم أى و إذا تتلى على المشركين ﴿ **آياتنا** ﴾ التى من جملتها تيك الآيات الناطقة بحسن حال المؤمنين وسوء حال الكفرة .

وقوله تعالى : ﴿ **بينات** ﴾ أى مرتلات الألفاظ مبينات المعانى بنفسها أو ببيان الرسول ﷺ أو بينات الإعجاز حال مؤكدة من آياتنا . " (٢)

وقوله : ﴿ **وإذا تتلى عليهم** ﴾ يعنى المشركين الكافرين .

ومعناه إذا تتلى على المشركين آيات الله المنزلة فى القرآن الكريم ﴿ **قال الذين كفروا** ﴾ أى الذين جحدوا آيات الله وكذبوا أنبياءه ﴿ **للذين آمنوا** ﴾ أى الذين صدقوا بآيات الله مستفهمين لهم وغرضهم الانكار أى الفريقين ، أى نحن أم أنتم خير منزلا ومسكنا أى موضع إقامة ﴿ **وأحسن نديا** ﴾ أى مجلسا والندى والنادى : مجلس القوم ومجتمعهم .

وقال الفراء : الندى والنادى ، لغتان . ومعنى الكلام : أنحن خير ، أم أنتم ، فافتخروا عليهم بالمساكن والمجالس ، فأجابهم الله تعالى فقال :

---

(١) انظر تفسير الإمام المراغى ج ١٦ ص ٧٦ ، ص ٧٧ .

(٢) انظر تفسير أبو السعود ج ٥ ص ٢٧٦ .

﴿ **وكم أهلكنا قبلهم من قرن** ﴾ وهذا تنبيه منه سبحانه وتعالى على فساد اعتقادهم .

والأثاث المتاع وزينة الدنيا ، ﴿ **ورئيا** ﴾ قرأ ابن كثير ، وعاصم وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائى : ﴿ **ورئيا** ﴾ بهمزة بين الراء والياء فى وزن : ﴿ **رِعيا** ﴾ ؛ قال الزجاج : ومعناها : منظراً ، من ﴿ رأيت ﴾ .

وقرأ نافع ، وابن عامر : ﴿ **ريا** ﴾ بياء مشددة من غير همز، قال الزجاج : لها تفسيران . أحدهما : أنها بمعنى الأولى والثانية : بمعنى أنها من الرى ، فالمعنى : منظرهم مرتو من النعمة ، كأن النعيم بين فيهم .

وقرأ ابن عباس ، وأبو المتوكل ، وأبو الجوزاء ، وابن أبى سريج عن الكسائى : (زيا) بالزاى المعجمة مع تشديد الياء من غير همز . قال الزجاج ومعناها : حسن هيئتهم . "[١]

وخلاصة هذا ــ إن كثيرا ممن كانوا أعظم منكم نعمة فى الدنيا كعاد وثمود وأضرابهم من الأمم العاتية قد أهلكهم الله ، فلو صدق ما تدعون من أن النعمة فى الدنيا تدل على الكرامة عند الله ، ما أهلك أحد من المتنعمين بها .

وفى هذا تهديد ووعيد لا يخفى ، وكأنه قد قيل : فليرتقب هؤلاء ، فسيحل بهم مثل ما حل بمن قبلهم من المثلات .

---

(١) انظر تفسير مجمع البيان ج ١٦ ص ٦٤ ، تفسير زاد المسير ج ٥ ص ١٨٠ .

ثم أمر عز اسمه نبيه أن يجيب هؤلاء المفتخرين بقوله : **﴿ قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا * حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا ﴾** الآية ٧٥

هذا جواب قولهم **﴿ أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا ﴾** لقن الله رسوله ﷺ كشف مغالطاتهم أو شبهتهم فأعلمهم بأن ما هم فيه من نعمة الدنيا إنما هو إمهال من الله إياهم . لأن ملاذ الكافر استدراج .

فمعيار التفرقة بين النعمة الناشئة عن رضى الله تعالى على عبده وبين النعمة التى هى استدراج لمن كفر به هو النظر إلى حال من هو فى نعمة بين حال هدى وحال ضلال .

قال تعالى فى شأن الأولين : **﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾** (١) .

وقال فى شأن الآخرين **﴿ أيحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين تسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون ﴾** (٢)

والمعنى أن الله تعالى جعل جزاء ضلالته أن يتركه فيها . قال ابن الأنبارى : خاطب الله العرب بلسانها ، وهى تقصد التوكيد للخبر بذكر الأمر ، يقول أحدهم : إن زارنا عبد الله فلنكرمه ، يقصد التوكيد ، وينبه على أنى ألزم نفسى إكرامه ؛ ويجوز أن تكون اللام لام الدعاء على معنى : قل يامحمد : من كان فى الضلالة فاللهم مدّ له فى العمر مدا .

---

(١) سورة النحل الآية ٩٧ .

(٢) سورة المؤمنون آية ٥٥ .

قال المفسرون : ومعنى مد الله تعالى له : إمهاله فى الغىّ .

وأضاف ذلك إلى نفسه لأنه سبحانه يبقيه فى الدنيا ، أى فليعش ما شاء الله من السنين والأعوام فإنه لا ينفعه طول عمره . " (١)

ويقول الإمام الألوسى : " قوله : ﴿ **فليمدد له الرحمن مدا** ﴾ أى : يمد ـ سبحانه ـ له ويمهله بطول العمر ، وإعطاء المال ، والتمكن من التصرفات ، فالطلب فى معنى الخبر للإنذار بأن ذلك مما ينبغى أن يفعل بموجب الحكمة لقطع المعاذير فيكون حاصل المعنى : من كان فى الضلالة فلا عذر له فقد أمهله الرحمن ومد له مدا ويجوز أن يكون ذلك للاستدراج .

وحاصل المعنى : من كان فى الضلالة فعادة الله أن يمد له ويستدرجه . " (٢)

والمد : حقيقته إرخاء الحبل وإطالته . ويستعمل مجازاً فى الإمهال كما هنا ، وفى الإطالة كما فى قولهم : مد الله فى عمرك .

و ﴿ **مدا** ﴾ مفعول مطلق مؤكد لعامله ، أى فليمدد له المدّ الشديد ، فينتهى ذلك .

و ﴿ **حتى** ﴾ لغاية المد ، وهى ابتدائية ، أى يمد له الرحمن إلى أن يروا ما يوعدون ، أى لا محيص لهم عن رؤية ما أوعدوا من العذاب ولا يدفعه عنه طول مدتهم فى النعمة .

فتكون الغاية مضمون الجملة التى بعدها ﴿ **حتى** ﴾ لا لفظا مفردا .

---

(١) انظر زاد المسير ج ٥ ص ١٨٠ ، ومجمع البيان ج ١٦ ص ٦٤ ، ص ٦٥ .

(٢) انظر تفسير الإمام الألوسى ج ٦ ص ١٢٦ .

والتقدير : يمد لهم الرحمن حتى يروا العذاب فيعلموا من هو أسعد ومن هو أشقى .

وحرف الاستقبال لتوكيد حصول العلم لهم حينئذ وليس للدلالة على الاستقبال لأن الاستقبال استفيد من الغاية .

و ﴿ **إما** ﴾ حرف تفصيل ل ﴿ **يوعدون** ﴾ ، أى ما أوعدوا من عذاب إما عذاب الدنيا وإما عذاب الآخرة ، فإن كل واحد منهم لا يعدوا أن يرى أحد العذابين أو كليهما .

وانتصب لفظ (العذاب) على المفعولية ل ﴿ **يروا** ﴾ .

وحرف ﴿ **إما** ﴾ غير عاطف ، وهو معترض بين العامل ومعموله .

..... وقوله ﴿ **شر مكانا و أضعف جندا** ﴾ مقابل قولهم ﴿ **خير مقاما وأحسن ندبا** ﴾ فالمكان يرادف المقام ، والجند الأعوان ، لأن الندى اريد به أهله ....

فقوبل ﴿ **خير ندبا** ﴾ ب ﴿ **أضعف جندا** ﴾ . " (١)

والمراد بالعذاب فى الآية : العذاب الدنيوى بالقتل والأسر وغلبة أهل الإيمان عليهم .

وأما الساعة : فهو يوم القيامة وما ينالهم فيه من الخزى والهوان .

ثم ذكر المولى عز وجل فريق أهل الإيمان فقال عز من قائل :

﴿ **ويزيد الله الذين آمنوا هدى والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير مردا** ﴾ الآية ٧٦ .

والمعنى : كما يمد لأهل الضلالة ؛ زيادة فى ضلالهم كذلك يمد ويزيد الذين اهتدوا إلى الإيمان هدى بما ينزل عليهم من الآيات ثوابا على طاعتهم ؛ لأن كل فريق يجزى بوصفه .

---

(١) انظر تفسير التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١٥٦ ، ص ١٥٧ .

يقول الإمام أبو السعود فى هذه الآية : " كلام مستأنف سيق لبيان حال المهتدين إثر بيان حال الضالين ، وقيل : عطف على فليمدد لأنه فى معنى الخبر حسبما عرفته كأنه قيل من كان فى الضلالة يمده الله ويزيد المهتدين هداية كقوله تعالى : ﴿ **والذين اهتدوا زادهم هدى** ﴾ (١) وقيل عطف على الشرطيه المحكية بعد القول كأنه لما بين أن إمهال الكافر وتمتعه بالحياة ليس لفضله عقب ذلك ببيان أن قصور حظ المؤمن منها ليس لنقصه بل لأنه تعالى أراد به ما هو خير من ذلك . " (٢)

ويقول الإمام القرطبى فى قوله تعالى : ﴿ **ويزيد الله الذين اهتدوا هدى** ﴾ " أى ويثبت الله المؤمنين على الهدى ويزيدهم من النصرة وينزل من الآيات ما يكون سبب زيادة اليقين مجازاة لهم .

وقيل : يزيدهم هدى بتصديقهم بالناسخ والمنسوخ الذى كفر به غيرهم ؛ قال معناه الكلبى ومقاتل .

ويحتمل ثالثا : أى " ويزيد الله الذين اهتدوا إلى الطاعة ﴿ **هدى** ﴾ إلى الجنة ؛ والمعنى متقارب . " (٣)

ويقول الإمام الطبرى فى معنى الآية قولاً جميلا وهو : " ويزيد الله من سلك قصد الحجة واهتدى بسبيل الرشد فآمن بربه وصدق بآياته فعمل بما أمر به وانتهى عما نهى عنه هدى بما يتجدد له من الإيمان بالفرائض التى يفرضها عليه ويقر بلزوم فرضها إياه ويعمل بها فذلك زيادة من الله فى اهتدائه بآياته هدى على هداه وذلك نظير قوله :

---

(١) سورة محمد جزء من الآية ١٧ .

(٢) انظر تفسير أبو السعود ج ٥ ص ٢٧٨ .

(٣) انظر تفسير الإمام القرطبى ج ١١ ص ١٤٤ ، ص ١٤٥ .

﴿ وإذا أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادهم إيمانا وهم يستبشرون ﴾ (١) وقد كان بعضهم يتأول ذلك ويزيد الله الذين اهتدوا هدى بناسخ القرآن ومنسوخه فيؤمن بالناسخ كما آمن من قبل بالمنسوخ فذلك زيادة هدى من الله له على هداه من قبل . " (٢)

وقوله تعالى : **﴿ والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير مردا ﴾** أى : والطاعات التى بها تنشرح الصدور ، وتستنير القلوب ، وتصل إلى القرب من الله ، ونيل رضوان خير عند ربك منفعة وعاقبة مما منع به أولئك الكفرة من النعم الفانية التى تفخرون بها من مال وولد وجاه ومنافع تحصل منها ، فإن عاقبة الأولين السعادة الأبدية ، وعاقبة أولئك الحسرة الدائمة والعذاب المقيم .

وخلاصة هذا ـ إن الطاعات التى يبقى ثوابها لأهلها خير عند ربهم جزاءاً وخير عاقبة من مقامات هؤلاء المشركين بالله وأنديتهم التى بها يفخرون على أهل الإيمان فى الدنيا .

ويقول الإمام ابن عاشور : " وجملة **﴿ والباقيات الصالحات خير ﴾** عطف على جملة **﴿ ويزيد الله الذين اهتدوا هدى ﴾** وهو ارتقاء من بشارتهم برفع الدرجات أى الباقيات الصالحات

---

(١) سورة التوبة آية ١٢٤ .

(٢) انظر تفسير جامع البيان فى تفسير القرآن ج ١٦ ص ٩٠ .

خير مـــن الســـلامة مـــن العـــذاب التـــى اقتضاهـــا قولـــه تعـــالى :

﴿ **فسيعلمون من هو شر مكانـــا وأضعـــف جنـــدا** ﴾ ، أى فســـيظهر أن ما كان فيه الكفرة من النعمة والعزة هـــو أقـــل ممـــا كـــان عليـــه المسلمون من الشظف والضعـــف باعتبـــار المـــآلين إذ كـــان مـــآل الكفرة العذاب ومـــآل المؤمنيـــن الســـلامة مـــن العـــذاب وبعـــد فللمؤمنين الثـــواب .

و ﴿ **الباقيات الصالحات** ﴾ : صفتان لمحـــذوف معلـــومَ مـــن المقام .

أى الأعمال الباقى نعيمها وخيرهـــا والصالحـــات لأصحابـــها هى خير عند الله من نعمة النجاة مـــن العـــذاب ...

والمرد : المرجع والمراد به عاقبـــة الأمـــر . "(١)

(١) انظر تفسير التحرير والتنوير ج ١٥ ص ١٥٨ .

قال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا(٧٧)أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا(٧٨)كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا(٧٩)وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا(٨٠) ﴾ .

بعد أن ذكر سبحانه الدلائل على صحة البعث ، ثم أورد شبه المنكرين له وأجاب عنها بما فيه مقنع لكل ذى لب ــ قفى على ذلك بذكر مقالتهم التى قالوها استهزاءً وطعنا فى القول بالحشر والبعث .

"وهذا تفريع على قوله ﴿ **ويقول الإنسان أإذا ما مت لسوف أخرج حيا** ﴾ وما اتصل به من الاعتراض والتفريعات .

والمناسبة : أن قائل هذا الكلام كان فى غرور مثل الغرور الذى كان فيه أصحابه ــ وهو غرور إحالة البعث . " (١)

وذكر الواحدى (٢) فى سبب نزول هذه الآيات أنها نزلت فى قصة خباب بن الأرت مع العاص بن وائل ففى الصحيحين (٣) : حدثنا عبد الله بن هاشم قال حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبى الضحى عن مسروق بن خباب ابن الأرث قال كان لى دين على العاص بن وائل فأتيته أتقاضاه فقال لا والله حتى تكفر بمحمد قلت لا والله لا أكفر بمحمد

(١) انظر التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١٥٨ .

(٢) انظر أسباب النزول للإمام الواحدى ص ٢٢٧ ، ص ٢٢٨ .

(٣) اخرجه الإمام البخارى كتاب البيوع ذكر القين والحداد ج ٣ ص ١٢٠، تفسير سورة مريم ج ٩ ص١٦٧ . وصحيح مسلم بشرح الإمام النووى كتاب صفات المنافقين وأحكامهم باب ٤ ج ١٧ ص ١٣٨ ، ص ١٣٩ .

حتى تموت ثم تبعث قال إني إذا مت ثم بعثت جئتني وسيكون لي ثم مال وولد فأعطيك فأنزل الله هذه الآية .

حدثنا وكيع قال حدثنا الأعمش عن أبى الضحى عن مسروق عن حباب قال كنت رجلا قينا [١] وكان لى على العاص بن وائل دين فأتيته أتقاضاه قال لا أقضيك حتى تكفر بمحمد ـ عليه السلام ـ فقلت لا أكفر حتى تموت وتبعث فقال وإنى لأموت وأبعث بعد الموت فسوف أقضيك إذا رجعت إلى مالى قال فنزلت فيه افرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولداً .

ومعظم المفسرين [٢] على ما سبق من سبب النزول

ورجح الإمام القرطبى كلام المفسرين فى نزولها بشأن خباب بن الأرت مع العاص بن وائل لأنه مدون فى الصحيحين [٣]

وقد أضاف صاحب كتاب زاد المسير ومجمع البيان قولاً آخر وهو أن الآية نزلت فى الوليد بن المغيرة وقال إن هذا الرأى مروى عن الحسن [٤]

---

(١) القين : الحداد والصانع ، والجمع أقيان وقيون . انظر لسان العرب ج ٥ ص ٣٧٩٨ .

(٢) انظر تفسير الألوسى ج ١٦ ص ١٢٩ وتفسير القرطبى ج ١١ ص ١٤٥ ، وتفسير مجمع البيان ج ١٦ ص ٦٨ ، وتفسير التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١٥٨ ، تفسير المراغى ج ١٦ ص ٨٠ .

(٣) تفسير القرطبى ج ١١ ص ١٤٦ .

(٤) انظر زاد المسير فى علم التفسير لأبى الفرج محمد الجوزى ج ٥ ص ١٨١ ومجمع البيان ج ١٦ ص ٦٩ .

يقول الإمام الطبرى عند ذكر هذه الآية : " يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ أفرأيت يامحمد الذى كفر بآياتنا حججنا فلم يصدق وأنكر وعيدنا من أهل الكفر ، وقال وهو بالله كافر وبرسوله لأوتين فى الآخرة مالا وولدا وذكر أن هذه الآيات أنزلت فى العاص بن وائل الهمى أبى عمرو بن العاص " (١)

قوله تعالى : ﴿ أفرأيت ﴾ كلمة تعجيب ومعناها أرأيت هذا الكافر الذى كفر بأدلتنا من القرآن وغيره ، وهو العاص بن وائل وقيل الوليد بن المغيرة ··· وقيل هو عام فيمن له هذه الصفة عن أبى مسلم . " (٢) فالهمزة للتعجب من حاله للإيذان بأنها من الغرابة والشناعة بحيث يجب أن ترى ويقض منها العجب ومن فرق بين ألم تروا وأرأيت بعد بيان اشتراكهما فى الاستعمال لقصد التعجيب بأن الأول يعلق بنفس المتعجب منه فيقال ألم تر إلى الذى صنع كذا بمعنى انظر إليه فتعجب من حاله ، والثانى يعلق بمثل المتعجب منه فيقال أرأيت مثل الذى صنع كذا بمعنى أنه من الغرابة بحيث لا يرى له مثل فقد حفظ شيئا وغابت عنه اشياء وكأنه ذهب عليه قوله عز وجل ﴿ أرأيت الذى يكذب بالدين ﴾ (٣) والفاء مقدرة للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أنظرت فرأيت الذى كفر بآياتنا الباهرة التى حقها أن يؤمن بها كل من يشاهدها " (٤)

(١) انظر تفسير الطبرى ج ١٦ ص ٩١ .
(٢) انظر مجمع البيان ج ١٦ ص ٦٩ .
(٣) سورة الماعون الآية (١) ·
(٤) انظر تفسير أبو السعود ج ٥ ص ٢٧٩ .

يقول الإمام ابن عاشور : " والرؤية مستعارة للعلم بقصته العجيبة . نُزلت القصة منزلة الشئ المشاهد بالبصر لأنه من أقوى طرق العلم . وعبر عنه بالموصول لما فى الصلة من منشأ العجب ولا سيما قوله **﴿ لأوتين مالا وولدا ﴾** .

والمقصود من الاستفهام لفت الذهن إلى معرفة هذه القصة أو إلى تذكرها إن كان عالما بها .

والخطاب لكل من يصلح للخطاب فلم يرد به معين . ويجوز أن يكون خطابا للنبى ﷺ . " (١)

و **﴿ الآيات ﴾** : القرآن والتى من جملتها آيات البعث .

قوله : **﴿ وقال ﴾** مستهزئاً بها مصدراً لكلامه باليمين الفاجرة والله **﴿ لأوتين ﴾** أى لأعطين فى الجنة وقيل فى الآخرة **﴿ مالاً وولدا ﴾** أى أنظر إليه فتعجب من حالته البديعة وجراءته الشنيعة وقيل أعطى فى الدنيا أى أن أقمت على دين آبائى وعبادة آلهتى اعطيت مالا وولدا . . . .

وقرئ ولداً على أنه جمع ولد كأسد جمع أسد أو على انه لغة فيه كالعرب والعرب " (٢)

قوله تعالى : **﴿ أطلع الغيب ﴾** جواب لكلامه على طريقة الأسلوب الحكيم بحمل كلامه على ظاهر عبارته من الوعد بقضاء الدين من المال الذى سيجده حين يبعث ، فالأستفهام فى قوله **﴿ أطلع الغيب ﴾** إنكارى

---

(١) التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١٥٩ .

(٢) انظر تفسير أبو السعود ج ٥ ص ٢٧٩ ، مجمع البيان ج ١٦ ص ٦٩ .

وتعجيبى وقال الإمام القرطبى أنه استفهام لمجئ ﴿ أم ﴾ بعدها ومعناه التوبيخ (١)

و ﴿ **أطلع** ﴾ افتعل من طلع للمبالغة فى حصول فعل الطلوع وهو الارتقاء ، ولذلك يقال لمكان الطلوع مطْلَع بالتخفيف ومُطّلع بالتشديد .

ومن أجل هذا أطلق الاطلاع على الإشراف على الشئ . لأن الذى يروم الإشراف على مكان محجوب عنه يرتقى إليه من علو ، فالأصل أن فعل (اطّلع) قاصر غير محتاج إلى التعدية قال تعالى ﴿ **قال هل أنتم مطلعون فاطلع فرآه فى سواء الجحيم** ﴾ (٢) فإذا ضمن (اطلع) معنى (أشرف) عدى بحرف الاستعلاء كقوله تعالى : ﴿ **لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا** ﴾ (٣) .

فانتصب ﴿ الغيب ﴾ فى هذه الآية على المفعولية لا على نزع الخافض . " (٤)

والغيب هو ما غاب عن الأبصار والمشاهدة .

والمعنى : أعلم الغيب حتى يعلم أهو فى الجنة أم لا . وهذا الرأى عن ابن عباس ومجاهد .

وقيل معناه : انظر فى اللوح المحفوظ وهذا الرأى عن الكلبى .

---

(١) تفسير جامع الأحكام ج ١١ ص ١٤٧ .

(٢) سورة الصافات آية ٥٤ .

(٣) سورة الكهف آية ١٨ .

(٤) انظر تفسير التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١٦٠ .

وتأويله : أشرف علي علم الغيب حتى علم أن الله سيأتيه مالا وولدا ، وأنه إن بعث رزق مالا وولدا . (١)

وقوله تعالى : ﴿ **ام اتخذ عند الرحمن عهدا** ﴾

و ﴿ **عند** ﴾ ظرف مكان ، وهو استعارة بالكتابة بتشبيه الوعيد بصحيفة مكتوب بها تعاهد وتعاقد بينه وبين الله موضوعة عند الله ، لأن الناس كانوا إذا أرادوا توثيق ما يتعاهدون عليه كتبوه في صحيفة ووضعوها في مكان حصين مشهور كما كتب المشركون صحيفة القطيعة بينهم وبين بني هاشم ووضعوها في الكعبة ...

واختير هنا من أسمائه ﴿ **الرحمن** ﴾ لأن استحضار مدلوله أجدر في وفائه بما عهد به من النعمة المزعومة لهذا الكافر . لأن في ذكر هذا الاسم توركا على المشركين الذين قالوا ﴿ **وما الرحمن** ﴾ (٢) " (٣)

والمعنى : أي اتخذ هذا عند الله عهداً بعمل صالح قدمه . قاله قتادة .

وقيل معناه : ام عهد الله إليه أنه يدخل الجنة ، عن الكلبي

وقيل معناه : أم قال لا إله إلا الله فيرحمه الله بها عن ابن عباس " (٤)

ومعنى ذلك : إن ما ادعى أنه سيكون له مالا وولدالا يستطيع أن يعلم الغيب لأن الأمور الغيبية قد انفرد المولى عز وجل بها فلا يستطيع أن يرتقي

---

(١) انظر تفسير القرطبي ج ١١ ص ١٤٦ ، تفسير زاد المسير ج ٥ ص ١٨٢ ، تفسير الطبري ج ١٦ ص ٩٢ .

(٢) سورة الفرقان جزء من الآية ٦٠ .

(٣) انظر التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١٦٠ ، ١٦١ .

(٤) انظر مجمع البيان ج ١٦ ص ٦٩ .

إلى علم الغيب ، ولم يتخذ مع الله موثقا على ذلك بل قال ذلك افتراء على الله عالم الغيب والشهادة .

ثم نفى تعالى ما ادعاه بقوله : ﴿ **كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا * ونرثه ما يقول ويأتينا فردا** ﴾ الآيتان ٧٩ ، ٨٠

و ﴿ **كلا** ﴾ أى ليس الأمر على ما قال من أنه يؤتى المال والولد ، ويجوز أن يكون المعنى كلا أنه لم يطلع على الغيب ولم يتخذ عند الله عهد . ويجوز حمل المعنى على كل هذا .

يقول الإمام ابن عاشور : " و ﴿ **كلا** ﴾ حرف ردع وزجر عن مضمون كلام سابق من متكلم واحد ، أو من كلام يحكى عن متكلم آخر أو مسموع منه كقوله تعالى : ﴿ **قال أصحاب موسى إنا لمدركون قال كلا إن معى ربى** ﴾ (١) .

والأكثر أن تكون عقب آخر الكلام المبطل بها ، وقد تقدم على الكلام المبطل للاهتمام بالإبطال وتعجيله والتشويق إلى سماع الكلام الذى سيرد بعدها كما فى قوله تعالى : ﴿ **كلا والقمر والليل إذا أدبر والصبح إذا أسفر إنها لإحدى الكبر** ﴾ (٢) على أحد تأويلين .

ولما فيها من معنى الإبطال كانت فى معنى النفى ، فهى نقيض (إى) و (أجل) ونحوهما من أحرف الجواب بتقدير الكلام السابق .

---

(١) سورة الشعراء آية ٦١ .

(٢) سورة المدثر آية ٣٢ : الآية ٣٥ .

قوله تعالى : ﴿ **سنكتب ما يقول** ﴾ أى سنأمر الحفظة بكتابته وإثباته عليه لنجازيه به فى الآخرة ونوافقه عليه .

والكتابة لا تتأخر عن القول لقوله تعالى : ﴿ **ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** ﴾ (١) وإنما جعله مستقبلاً ؛ لأنه إنما يظهر الجزاء والعقاب فى المستقبل . " (٢)

قوله تعالى : ﴿ **ونمد له من العذاب مدا** ﴾ أى : نجعل بعض العذاب على إثر بعض . والمد فى العذاب : الزيادة منه ، كقوله : ﴿ **فليمدد له الرحمن مدا** ﴾ (٣) فلا ينقطع عذابه أبدا .

وأكد الفعل بالمصدر كما يؤكد بالتكرير .

يقول الإمام ابن عجيبة : " ﴿ **ونمد له من العذاب مداً** ﴾ ، مكان ما يدعيه لنفسه من الإمداد بالمال والأولاد ، أى نطول له من العذاب ونمد له فيه ما يستحقه ، أو نزيد مضاعفة عذابه ، لكفره وافترائه على الله سبحانه ، واستهزائه بآياته العظام ، ولذلك أكده بالمصدر ، دلالة على فرط الغضب والسخط . " (٤)

قوله تعالى : ﴿ **ونرثه ما يقول ويأتنا فردا** ﴾ الآية ٨٠ .

والمعنى : نسلبه ما عنده من المال والولد ونأخذه منه أخذ الوارث ما يرث ويأتينا يوم القيامة وليس معه مال ولا بنون .

---

(١) سورة ق الآية ١٨ .

(٢) انظر تفسير أبو السعود ج ٥ ص ٢٧٩ وتفسير مجمع البيان ج ١٦ ص ٦٩ .

(٣) سورة مريم جزء من الآية ٢٥ .

(٤) انظر تفسير البحر المديد ج ١٦ ص ٣٦٠ .

والإرث : مستعمل مجازا في السلب والأخذ ، أو كناية عن لازمه وهو الهلاك . والمقصود : تذكيره بالموت ، أو تهديده بقرب هلاكه .

ومعنى إرث أولاده أنهم يصيرون مسلمين فيدخلون في حزب الله فإن العاص ولد عمر الصحابي الجليل وهشاما الصحابي الشهيد يوم أجنادين ، فهنا بشارة للنبي ﷺ ونكاية وكمد للعاص بن وائل .

والفرد : الذي ليس معه ما يصير به عددا ، إشارة إلى أنه يحشر كل كافر وحده دون ولده ، ولا مال له . و ﴿ **فردا** ﴾ حال . " (١)

(١) انظر التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١٦٣ . ، تفسير القرطبي ج ١١ ص ١٤٨ .

قال تعالى : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّـــهِ آلِهَـــةً لِيَكُونُـــوا لَـــهُمْ عِزًّا(٨١)كَلا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا(٨٢) ﴾

بعد أن ذكر إنكار المشركين للبعث مع إقامة الدليل على إمكانه بمـــا يشاهد من أمر الخلق فى النشأة الأولى ــ أردف ذلك الرد على عُبَّـــاد الأصنام الذين اتخذوا أصنامهم آلهة ليعتزوا بهم يوم القيامة عند ربهم ، ويكونوا شفعاء لهم لديه ، فبين أنهم سيكونون لهم أعداء .

يقول الإمام أبو السعود : " حكاية لجناية عامة للكل مستتبعة لصـــد ما يرجعون ترتبه عليها إثر حكاية مقالة الكافر المعـــهود واســـتتباعها لنقيض مضمونها أى اتخذوا الأصنام آلهة متجاوزين الله تعالى .

الضمير فى قوله : ﴿ **واتخذوا** ﴾ يعود إلى أولئك الكافرين الذيـــن ذكر القرآن فيما سبق بعض رزائلهم ودعواهم الكاذبة ، ولما تنته بعد .

أى : واتخذ هؤلاء آلهة باطلة يعبدونها مـــن دون الله ــ تعـــالى ــ لتكون لهم تلك الآلهة (عزا) أى : لينالوا بها العزة والشفاعة والنصرة والنجاة من عذاب يوم القيامة .

وأجرى على الآلهة ضمير العاقل لأن المشركين الذيـــن اتخذوهـــم توهموهم عقلاء مدبرين .

والضميران فى قوله : ﴿ **سيكفرون ــ ويكونون** ﴾ يجوز أن يكونا عائدين إلى آلهة ، أى سينكر الآلهة عبادة المشركين إياهم ، فعبر عـــن الجحود والإنكار بالكفر ، وستكون الآلهة ذلا ضد العز .

والأظهر أن ضمير ﴿ **سيكفرون** ﴾ عـــائد إلـــى المشـــركين ، أى سيكفر المشركون بعبادة الآلهة فيكون مقابل قوله : ﴿ **واتخذوا من دون الله آلهة** ﴾ . وفيه تمام المقابلة ، أى بعد أن تكلفوا جعلهم آلهـــة لـــهم

سيكفرون بعبادتهم ، فالتعبير بفعل ﴿ **سـيكفرون** ﴾ يرجح هـذا الحمل لأن الكفر شائع فـى الإنكـار الاعتقـادى لا فـى مطلـق الجحود ، وأن ضمير ﴿ **يكونون** ﴾ للآلهة وفيه تشتيت الضمـائر . ولا ضير فى ذلك إذا كان السياق يرجع كلا إلى مايناسبة ، ...

ويجوز أن يكون ضميرا ﴿ **سيكفرون ــ ويكونون** ﴾ راجعيـن إلى المشركين ، وأن حرف الاستقبال للحصول قريبا ، أى سـيكفر المشركون بعبادة الأصنام ويدخلون فى ويكونون ضدا على الأصنام يهدمون هياكلها ويلعنونها فهو بشارة للنبى ﷺ بأن دينـه سـيظهر على دين الكفر وفى هذه المقابلة طباق مرتين .

والضد : اسم مصدر ، وهو خـلاف الشـئ فـى الماهيـة أو المعاملة .

ومن الثانى تسمية العدوّ ضدا . ولكونه فى معنى المصدر لـزم فى حال الوصف به حالة واحدة بحيث لا يطابق موصوفه . (١)

---

(١) انظر تفسير أبو السـعود ج ٥ ص ٢٨٠ ، مجمـع البيـان ج ١٦ ص ٦٩ ، ص ٧٠ والتحرير والتنوير ج ١٦ ص ١٦٤ .

وبعد أن ذكر سبحانه ما لهؤلاء الكفار مع آلهتهم فى الآخرة ذكر ما لهم مع الشياطين فى الدنيا ، وأنهم يتولونهم وينقادون لهم فقال :

﴿ أَلَمْ تَرَى أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا(٨٣)فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا(٨٤)يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا(٨٥)وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا(٨٦)لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا(٨٧) ﴾

يقول الإمام أبو السعود : " تعجيب لرسول الله ﷺ مما نطقت به الآيات الكريمة السالفة وحكته عن هؤلاء الكفرة الغواة والمردة العتاة من فنون القبائح من الأقاويل والأفاعيل والتمادى فى الغى والانهماك فى الضلال والإفراط فى العناد والتصميم على الكفر من غير صارف يلوبهم ولا عاطف يثنيهم والإجماع على مدافعة الحق بعد اتضاحه وانتفاء الشك عنه بالكلية وتنبيه على أن جميع ذلك منهم بإضلال الشياطين وإغوائهم لا لأن له مسوغا ما فى الجملة ومعنى إرسال الشاطين عليهم إما تسليطهم عليهم وتمكينهم من إضلالهم وإما تقييضهم لهم وليس المراد تعجيبه ــ عليه السلام ــ من إرسالهم عليهم كما يوهمه تعليق الرؤية به بل مما ذكر من أحوال الكفرة من حيث كونها من آثار إغواء الشياطين كما ينبئ عنه قوله تعالى **﴿ تؤذهم أزا ﴾** (١) .

(١) انظر تفسير أبو السعود ج ٥ ص ٢٨١ .

وفى معنى الإرسال وجهان :

أحدهما : خلينا بين الشياطين وبين الكافرين فلم نعصمهم من القبول منهم .

والثانى : وهو المختار : سلّطناهم عليهم ، وقيضناهم لهم بكفرهم " (١) .

وقوله تعالى : ﴿ **تؤذهم أزا** ﴾ " قال ابن عباس : تزعجهم إزعاجا من الطاعة إلى المعصية . وعنه : تغريهم إغراء بالشر : امض امـض فى هذا الأمر ، حتى توقعهم في النار .حكى الأول الثعلبى ، والثـــانى الماوردى والمعنى واحد . الضحاك تغويهم إغواء ، مجاهد : تشـــليهم إشلاء ، وأصله الحركة والغليان ، ...

والأز التهييج والإغراء ، قال الله تعالى : ﴿ **ألم تـــر أنـــا أرســـلنا الشياطين على الكافرين تؤذهم أزا** ﴾ (٢) أى تغريهم على المعـــاص . والأز : الاختلاط . وقد ازيت الشئ أؤزه أزا أى ضممت بعضه إلـــى بعض قاله الجوهرى . " (٣) وفى هذا تسلية للرسول ﷺ وتهوين للأمـــر على نفسه .

قوله تعالى : ﴿ **فلا تعجل عليـــهم** ﴾ أى : لا تعجـــل بطلـــب عذابهم وإهلاكهم وإبادتهم بعذاب الاستئصال حتى تطـــهر الأرض من خبائث أعمالهم .

ثم علل هذا النهى بأن حين هلكهم قريب فقال : ﴿ **إنما نعد لهم عدا** ﴾ أى إنه لم يبق لهم إلا أيام وأنفاس قليلة نعدها عدا ، وعـــن

---

(١) انظر تفسير زاد المسير ج ٥ ص ١٨٣ .

(٢) سورة مريم الآية ٨٣ .

(٣) انظر القرطبى ج ١١ ص ١٥٠ .

ابن عباس أنه كان إذا قرأ هذه الآية بكى وقال : آخر العدد خروج نفسك . آخر العدد فراق أهلك ، آخر العدد دخول قبرك ــ وعن ابن السماك أنه كـان عند المأمون فقرأ الآية ثم قال : إذا كانت أنفاس بالعدد ولم يكن لـها مدد ، فما أوسع ما تنفذ :

إن الحبيب من الأحباب مختلس　　　لا يمنع الموت بواب ولا حرس

وكيف يفرح بالدنيا ولذتها　　　فتى يُعد عليه اللفظ والنفس (١)

وجاء فى زاد المسير فى قوله تعالى : ﴿ إنما نعد لهم عــدا ﴾ فى هذا المعدود ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه أنفاسهم ، رواه ابن أبى طلحة عن ابن عباس ، وبه قال طاووس ، ومقاتل .

والثانى : الأيام ، والليالى ، والشهور ، والســنون ، والسـاعات ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثالث : أنها أعمالهم ، قاله قطرب . " (٢)

---

(١) تفسير المراغى ج ١٦ ص ٨٤ .

(٢) انظر زاد المسير ج ٥ ص ١٨٣ .

قوله تعالى : ﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا(٨٦)لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا(٨٧) ﴾

قوله تعالى : ﴿ **ونسوق المجرمين** ﴾ يعنى : الكافرين ﴿ **إلى جهنم وردا** ﴾ قال ابن عباس وأبو هريرة ، والحسن : عطاشا .

قال أبو عبيدة : الورد : جماعة يردون الماء ، يعنى : أنهم عطاش ، لأنه لا يرد الماء إلا العطشان . وقال ابن الأنبارى : معنى قوله : ﴿ **وردا** ﴾ : واردين .

والمعنى : أى ونحث المجرمين على المسير إلى جهنم عطاشا كالإبل التى ترد عطاشا مشاة على أرجلهم عن ابن عباس وحسن وقتادة ، وسمى العطاش وردا لأنهم يردون لطلب الماء ، وقيل الورد النصيب أى هم نصيب جهنم من الفريقين ، والمؤمنون نصيب الجنة عن أبى مسلم . " (١)

وأضاف الإمام القرطبى إلى المعنى أن ﴿ **وردا** ﴾ حفاة مشاة وقال : " ولا تناقض بين هذه الأقوال فيساقون عطاشا حفاة مشاة أفرادا ... فهو اسم على لفظ المصدر ، واحدهم وارد " (٢)

أى : نسوق المجرمين الذين ارتكبوا الجرائم فى دنياهم ، نسوقهم سوقا إلى جهنم كما تساق البهائم . حال كونهم عطاشا يبحثون عن الماء فلا يجدونه .

---

(١) انظر تفسير أبو السعود ج ٥ ص ٢٨٢ ومجمع البيان ج ١٦ ص ٧٤ وتفسير المراغى ج ١٦ ص ١٠٨ وتفسير زاد المسير ج ٥ ص ١٨٤ .

(٢) تفسير الإمام القرطبى ج ١١ ص ١٥٢ .

قوله تعالى : ﴿ **لا يمكلون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا** ﴾ معنى : ﴿ **لا يملكون** ﴾ لا يستطيعون . فإن الملك يطلق على المقدرة والاستطاعة . أى ليس لهم من يشفع لهم كما يشفع لهم كما يشفع المؤمنون بعضهم لبعض . كما قال تعالى مخبراً عنهم ﴿ **فما لنا من شافعين ولا صديق حميم** ﴾ (١)

وقوله تعالى : ﴿ **لا يملكون الشفاعة** ﴾ : استئناف مبين لما فيه من الأمور الدالة على هولِه ، وضمير الواو : إما لجميع العباد المدلول عليهم بذكر الفريقين لانحصارهم فيها ، أو إلى المتقين فقط ، أو إلى المجرمين . " (٢)

قوله تعالى : ﴿ **إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا** ﴾ هذا استثناء منقطع بمعنى لكن من اتخذ عند الرحمن عهدا وهو شهادة أن لا إله إلا الله والقيام بحقها ، قال على بن أبى طلحه عن ابن عباس ﴿ **إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا** ﴾ قال العهد شهادة أن لا إله إلا الله ويبرأ إلى الله من الحول والقوة ولا يرجو إلا الله عز وجل ، وقال ابن أبى حاتم ثم حدثنا عثمان بن خالد الواسطى حدثنا محمد بن الحمن الواسطى عن المسعودى عن عون عن عبد الله عن أبى فاختة عن الأسود بن يزيد قال قرأ عبد الله يعنى ابن مسعود هذه الآية ﴿ **إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا** ﴾ ثم قال اتخذوا عند الله عهدا فإن الله يقول يوم القيامة من كان له عند الله عهد فليقم قالوا يا أبا عبد الرحمن فعلمنا قال قولوا اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة فإنى أعهد إليك فى هذه

---

(١) سورة الشعراء آية ١٠٠ .

(٢) انظر تفسير الألوسى ج ١٦ ص ١٣٧ . البحر المديد ج ١٦ ص ٣٦٣ .

الحياة الدنيا أن لا تكلنى إلى عمل يقربنى من الشر ويباعدنى من الخير وإنى لا أثق إلا برحمتك فاجعل لى عندك عهدا تؤديه إلى يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد . " (١)

تنشق ﴿ **وتخر الجبال** ﴾ أى كادت الجبال تسقط ﴿ **هدا** ﴾ أى كسرا شديدا .. عن ابن عباس وقيل هدما عن عطاء .

﴿ **إن دعوا للرحمن ولدا** ﴾ الآية ٩١ . أى لأن دعوا للرحمن ولدا من أن دعوا للرحمن ولدا أى بسبب دعوتهم أو تسميتهم له ولدا ﴿ **وما ينبغى للرحمن أن يتخذوا ولدا** ﴾ الآية ٩٢ . أى ما يصلح للرحمن ولا يليق به اتخاذ الولد وليس من صفته ذلك ، لأن اثبات الولد له يقتضى حدوثه وخروجه من صفة الإلهية ، واتخاذ الولد يدل على الحاجة تعالى عن ذلك وتقدس .

قوله تعالى : ﴿ **إن كل من فى السماوات والأرض إلا أتى الرحمن عبدا** ﴾ الآية ٩٣ .

يقول الإمام المراغى : " كل من فى السماوات والأرض من الملائكة والإنس والجن إلا ويأتى الله سبحانه عبدا مملوكا خاضعا ذليلا ، ومثله قوله : وكل أتوه داخرين والمعنى أن الخلق عبيدة خلقهم ورباهم وجرى عليهم حكمه وأن عيسى وعزيرا والملائكة من جملة العبيد ، وفى هذا دلالة على أن النبوة والعبودية لا يجتمعان ، وأنه إذا ملك الإنسان ابنه عتق عليه . " (٢)

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٣٨ .

(٢) تفسير الإمام المراغى ج ١٦ ص ١١٠ .

يقول الإمام ابن العربى فى قوله تعالى : ﴿ إن كل من فى السماوات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا ﴾ فيها مسألتان :

المسألة الأولى : قال محمد بن كعب : لقد كاد أعداء الله أن يقيموا علينا الساعة بقولهم هذا ، لقوله تعالى : ﴿ تكاد السماوات يتفطرون منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولدا * وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا * إن كل من فى السماوات والرض إلا آتى الرحمن عبدا ﴾ . وصدق ، فإنه قول عظيم سبق القضاء والقدرة ولولا أن البارى لا يصنعه كفر الكافر ولا يرفعه إيمان المؤمن .

قوله تعالى : ﴿ لقد جئتم شيئا إدا ﴾ الآية ٨٩ .

﴿ جئتم ﴾ أى فعلتم والإد : بالكسر والفتح ـ المنكر العظيم ، والإداه : الشدة يقال أدنى الأمر وآدنى : أثقلنى وعظم على .

والمعنى : لقد جئتم أيها القائلون بمقالكم هذا شيئا منكرا عظيما يدل على الجرأة على الله وكمال القِحَة عليه سبحانه ، وإنه ليغضبه أشد الغضب ويسخطه أعظم السخط . " (١)

(١) انظر تفسير المراغى ج ١٦ ص ٨٥ ، ١١٠ .

وقوله تعالى : ﴿ **تكاد السماوات يتفطرون منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا** ﴾ الآية ٩٠ .

﴿ **تكاد** ﴾ بالتاء . وقرأ نافع ، والكسائى : ﴿ **يكاد** ﴾ بالياء.. وقرأ جميعا : ﴿ **يتفطرون** ﴾ بالياء والتاء مشددة الطاء ، ووافقهما ابن كثير ، وحفص عن عاصم فى ﴿ **يتفطرن** ﴾ وقرأ أبو عمرو وأبو بكر عن عِاصم : ﴿ **يتفطرن** ﴾ بالنون وهذا خلافهم فى عسق وقرأ حمزه ، وابن عامر فى سورة مريم مثل أبى عمرو ، وفى عسق مثل ابن كثير .

ومعنى ﴿ **يتفطرن منه** ﴾ : يقاربن الانشقاق من قولكم . قال ابن قتيبة : وقوله تعالى : ﴿ **هدا** ﴾ أى : سقوطا . " [(١)]

---

(١) انظر تفسير زاد المسير ج ٥ ص ١٨٥ .

قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا(٨٨)لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا(٨٩)تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا(٩٠)أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا(٩١)وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا(٩٢)إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا(٩٣)لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا(٩٤)وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا(٩٥) ﴾

ثم يستطرد السياق القرآنى ، إلى حكاية أقوال أخرى من أقوال الكافرين الباطلة ، وهى زعمهم أن لله ـ تعالى ـ ولدا .

وقوله : ﴿ **وقالوا** ﴾ يشمل كل من تفوه بهذا القول الباطل سواء كان من اليهود والنصارى أو مشركى العرب .

فإن اليهود قالوا عزير ابن الله وقالت النصارى عيسى بن مريم ابن الله وقال المشركون الملائكة بنات الله .

يقول الإمام ابن عاشور : " فصريح الكلام رد على المشركين وكنايته تعريض بالنصارى الذين شابهوا المشركين فى نسبة الولد إلى الله ، فهو تكملة لإبطال الذى فى قوله آنفا ﴿ **ما كان الله أن يتخذ من ولد سبحانه** ﴾ (١)

٠٠٠ وذكر ﴿ **الرحمن** ﴾ هنا حكاية لقولهم بالمعنى . وهم لا يذكرون اسم الرحمن ولا يقرون به . وقد أنكروه كما حكى الله عنهم ﴿ **وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن** ﴾ (٢)

---

(١) سورة مريم آية ٣٥ .

(٢) سورة الفرقان آية ٦٠ .

فهم إنما يقولون ﴿ اتخذ الله ولدا ﴾ كما حكى عنهم فى آيات كثيرة منها آية سورة الكهف .

فذكر ﴿ الرحمن ﴾ هنا وضع للمرادف فى موضع مرادفه ، فذكر اسم ﴿ الرحمن ﴾ لقصد إغاظتهم بذكر اسم أنكروه .

وفيه أيضا إيماء إلى اختلال قولهم لمنافاة وصف الرحمن واتخاذ الولد " [1] ولايزيد هذا فى ملكه ، كمل لا ينقص ذلك من ملكه ، لما جرى شئ من هذا على الألسنة ، ولكنه القدوس الحكيم العليم ، فلم يبال بعد ذلك بما يقوله المبطلون .

المسألة الثانية : قوله : ﴿ **إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا** ﴾ . دليل على أن الرجل لا يجوز أن يملك ابنه .

ووجه الدليل عليه من هذه الآية أن الله تعالى جعل الولدية والعبدية فى طرفى تقابل ، فنفى إحداهما ، واثبت الأخرى ولو اجتمعتا لما كان لهذا القول فائدة يقع الاحتجاج بها ، والاستدلال عليها ، والتبرى منها ؛ ولهذا أجمعت الأمة على أن أمة الرجل إذا حملت فإن ولدها فى بطنها حرٌ لا رق فيه بحال ، وما جرى فى أمهِ موضوع عنه ، ولو لم يوضع عنه فلا خلاف فى الولد ، وبه يقع الاحتجاج .

وإذا اشترى الحر أباه وابنه عتقا عليه ، حين يتم الشراء .

وفى الحديث الصحيح [2] : " لن يجزى والد ولده إلا أن يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه . "

---

(١) انظر تفسير التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١٦٩ ، ص ١٧٠ .

(٢) انظر صحيح الإمام مسلم بشرح الإمام النووى ج ١٠ كتاب العتق باب فضل عتق الولد ص ١٥٢ . ، ومسند الإمام احمد ج ٢ ص ٢٣٠ ، ص ٢٦٣ ، ص ٣٧٦ ، ٤٤٥ .

والأول دليل من طريق الأولى ؛ فإن الأب إذا لم يملك ابنه مع علو مرتبته عليه فالابن يعدم ملك الأب أولى ، مع قصوره عنه ، وكان الفرق بينهما أن هذا الولد مملوك لغيره ، فإذا أزال ملك الغير بالشراء إليه تبطل عنه وعتق ، والتحق بالأول . " (١)

قوله تعالى : ﴿ **ولقد أحصاهم وعدهم عدا** ﴾ الآية ٩٤ .

وجملة ﴿ **لقد أحصاهم وعدهم عدا** ﴾ عطف على جملة ﴿ **لقد جئتم شيئا إدا** ﴾ مستأنفة ابتدائية لتهديد القائلين هذه المقالة .فضمائر الجمع عائدة إلى ما عاد إليه ضمير ﴿ **وقالوا اتخذ الرحمن ولد** ﴾ وما بعده ، وليس عائدا على ﴿ **من فى السموات والأرض** ﴾ أى لقد علم الله كل من قال ذلك وعدهم فلا ينفلت أحد منهم من عقابه . " (٢)

وقوله : ﴿ **لقد أحصاهم** ﴾ علم عددهم ﴿ **وعدهم عدا** ﴾ تأكيد ؛ أى فلا يخفى عليه أحد منهم .

قلت : ووقع لنا فى أسمائه سبحانه المحصى ؛ أعنى فى السنة من حديث أبى هريرة ؛ خرجه الترمذى ، واشتقاق هذا الفعل يدل عليه .

---

(١) انظر احكام القرآن لإبن العربى م ٢ ص ١٢٤٥ .

(٢) انظر التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١٧٤ .

وقال الأستاذ أبو إسحاق الإسفرايني : ومنا المحصى ويختص بأنه لا تشغله الكثرة عن العلم ؛ مثل ضوء النور ، واشتداد الريح ، وتساقط الأوراق ، فيعلم عند ذلك أجزاء الحركات فى كل ورقة ، وكيف لا يعلم وهو الذى يخلق ، وقد قال : ﴿ **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** ﴾ (١)

ووقع فى تفسير ابن عباس أن معنى : ﴿ **لقد أحصاهم وعدهم عدا** ﴾ يريد أقروا له بالعبودية ، وشهدوا له بالربوبية . (٢)

قوله تعالى : ﴿ **وكلهم آتية يوم القيامة فردا** ﴾ الآية ٩٥

أى كل واحد منهم آت إياه تعالى منفرداً من الأتباع والأنصار وفى صيغة الفاعل من الدلالة على إتيانهم كذلك البتة ما ليس فى صيغة المضارع لو قيل يأتيه فإذا كان شأنه تعالى وشأنهم كما ذكر فأنى يتوهم احتمال أن يتخذ شيئا منهم ولدا . " (٣)

فالكل محتاجاً إلى معونة الله الدائم القهار طامعا فى رحمته تعالى فكل شئ هالك إلا وجهه سبحانه وتعالى .

---

(١) سورة الملك آية ١٤ .

(٢) انظر تفسير الإمام القرطبى ج ١١ ص ١٦٠ .

(٣) انظر تفسير أبو السعود ج ٥ ص ٢٨٣ .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا(٩٦)فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا(٩٧)وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا(٩٨) ﴾

بعد أن فصل المولى عز وجل أحوال الكافرين فى الدنيا والآخرة ، وبالغ فى الرد عليهم ختم السورة بذكر أحوال المؤمنين ، وبين أنه سبحانه سيغرس محبتهم فى قلوب عباده ، وبعد أن استقص فى السورة دلائل التوحيد والنبوة والحشر ورد فيها على فرق المبطلين بين انه يسر ذلك بلسان نبيه محمد ﷺ ليكون بشرى للمتقين وينذر به المشركين الضالين أصحاب الجدل والعناد .

قوله تعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا** ﴾ الآية ٩٦ .

يقول الإمام ابن عاشور : " يقتضى اتصال الآيات بعضها ببعض فى المعانى أن هذه الآية وصف لحال المؤمنين يوم القيامة بضد حال المشركين ، فيكون حال إتيانهم غير حال انفراد بل حال تأنس بعضهم ببعض .

ولما اختتمت الآية قبلها بأن المشركين آتون يوم القيامة مفردين . وكان ذلك مشعرا بأنهم آتون إلى ما من شأنه أن يتمنى المورّط فيه من يدفع عنه وينصره ، وإشعار ذلك بأنهم مغضوب عليهم ، أعقب ذلك بذكر حال المؤمنين الصالحين وأنهم على العكس من حال المشركين ، وأنهم يكونون يومئذ بمقام المودة والتبجيل .

فالمعنى : سيجعل لهم الرحمن أوداء من الملائكة كما قال تعـالى : ﴿ **نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة** ﴾ (١)ويجعل بين أنفسـهم مودة كما قال تعالى : ﴿ **ونزعنا ما فى صدورهم من غل** ﴾ (٢) وإيثـار المصدر ليفى بعدة متعلقات بالود . وفسر أيضا جعل الود بأن الله يجعل لهم محبة فى قلوب أهل الخير ...

وفسر أيضا بأن الله سيجعل محبة منه تعالى : فـالجعل هنـا كالإبقاء فى قوله تعالى : ﴿ **وألقيت عليك محبة منـى** ﴾ (٣) هـذا أظهر الوجوه فى تفسير الود . " (٤)

وفى قوله تعالى : ﴿ **سيجعل لهم الرحمـن ودا** ﴾ قـال ابـن عباس : " نزلت فى على رضى الله عنه ، وقال معناها : يحبهم الله ويحببهم المؤمنين .

قال قتادة : يجعل لهم ودا فى قلـوب المؤمنيـن ومـن هـذا حديث أبى هريـرة عـن رسـول الله ﷺ قـال : " إذا أحـب الله عبداً قال : يا جبريل ، إنى أحـب فلانـا فـأحبوه ، فيلقـى حبـه على أهل الأرض فيُحب " (٥) وذكر البعض مثـل ذلـك .

---

(١) سورة فصلت آية ٣١ .

(٢) سورة الأعراف آية ٤٣ .

(٣) سورة طه جزء من الآية ٣٩ .

(٤) انظر التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١٧٤ ، ص ١٧٥ .

(٥) صحيح الإمام البخارى ج ٤ كتاب بدء الخلق باب ٦ ص ١٣٥ ، ص ١٣٦ ، مسـند الإمام احمد ج ٣ ص ٣٦٧ ، ص ٣٤١، ص ٤١٣ .

وقال هرم بن حيان : ما أقبل عبد بقلبه إلى الله عز وجل ، إلا أقبل الله عز وجل بقلوب أهل الإيمان إليه ، حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم . " (١)

وخلاصة ذلك : أن الله سيجعل للمؤمنين الذين يعملون الصالحات مودة فى قلوب البشر وهذه كرامة خصهم المولى عز وجل بها ولا ينافى ذلك الأخذ بالأسباب التى يكتسب بها الناس محبة بعض مثل القرابة والصداقة والمعروف والكلمة الطيبة .

قوله تعالى : ﴿ **فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا** ﴾ الآية ٩٧ .

ثم خاطب المولى عز وجل رسوله ﷺ ذاكراً الحكمة فى إنزال القرآن بلغة العرب .

ويقول الإمام ابن عاشور وفى هذا : " إيذان بانتهاء السورة . فإن شأن الإتيان بكلام جامع بعد أفنان الحديث أن يؤذن بأن المتكلم سيطوى بساطه .

وذلك شأن التنزيلات والخواتم وهى ما يؤذن بانتهاء الكلام .

فلما احتوت السورة على عبر وقصص وبشارات ونذر **جاء هنا فى التنويه بالقرآن** وبيان بعض ما فى تنزيله من الحكم .

والفاء : يجوز أن تكون الفصيحة مؤذنة بكلام مقدر يدل عليه المذكور ، كأنه قيل : بلغ ما أنزلنا إليك ولو كره المشركون ما فيه من إبطال دينهم وإنذارهم بسوء العاقبة فما أنزلناه إلا للبشارة والنذارة .

---

(١) انظر تفسير القرطبى ج ١١ ص ١٦١ ، زاد المسير ج ٥ ص ١٨٦ ، احكام القرآن لابن العربى م ٢ ص ١٢٥٤ .

ولا تعبأ بما يحصل مع ذلك من الغيظ أوالحقد . وذلك أن المشركين كانوا يقولون للنبى ﷺ : (لو كففت عن شتم آلهتنا وآبائنا وتسفيه آرائنا لاتبعناك) .

ويجوز أن تكون الفاء للتفريع على وعيد الكافرين بقوله : ﴿ **لقد أحصاهم وعدهم عدا وكلهم آتيه يوم القيامة فردا** ﴾ ووعيد المؤمنين بقوله : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا** ﴾ .

والمفرع هو مضمون ﴿ **لتبشر به** ﴾ الخ ﴿ **وتنذر به** ﴾ الخ .

أى ذلك أثر الإعراض عما جئت به من النذارة ، وأثر الإقبال على ما جئت به من البشارة مما يسرناه بلسانك فإنا ما أنزلناه عليك إلا لذلك . " (١)

ويسرناه : أى سهلناه وانزلناه بلغة قومك وهى اللغة العربية وضمير الغائب هنا عائد على القرآن الكريم بدلالة السياق .

واللد : جمع ألد وهو الخصيم المجادل وهم المشركين فى عهد الرسول ﷺ ومن جادل من البشر بغير الحق إلى يوم القيامة .

وعبر عن الكفار بقوم لد ذما لهم بأنهم أهل جدال وأن الجدال هو شأنهم وحالهم .

ثم ختم المولى عز وجل السورة بتلك العظة البالغة فقال : ﴿ **وكم أهلكنا قبلهم من قرون هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ذكرا** ﴾ الآية ٩٨ .

---

(١) انظر التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١٧٥ ، ص ١٧٦ .

فهى تعريض بتهديدهم على عنادهم ومكابرتهم وتذكيرهم بـالأمم التى استأصلها الله لجبروتها وتعنتها لتكون مثلا وموعظة .

و ﴿ **كم** ﴾ خبرية تدل على كثرة العدد .

والقرن : الجيل والأمة ويطلق على الزمان الذى يعيـــش فيـــه الأمة .

و ﴿ **من** ﴾ بيانية . وما بعدها تمييز ﴿ **كم** ﴾

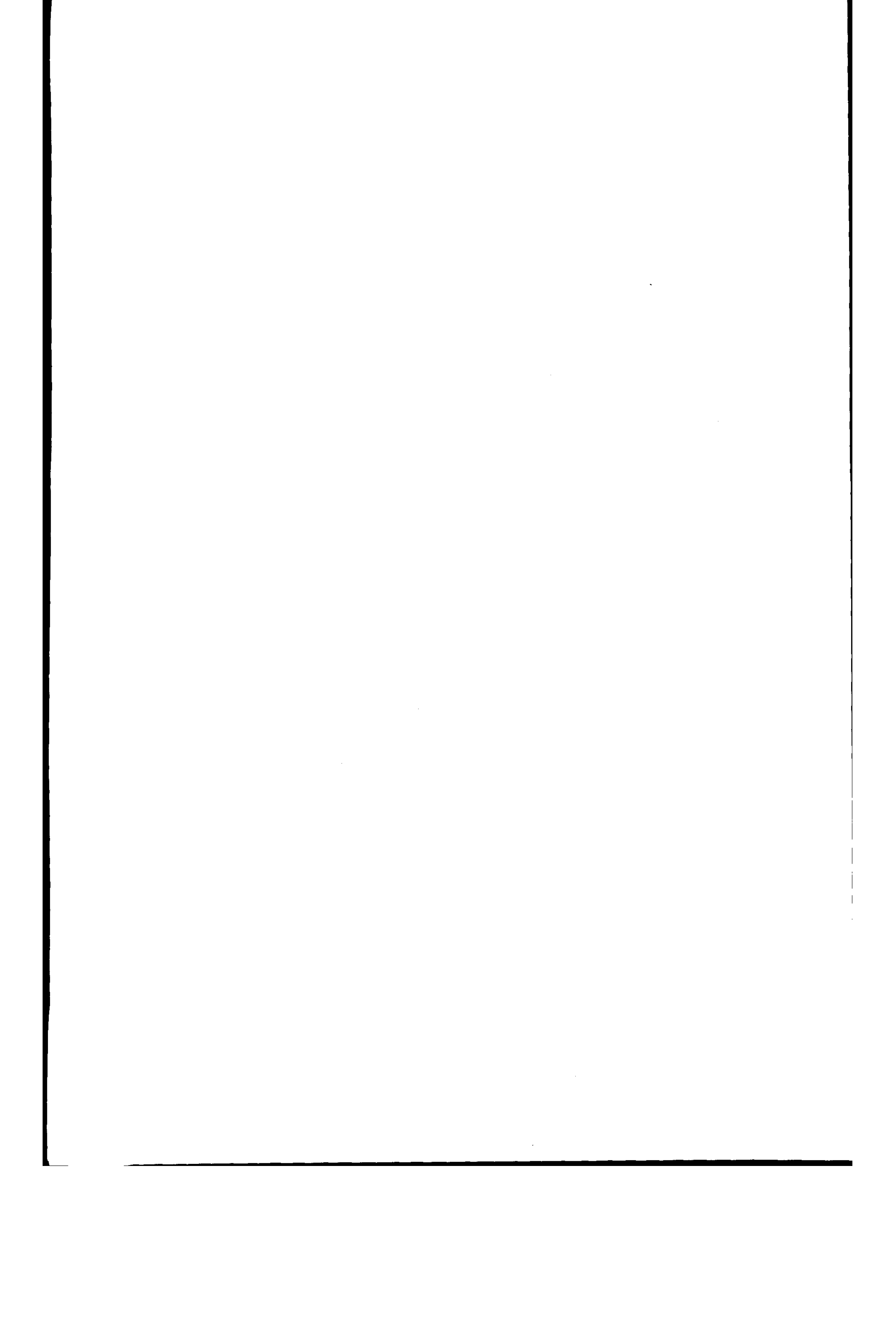
والاستفهام فى ﴿ **هل تحس منهم من أحد** ﴾ استفهام إنكـــارى والخطاب هنا لرسول الله ﷺ ، تبعـــا لقولـــه : ﴿ **فإنمـــا يســـرناه بلسانك** ﴾ .

والإحساس : الإدراك بالحس ، أى لا ترى منهم أحدا .

والركز : الصوت الخفى ، وهو كناية عن اضمحلالهم وفى هذا وعد لرسول الله ﷺ بالنصر والغلبة على هؤلاء المشركين ووعيـــد لأولئك الكافرين الجاحدين وحث له على التبشير والإنذار .

ومعنى ذلك : إنا أهلكناهم ، فلم يتبق منـــهم أحـــدا نـــراه ، ولا نسمع له صوتا خفيا ولا ظاهرا .

والله تعالى أعلم بالصواب



الخاتمة

سورة مريم من السور التى تحكى لنا مجموعة من القصص القرآنـى ، فقد اشتملت على :

١ــ **قصة سيدنا زكريا** ودعائه لربه أن يهب له ولدا سريا مـع ذكـر الأسباب التى دعته إلى ذلك . واستجابة المولى عز وجل لدعائـه وبشارته بمولد يحيى وقد كرمه الله وسماه باسم لم يسم أحد من قبل به . ثم حكت لنا الآيات تعجب سيدنا زكريا من مولد ولد له وهـو شيخ كبير وأمرأته عجوز عاقر ، ثم طلبه العلامة على حمل إمرأته ثم مولد يحيى وإيتاءه النبوة والحكم صبيا .

٢ ــ **قصة السيدة مريم العذراء وابنها عيسى** ــ عليه السـلام ــ وما حدث لها بعد الاعتزال وتمثل جبريل لها بشـرا سـويا ، والتجائها إلى الله أن يدفع شر هذا الرجل لاعتقادها أنه بشر ، **ثم تحكى لنا الآيات أخبار جبريل** ــ عليه السـلام ــ لمريـم العذراء أنه ملك من عند الله لا بشر حتـى تطمئـن وتـهدأ وبشرها بعيسى فخافت وانزعرت .

ثم تحكى لنا الآيات عن حمل مريم العذراء بعيسى عليه السـلام وانتباذها مكانا قصيا حتى لا يراها الناس وهى على تلك الحـال . ثم شعورها بألم الوضع وولادته وتكليمه لأمه حتى تهدأ ويسـتريح بالها . وأمرها بهز النخلة حتى تساقط رطبا طرية جنياً .

ثم حملها عيسى ــ عليه السلام ــ ومقابلة قومها وهى الشريفة العفيفة بنت الأنبياء الأتقياء ، ولوم القوم لـها وتعنيفـها بأنـها

فعلت ما لم يسبقها إليه أحد من تلك الأسرة الشريفة التى اشتهرت بالصلاح والتقوى .

ثم حكت لنا الآية عن معجزة من معجزات نبى الله عيسى – عليه السلام – وهى كلامه فى المهد تبرئة لأمه ووصفه لنفسه بصفات الكمال من النبوة والبركة والبر بوالدته ، وأنه لم يكن جباراً متكبراً.

ثم بينت الآيات مدى اختلاف النصارى فى شأنه .

٣– **قصة سيدنا إبراهيم** – عليه السلام – مع أبيه آزر ووصفه له بالجهل وعدم التأمل فى المعبودات التى يعبدها من دون الله ثم تحذيره إياه بسوء مغبة أعماله ، ورد أبيه عليه مهدداً متوعدا .

ثم حكت الآيات عن إسحاق ويعقوب هبة من الله له وإيتاؤهما الحكم والنبوة .

٤ – **قصة سيدنا موسى** – عليه السلام – ومناجاته ربه فى الطور والامتنان عليه بجعل أخيه هاروون وزيراً ونبيا .

٥ – **قصة سيدنا إسماعيل** ابن إبراهيم – عليهما السلام – ووصف الله له بصدق الوعد وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة .

٦ – **قصة سيدنا إدريس** – عليه السلام – ووصف الله له بأنه نبى رفيع القدر عظيم المنزلة عند ربه .

- **ثم بينت الآيات مجئ خلف من بعد هؤلاء الأنبياء** أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات .
- **ثم وعد الله لمن تاب وآمن وعمل صالحا** بجنات لا لغو فيها ولا تأثيم .
- **إن نزول جبريل** – عليه السلام – إلى الأنبياء بإذن الله تعالى .

- **ثم بينت الآيات إنكار المشركين للبعث** استبعادا له ، ورد الله عليهم بأنه خلقهم من قبل ولم يكونوا شيئا .
- **ثم أخبر المولى عز وجل بأنه سيحشر الكافرين يوم القيامة مع قرنائهم من الشياطين** ثم يحضرهم حول جهنم جثيا ، ثم بدئه بمن هو أشد جرما والله أعلم بهم .
- **الإخبار بأن جميع الخلق ترد على النار** ثم ينجى الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثيا .
- **بيان أن المشركين كانوا إذا سمعوا القرآن** فخروا على المؤمنين بأنهم خير منهم مجلسا وأكرم منهم مكانا .
- **رد المولى عز وجل عليهم مقالتهم الكاذبة** بأن الكافرين قبلهم كانوا أحسن منهم حالا وأكثر مالا ، وقد أبادهم الله وأهلكهم ، فدل ذلك على أن نعيم الدنيا لا يرشد إلى محبة الله لمن أوتوه ، ولا إلى أنهم مصطفون له من بين خلقه .
- **ثم بينت الآيات مآل الفريقين يوم القيامة** ، وأن ما كان للمشركين فى الدنيا من المال وسعة الرزق فإنما ذلك استدراج وإمهال من الله لهم ، ثم يلقون النكال والوبال فى جهنم وبئس المصير والقرار .

* **وضرب المولى عز وجل مثلا بحال هذا الكافر** ، وأعجب من مقالته الشنيعة ، وجرأته على الله ، إذ قال لأعطين فى الآخرة مالا وولدا .
* **ثم نفى المولى عز وجل اطلاعهم على الغيب أو** اتخاذ العهد مع الله ، وسيظهر المولى عز وجل له يوم القيامة أنه أمر الكتبة بكتابة قولهم وأنه سيزيدهم من العذاب فى جهنم بقيلة الكذب والباطل فى الدنيا زيادة على الكفر بالله وتكذيبه برسوله ، وسلب ما يمتلك من مال وولد ويأتى يوم القيامة فردا .
* **ثم بينت الآيات أن الكافرين لا شفيع لهم يوم القيامة .**
* **ثم طلب من رسول الله ﷺ ألا يستعجل عذاب المشركين فإن** لكل أجل كتاب فإذا جاء موعدهم لا يستأخرون .
* **ثم ذكرت الآيات ما يحيط المؤمنين من الكرامة** حين وفودهم إلى ربهم وما يحيق بالكافرين من الإهانة حين يردون عليه .
* **ثم أردف المولى عز وجل بالرد على من أثبت له الولد كاليهود والنصارى ومشركى العرب** ، فقد قالت اليهود عزير بن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله وقال المشركون الملائكة بنات الله تعالى الله عن هذا علواً كبيرا .
* **ثم ختم المولى عز وجل السورة الكريمة بذكر أحوال المؤمنين** وبين تعالى أنه سيغرز محبتهم فى قلوب عباده .

- **ثم ذكر الحكمة فى إنزال القرآن بلغة العرب .**
- **ثم ختم السورة بتلك العظة البالغة وهى أنه سبحانه وتعالى قد أهلك كثيراً من الأمم قبل هؤلاء المعاندين ، فهل** تحس منهم أحدا فتراه وتعاينه أو تسمع له صوتا ؟ لا إنهم بادوا وخلت منهم الديار ، وأقفرت المنازل وصاروا إلى دار لا ينفع فيها إلا صالح العمل .

وفى هذا وعد لرسول الله ﷺ بالنصر والغلبة على هؤلاء المشركين ووعيد لأولئك الكافرين الجاحدين وحث له على التبشير والإنذار .

والقصص القرآنى فيه عظة وعبرة وأخبار صادقة عن السابقين الأولين .

والحمد لله رب العالمين

د . مهجه غالب عبد الرحمن .

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية . للبنات

بالقاهرة

فهرس المراجع

ــ أحكام القرآن

لأبى بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربى ٤٦٨هـ ــ ٥٤٣هـ **تحقيق** على محمد البجاوى القسم الثالث طبعة جديدة فيها زيادة **شرح وضبط وتحقيق** دار الفكر بيروت ص ب ٧٠٦١ ٠

ــ أسباب النزول

لأبى الحسن على بن أحمد الواحدى النيسابورى ط دار الفجر الإسلامى و ط مصطفى البابى الحلبى ٠

ــ الإتقان فى علوم القرآن ٠

للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطى تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ، ــ ١٩٨٥م نشر وتوزيع دار التراث ــ القاهرة ٠

ــ البحر المديد فى تفسير القرآن المجيد ٠

لأبى العباس أحمد بن محمد بن عجيبة ١١٦١هـ ــ ١٢٢٤هـ تحقيق أحمد عبد الله القرشى رسلان القاهرة ١٤١٩هـ ــ ١٩٩٩م ٠

ــ البداية والنهاية

تأليف أبو الفداء الحافظ ابن كثير المشقى المتوفى سنة ٧٧٤هـ دار الريان للتراث ٠

ــ التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول ﷺ

منصور على ناصف

- **الجامع الصحيح وهو سنن الترمذى ٠**
لأبى عيسى بن سورة تحقيق الشيخ إبراهيم عطوه غوص دار الحديث ـ القاهرة ٠
- **الجامع الصغير للسيوطى ٠**
ط مصطفى الحلبى بمصر ٠
- **الجامع لأحكام القرآن**
لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى الهيئة المصرية للكتاب ٠
- **السيرة النبوية ٠**
لابن هشام حققها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها مصطفى السقا ، إبراهيم الإبيارى وعبد الحفيظ شلبى ٠ مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م ٠
- **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل**
تأليف / أبى القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشرى الخوارزمى ٤٦٧هـ ـ ٥٣٨هـ دار الفكر بيروت ٠
- **المستدرك**
للحاكم أبو عبد الله النيسابورى المتوفى سنة ٤٠٥هـ حيدر آباد الدكن ٠
- **الموطأ**
لإمام الأئمة وعالم الدنية مالك بن أنس رضى الله عنه صححه وعلق عليه وخرج أحاديثه محمد فؤاد عبد الباقى دار الكتب العربية عيسى البابى الحلبى وشركاه ٠

– تفسير أبى السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم .

للإمام أبى السعود محمد بن محمد العمادى المتوفى ٩٥١هـ الطبعة الثانية ١٤١١هـ – ١٩٩٠م دار احياء التراث العربى بيروت لبنان .

– تفسير أضواء البيان

– تفسير الإمام الألوسى المسمى روح المعانى .

للعلامة أبى فضل شهاب الدين السيد محمود الألوسى البغدادى المتوفى سنة ١٢٧٠ دار احياء التراث العربى بيروت لبنان .

– تفسير البحر المحيط

تأليف محمد بن يوسف بن على المتوفى سنة ٧٤٥هـ نسخة مصورة بالأوفست عن الطبعة الأولى – مطبعة السعادة مصر .

– تفسير التحرير والتنوير .

تأليف الأستاذ الإمام الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور .
دار سحنون للنشر والتوزيع تونس .

– تفسير القرآن العظيم .

للإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبو الفداء اسماعيل ابن كثير القرشى الدمشقى . المتوفى سنة ٧٧٤هـ الناشر مكتبة التراث الإسلامى سوريا – حلب .

– تفسير المراغى

تأليف أحمد مصطفى المراغى أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية بكلية دار العلوم سابقا دار احياء التراث العربى – بيروت .

ـ تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٠

تأليف نظام الدين الحسن بن محمد الحسين القمى النيسابورى المتوفى سنة ٧٢٨هـ تحقيق ومراجعة إبراهيم عطوه عوض شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر محمود نصار الحلبى وشركاه / خلفاء ٠

ـ جامع البيان فى تفسير القرآن ٠

للإمام أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١ هـ وبهامشه تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للإمام النيسابورى ٠ دار الحديث القاهرة ١٤٠٧هـ ١٩٧٨ م ٠

ـ حاشية الجمل على الجلالين ٠

ـ زاد المسير فى علم التفسير ٠

للإمام أبى الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن على بن محمد الجوزى القرشى البغدادى المتوفى سنة ٥٩٧هـ حققه وكتب هوامشه محمد بن عبد الرحمن عبد الله أستاذ بكلية الدراسات الإسلامية بالأزهر خرج أحاديثه أبو هاجر السعيد بن بسيونى زغلول دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة الأولى جمادى الأول ١٤٠٧هـ كانون الثانى ١٩٨٧م ٠

ـ سنن ابن ماجه ٠

الحافظ أبى عبد الله محمد بن يزيد القزوينى ٠ مطبعة دار الحديث بالقاهرة ٠

ـ سنن ابى داود ٠

للإمام الحافظ أبى داود سليمان بن الأشعث السجستانى الأزدى ٢٠٢هـ ـ ٢٧٥ هـ ٠ تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد المكتبة العصرية صيدا ـ بيروت ـ ومطبعة دار الفكر ٠

ـ سنن النسائى

بشرح الحافظ جلال الدين السيوطى وحاشية الإمام السندى دار الكتب العلمية بيروت لبنان ٠

ـ شعب الإيمان للبيهقى٠

تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيونى ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط أولى ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م ٠

ـ صحيح الإمام البخارى ٠

لأبى عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ابن المغيرة بن بردوية البخارى الجعفى رضى الله تعالى عنه ونفعنا به أمين دار مطابع الشعب وطبعة الحلبى ٠

ـ صحيح الإمام مسلم بشرح الإمام النووى

المطبعة المصرية ومكتبتها ٠

ـ فتح البارى شرح صحيح البخارى ٠

للإمام الحافظ أحمد بن على بن حجر العسقلانى ٧٧٣هـ ـ ٨٥٢ هـ دار المعرفة ٠

ـ **فى ظلال القرآن م ٤ ج ١٦٠**

بقلم سيد قطب طبعة جديـــدة مشـــروعة تتضمـــن إضافـــات وتنقيحات تركها المؤلف وتنشر للمرة الأولى دار الشـــروق ـ بيروت ١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦ م

ـ **قصص الأنبياء ٠**

للإمام أبى الفداء إســـماعيل بـــن كثـــير ٧٠١ ـ ٧٧٤ هــــ الناشِر ـ مكتبة التوفيقية ٠

ـ **كشف الخفاء ومزيل الألباس عما اشتهر من الأحـــاديث علـــى السنه الناس ٠**

للشيخ إسماعيل محمد العجلونى مكتبة القدسى القاهرة ١٣٥١هـ ٠

ـ **لسان العرب للإمام العلامة ابن منظور ٦٣٠هـ ـ ٧١١هــــ**

مؤسسة التاريخ العربى بيروت لبنان ٠

ـ **مجمع البيان فى تفسير القرآن ٠**

تأليف الشيخ أبوعلى الفضل بن الحسن الطبرسى مـــن أكـــابر علماء الإمامية فى القرن السادس طبعـــة جديـــدة ومصححـــة منشورات دار مكتبة الحياة بيروت لبنان ٠

ـ **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٠**

للحافظ نور الدين على بن إبراهيم أبى بكر الهيثمى المتوفـــى سنة ٨٠٧هـ بتحرير الحافظين الجليلين العراقى وابن جريـــر مكتبة القدسى ١٨٥٢ ٠

- مسند الإمام أحمد بن حنبل طبعة المكتب الإسلامى .
- التفسير الوسيط للقرآن الكريم .
للإمام الأكبر الدكتور / محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهـــر .
تاريخ النشر فبراير ١٩٩٨ الناشر دار النهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع إدارة النشر ٢١ ش أحمد عرابى المهندسين ـ القاهرة .

إلحاق

- عمدة القارى شرح صحيح البخارى للإمام بدر الدين العينى المتوفى سنة ٨٥٥ هـ طبعة دار احياء التراث بيروت .
- الترغيب والترهيب من الحديث الشريف تأليف الإمام الحافظ زكى الدين عبد العظيم ابن عبد القوى المنذرى ضبط أحاديثه وعلق عليه مصطفى محمد عمارة طبعة دار الفكر .

فهرس الموضوعات

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
١٣٦٢٣ / ٢٠٠٠

الترقيم الدولى I.S.B.N
977 - 5819 -

مكتب أبو عمر للكمبيوتر
والتجهيزات الفنية ت ٥١٠٥٩٨٠